سلسلة أجمل الروايات العالمية

علي مولا

تريز راكان

الوحش في الإنسان

تأليف
إميل فرنسوا زولا

إعداد وتحليل وتقديم
الدكتور رحاب عكاوي



دار الحرف العربي

تريز راكان

الوحش في الإنسان

إسم الكتاب:
تريز راكان
الوحش في الإنسان

تأليف:
إميل فرنسوا زولا
إعداد وتحليل وتقديم:
الدكتور رحاب عكاوي

الناشر:
دار الحرف العربي
للطباعة والنشر والتوزيع
زقاق البلاط - بناية فخر الدين
تلفون وفاكس: 009611/361045
بيروت - لبنان
E-Mail: dar_al_harf_alarabi@yahoo.com

الطبعة:
الأولى 2005

تصميم الغلاف:
فواد سليمان وهبي

الترقيم الدولي:
9953-449-60-0

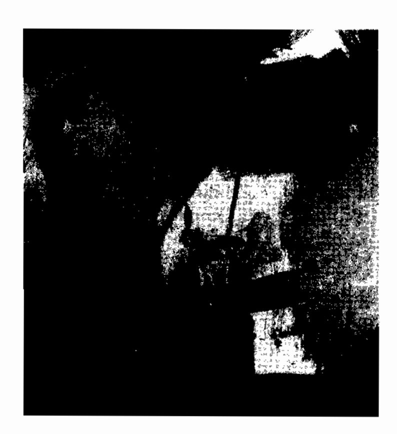
سلسلة أجمل الروايات العالمية

تريز راكان

الوحش في الإنسان

تأليف
إميل فرنسوا زولا

إعداد وتحليل وتقديم
الدكتور رحاب عكاوي





دار الحرف العربي

الطبعة الأولى

١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م



للطباعة والنشر والتوزيع

ص. ب: ١١٣/٦٤٨٠

فاكس: ٠٠٩٦١١/٣٦١٠٤٥

بيروت - لبنان

طبع في لبنان Printed In Lebanon

إميل فرانسوا زولا

١٨٤٠ ـ ١٩٠٢

في مدينة البندقية، في القرن الثامن عشر، كانت تعيش أسرة تحمل لقب زولا، تزوّج أحد أبنائها فتاة من جزيرة كورفو، وولد لهما في سنة ١٧٩٥ الطفل فرانسوا، من أب إيطالي وأم يونانية. والتحق الفتى بمدرسة پاڤيا الحربية وأصبح ضابطاً في مدفعية فرقة الأمير أوجين دو بوهارنيه نائب ملك إيطاليا. ومن ثم ترك فرانسوا زولا سلك الجندية لدراسة الهندسة المدنية في جامعة پادوڤا. والتحق بوظيفة في السكة الحديد بهولندا فإنجلترا، ثم انخرط في الفرقة الأجنبية بالجزائر. وبعد أن بقي فيها سنتين فتح مكتب أعمال في مارسيليا سنة ١٨٣٣، وحقق عدة أعمال وقدّم للحكومة الفرنسية مشروعات كبيرة أهمها مشروع شق قناة تموّن مدينة أكس[١] في جنوبي فرنسا بمياه الشرب. غير أنه قامت عراقيل أمام مشروع هذه القناة قبل إنجازها ما اضطر فرانسوا إلى التردّد من وقت إلى آخر على پاريس، حيث تزوج فيها سنة ١٨٣٩ بفتاة فرنسية في التاسعة عشرة من عمرها تدعى إميلي أوبير. ومرّت سنة وعاد فرانسوا إلى پاريس ومعه زوجته، واستأجر شقة في شارع سان جوزيف، وفي هذا المسكن رزق بإميل زولا في الثاني من شهر نيسان/ أبريل سنة ١٨٤٠.



(١) Aix - en - Provence.

في سنة ١٨٤٣ عاد والد الطفل إلى مدينة أكس لتنفيذ مشروع القناة ، ولكنه توفي بعد أربع سنوات بذات الرئة دون إنجازه تاركاً وراءه بعض الديون . وإذا كان من الطبيعي ألاّ تعلق بمخيلة الطفل إميل إلاّ ذكريات باهتة عن والده ، فإنه ورث عنه موهبة الملاحظة ، فشبّ بنّاءً في كل شيء . أمّا عن والدته فورث الشعور بالواقع والمثابرة العنيدة .

تلقّى إميل زولا دروسه في مدينة أكس ، واحتفظ دائماً بحبه العميق لمقاطعة پروڤانس ، حتّى إنّ بعض مؤلفاته الكبيرة تشبّعت بجو هذه المقاطعة الهادئ المشمس . أمّا مدينة أكس فقد أطلق عليها في هذه المؤلفات اسم بلاسان وجعلها مهداً لأسرة روغون .

كان إميل تلميذاً نجيباً ذكيّاً ميّالاً إلى مادتي الجغرافية والتاريخ ، وهو يحب كزميله پول سيزان - الذي صار من مشاهير الرسامين - الطبيعة والهواء الطلق والصيد . ولذا انكبّ على القراءة والبحث ، وأبدى إعجاباً كبيراً بـ«ألفرد دو موسيه» و«جورج ساند» و«ڤيكتور هوغو» ، وقرض الشعر ، وشرع في كتابة التمثيليات والروايات التاريخية .

عاد مع والدته في سنة ١٨٥٨ إلى پاريس ليقيم فيها نهائيّاً . والتحق بآخر سنة من سنيّ الدراسة الثانوية بـ«ليسيه سان لوي» ، ولكنه رسب في البكالوريا ، واحتاج إلى المال فلم يفكر في إعادة الامتحان . ومرّ الفتى بسنوات بؤس مريرة دفعته إلى السكن في أحقر الدور ، والاكتفاء طيلة الأشهر بأكل الخبز المنقوع في زيت الزيتون الذي كان يرسله إليه أحد أصدقائه من جنوبي فرنسا . ولكنّ هذه الضائقة لم تمنعه من أحلام الطموح التي تسبح به في عالم الأدب ،

فهو يعتقد في موهبته كشاعر ملحمي . بيد أنّ تجاربه الأولى في هذا الميدان بدت عسيرة ، وعندما تتفتّح قريحته يظل يكتب طيلة الليل وهو مستلق في سريره ملتحفاً بغطاء رقيق لا يدفع غائلة البرد .

في هذه المرحلة من حياته كان إميل يعتز بأفكار استنكرها لاحقاً ، أنه رجل مولع بالمثالية ، يحذر العلم ويكره المادية ، يستهجن الواقعية ويرفض مذهب الحتمية ، وكان يقول : «ماذا تعنون بكلمة واقعي؟ أتفخرون بتصوير موضوعات عارية من الشعر والخيال! ولكن لكل شيء شعره وخياله . . من السبخ إلى الزهور! . . ولا سبيل إلى الرفعة إذا لم يجش صدر الإنسان بالشعر» .

وقد ظلّ الأديب الناشئ مستأنفاً طريق كفاح مزدوج ، كفاح خارجي ليضمن قوت يومه ، وكفاح داخلي ليصبح كاتباً فذّاً . ولأجل ذلك رضي العمل في أصغر الوظائف هرباً من الفاقة ، فالتحق مساعداً لكاتب في الجمرك بأجر شهري لا يتعدى ستين فرنكاً . ولكن الشاب لا يؤدي عمله كما يجب فيطرد ويجد نفسه مشرداً قد أنهكه الجوع كما أضناه الطموح . وأخيراً نجح في نشر بعض قصص له في الصحف الريفية دون أن يأبه لها أحد . وما كان ليرضى بالتقدير الوسط ، فكما يعتقد في موهبته كأديب ، كان يعتقد في عبقريته . واتخذ الشاب إميل ـ الذي لا يزال يبحث عن نفسه ـ شعار «كل شيء أو لا شيء» .

ولـمّا كان عليه انتظار رؤية الأمور بشكل أوضح ، ولشق طريقه وسط لجّ المدارس والمذاهب ، ووصوله إلى مدارج المثالية ، كان لا بدّ له من مواجهة قسوة متطلّبات الحياة . فبعد أن ترك وظيفة الجمرك راح يتصيّد الوظائف طيلة سنة كاملة ، وفي نهاية المطاف ، ونزولاً

عند رغبة أحد أصدقاء والده، التحق في مطلع سنة ١٨٦٢ بمكتبة هاشيت الشهيرة.

في بداية عمله في هذه المكتبة كُلّف بالتصدير، ثم عُيّن رئيساً لمكتب الإعلان والدعاية على أثر تقديمه إحدى قصائده لمديره الذي هنأه عليها ومنحه هذه الترقية. غير أنه بعد وضعه بضع قصائد أخرى نصحه مديره بترك الشعر، وهو يقول في هذا فيما بعد: «أيقنت فعلاً بضعفي كشاعر، إلاّ أني عزمت على استخدام الأداة التي رأيتها أكثر مسايرة لمستلزمات عصرنا: النثر».

وأتاح له عمله في مكتبة هاشيت الاتصال بعدد من أساتذة النقد والأدب في تلك الحقبة، من مثل رينان وسانت بوف وميشليه ولامارتين وليتريه وتين، كما سمح له بالتعرف على بعض محرري الصحف اليومية الذين أخذوا بيده في حقل الصحافة، وضمن من طريقهم الكتابة المنتظمة في جريدتي «لو بيتي جورنال» في پاريس و«لو سالوپوبليك» في ليون. وهكذا تحسّنت حاله المادية تحسّناً ملموساً، ولكنه أصبح مرهقاً من كثرة الإجهاد، إذ كان إلى جانب عمله الإداري واشتغاله بالصحافة ينقّح بعض مؤلفاته القديمة التي جمعها في كتاب سنة ١٨٦٤ بعنوان **«قصص إلى نينون»**[١]. وفي السنة التالية أصدر أول رواية له **«اعتراف كلود»**[٢]، ولم تنل هذه الرواية، التي حوت جزءاً كبيراً من سيرة حياته، أي نجاح. ويبدو أنه تأثّر في كتابتها المشبعة بالرومانسية والعاطفة بمؤلّف ألفرد دو موسيه «اعتراف أحد أبناء العصر». والواقع أن كلود ليس إلاّ زولا بعينه،

(١) Les contes à Ninon.

(٢) La confession de Claude.

ولورانس بطلة الرواية هي بيرت ، فتاة من الشعب عرفها من طريق صديقه پول سيزان ، وفيها يحاول كلود أن ينتشل هذه الفتاة الخاطئة من براثن الرذيلة دون أن يوفّق ، فيعود إلى مسقط رأسه ليتنشّق الهواء النقيّ .

وحدث في سنة ١٨٦٦ أنّ صاحب جريدة «الفيغارو» فيلمسان أصدر صحيفة أدبية باسم الحدث «L'evénement» ، ولـمّا كان يبحث عن الأدباء الناشئين ، استدعى إميل زولا وسأله عن الباب الذي يروق له أن يحرره ، فأجاب الشاب الخجول ، وكان يومها في الخامسة والعشرين ، أنه يحلو له تحرير باب الأدب ، وكان له ما أراد وترك عمله في مكتبة هاشيت ليتفرّغ لعمله الجديد .

في هذه الفترة وضع إميل زولا ، إلى جانب نقده الكتب في الصحيفة ، روايتين شعبيّتين تافهتين تماماً هما **«رغبة الموت»** و**«أسرار مارسيليا»** ، كما اهتمّ بنقد الأعمال الفنية . وفي سلسلة من المقالات التي جمعها فيما بعد تحت عنوان أحقادي **«Mes haines»** أيّد جماعة من الفنانين الناشئين من بينهم «مانيه» و«بيسارو» و«مونيه» لأنهم كانوا يناهضون الأساليب التقليدية ، ورفضت لجنة التحكيم المكوّنة من ذوي العقول الرجعية المغلقة عرض لوحاتهم في صالون المعرض السنوي بپاريس . وألهب إميل بسوطه الرسم التقليدي طالباً الفنان بأن «يصب من نفسه وقلبه على فنه ، وأن يظهر شخصيته في لوحاته بشجاعة» ، أي على الفنان أن يبرهن قبل كل شيء على قوته وموهبته وأصالته ، يقول زولا : «إنَّ الفن ككل شيء إنتاج بشري وعصارة بشرية . إنه جسمنا الذي يجهد نفسه في إخراج الأعمال الجيدة ، وكما أن جسمنا يتغيّر وفقاً للمناخ والأخلاق ، فكذلك تتغير العصارة . . لا أريد أعمالاً منقولة عن نماذج الأساتذة . . لا أريد ما

ليس بحياة وطباع وواقع ! فالعمل الفني هو المستمد من ملامح الطبيعة التي يفرغ الفنان فيها طباعه عند تسجيلها بريشته» .

وهكذا حملت مقالاته السخط عليه ، فاتهمه عدد كبير من النقاد بأنه يحث على الفوضى في الفن والقضاء على تراث الأساتذة الكبار ، وخشي فيلمسان الضرر على صحيفته فاستدعى زولا وطلب منه ترك وظيفته مع السماح له بكتابة مقالة أخيرة يدافع بها عن وجهة نظره حتى لا يظن أنه قد فصل . وهنا نصل إلى منحنٍ هام في حياة إميل زولا الأدبية ، حيث سيحاول إقرار مذهبه بانتقاله من المثالية إلى الواقعية . ومن الآن فصاعداً سيجعل الملاحظة والتجربة نبراساً له والحتمية سبيله .

وعندما انعقد «مؤتمر فرنسا العلمي» هذه المرة بمدينة أكس في شهر كانون الأول/ ديسمبر ١٨٦٦ لمناقشة موضوع الرواية وتاريخها ، وجد زولا خير فرصة لعرض آرائه وأفكاره ، فأرسل مذكرة إلى المؤتمر أعلن فيها أنّ الإنتاج الذهني يترجم وسيلة الحياة لمختلف المجتمعات البشرية . وبعد أن استعرض تاريخ الرواية منذ العصور القديمة ـ وكان أبطالها من الآلهة والدواب ـ وصل إلى القرن التاسع عشر حيث أصبح أبطال الرواية بشراً . والروائي الذي استهوته الأساليب العلمية يدرس هؤلاء الأبطال في الوسط الاجتماعي الذي يعيشون فيه ويشهد تطورهم وتصرّفاتهم ، وهنا يصرح زولا قائلاً : «لو أني طلبت من بلزاك في حال حياته أن يحدد لي معنى الرواية لردّ عليّ دون شك قائلاً : الرواية هي رسالة في تشريح الطبائع والأخلاق ، وتجميع لأحداث البشرية ، وفلسفة تجريبية للأهواء ، هدفها وصف حقيقة الناس والطبيعة» .

ورغب إميل في تطبيق مذهب الحتمية في دراسة الواقع الاجتماعي فنشر في سنة ١٨٦٨ روايتين جديدتين هما : **«تريز راكان»** و**«مادلين فيرا»** تخالفان تماماً أعماله السابقة ، ويمكن ربطهما بإنتاجه الضخم **«أسرة روغون ماكار»** ، فالأبطال في هاتين الروايتين «أناس مثقلون بالرواسب الوراثية ويتطورون تحت تأثير البيئة» . وقد أثارت هاتان الروايتان سخط وغضب الأوساط البرجوازية ، ووصفتهما بعض الصحف بالأدب المتعفّن . وأخيراً وضعت «تريز راكان» على القائمة السوداء وسحبت «مادلين فيرا» قدمي زولا إلى النيابة ، فغضب لذلك واستنكر تدخل القضاء في الشؤون الأدبية .

وانشغلت الأذهان في هذه الآونة بالتقدم العلمي المطّرد ، فكتاب داروين عن «أصل الأنواع» ، وكذلك كتاب كلود برنار «مقدمة في دراسة الطب التجريبي» الذي ظهر سنة ١٨٦٦ ولم يطلع عليه زولا إلاّ بعد مضي اثني عشر عاماً ، لقيا رواجاً كبيراً . وجلبت الحتمية وقوانين الوراثة وتحسين النسل للأدباء عناصر عمل وفهم واستيعاب لم تكن في البال . وبعد أن مزّق العلم كل الحجب ، فمن الطبيعي أن يخطو الأدب على هديه ، وفي نظر زولا وزملائه أنّ على الروائي استبدال قلمه بمشرط التشريح ليصبح محقّقاً وإكلينيكيّاً وعالماً . واهتمّ زولا بأثر البيئة في الفرد ، وبالسموم الخفية التي يحملها الدم الجاري في العروق ، والعيوب التي تنتقل من الآباء إلى الأبناء ، والعوامل الاجتماعية والبيولوجية . ولن يكتفي بأن يلقي بصيصاً من النور على أعماق الفيزيولوجيا ، بل سيجول في أدنى طبقات الحياة الحديثة ليصف الجماهير الهزيلة الشاحبة والأحياء الشعبية وما فيها من بؤس وشقاء والطرقات المعتمة التي تتسكع فيها بائعات الهوى والحانات

المقبضة التي تقتل مشروباتها الروحية المغشوشة جماعة العمال . ومن الآن ستعكس مؤلفات إميل زولا عصره ، كل عصره ، دون أن ينسى ذكر المجتمع الراقي المتعطّش إلى الملذات والأبهة .

*

مؤلفاته ووفاته :

روغون ماكار هي الرائعة التي ألّفها زولا والتي تحمل عنواناً ثانوياً هو «التاريخ الطبيعي والاجتماعي لأسرة عاشت في ظل الأمبراطورية الثانية» ، وتتكون من عشرين مجلّداً كل منها له نهاية مستقلة ، ولكنها جميعها مرتبطة ببعضها برباط قوي يجعل منها مجموعة واحدة ضخمة ومتجانسة . ظهر المجلد الأول منها في سنة ١٨٧١ تحت عنوان «ثروة أسرة روغون» وصدر المجلد الأخير سنة ١٨٩٣ بعنوان «الدكتور پاسكال» . ولا شك أن هذه الرواية الكبيرة التي استطاع زولا ، بفضل موهبته وإرادته وقدرته على العمل المتواصل ، أن ينتهي منها ، تتبوأ مركز الصدارة في تاريخ الرواية الفرنسية . وقد أخذ زولا من كتاب «الدكتور لوكا» الضخم الصادر في سنة ١٨٤٧ عدة أمثلة للتباين الطبيعي الخلقي ترجع إلى الوراثة كالأمراض العصبية والجنون والاستعداد لارتكاب الجرائم ، لكنه لجأ بالتأكيد إلى كتاب كلود برنار عندما قدّم لنا في سنة ١٨٨٠ - بعد أن نشر تسعة مجلدات من روغون ماكار - بياناً كاملاً بمذهبه في الرواية التجريبية . فقد أعلن برنار أنّ الطب يمكن أن يتحوّل إلى علم لو بُني على الفيزيولوجيا وخضع للوسائل القائمة على الاختيار والتجربة ، كما هو الحال في علمي الكيمياء والطبيعة . واكتفى زولا بتطبيق أفكار كلود برنار عن الطب على الفن الروائي ، ودعا الكتّاب إلى

القيام بتجارب معملية على أشخاص رواياتهم .

والرواية في نظر زولا مجرد استقصاء للطبيعة والكائنات والأشياء . وعقدة الرواية تهمّ قليلاً : فبدل أن يتخيّل الروائي مغامرة ويغذيها بالمفاجآت ، ما عليه إلا رصد تصرفات رجل أو جماعة بأمانة . وتصبح الرواية سجلاً للأحداث ليس إلاّ . يقول : «إن الرواية طغت على مختلف الميادين وسادت العالم بقدر ما ساده العلم ، فقد تناولت كل الموضوعات ، فكتبت التاريخ وتصدّت للفيزيولوجيا وعلم النفس وصعدت إلى أرقى القصائد ودرست المسائل الأخرى المختلفة من اقتصاد اجتماعي وأخلاق ودين ، حتى لقد اتخذت الطبيعة كلها ميداناً تصول فيه وتجول» .

وعلى الروائي لكي يصطبغ بصبغة العلم ألاّ يفرض شخصيّته على الرواية وأن يكون متجلّداً لا يظهر إحساسه ، وأن يلتزم العوامل التي يتحقق منها ، وأن يكون «ككاتب العقود لا يبدي رأياً أو ينطق حكماً» ، ولا يكدس الأفكار أو يسير وراء الافتراضات ، وإنما يقوم بالتقطيع والتشريح ، وبهذا يلقن الناس علم الحياة وينشر بينهم عبر الواقع . ويعلن زولا على سبيل الاستنتاج : «هذه هي الرواية الواقعية اليوم . ولقد كتب لها النصر ، فجميع الروائيين يلجأون إليها حتى الذين حاولوا فيما سبق أن يقضوا عليها وهي في مهدها . ولعمري إنها الأحدوثة الأبدية : يغضب الإنسان ويسخر ، ثم ينتهي به الأمر إلى التقليد . . ونحن الآن أمام عصر جديد يفتح لنا أبوابه على مصاريعها» .

وتجدر الإشارة إلى أن زولا طلب من الحكومة قبل ذلك بسنة ، في كتيب عنوانه **«الجمهورية والأدب»** ، أن تحكم في صالح إنتاجه الأدبي وإنتاج أصدقائه حيث قال : «إن حلّ هذه المسألة له خطورته

الجسيمة ، فحياة الجمهورية نفسها في نظري رهن بهذا الحل . ستعيش الجمهورية ولا تعيش وفقاً لقبولها أو عدم قبولها لمذهبنا هذا . فإمّا أن تكون الجمهورية واقعية وإمّا لا تكون جديرة بهذا الاسم» . ولم يكتف زولا بجذب الجمهورية إلى جهته بل حاول أن يقنع نفسه والناس بأنّ فلوبير والأخوين جونكور يميلون إلى مذهبه .

وزولا في الواقع كان يعتبر بلزاك أباه الروحي ، ومع ذلك فإنه لا ينكر بأنه لم يرث عنه طموحه : فهو لا يعتزم مثله دراسة مجتمع بأكمله وإنما مجرد أسرة . وهو يبدي إعجابه بفلوبير معتبراً قصته «مدام بوفاري» توراة الواقعية ، ويثني ثناء حميداً على «جرميني لاسرتو» وهي الرواية التي اهتمّ بها الأخوان جونكور بحالة هستيريا أصابت خادمة فتدهورت صحتها ، ولكن لا يمكن اعتبار فلوبير ولا الأخوين جونكور من مؤسسي الواقعية ، وإنما أراد إميل زولا إيجاد أسماء رنّانة في الأدب تعزيزاً لمذهبه .

وعلى الرغم من أن نظرية الرواية الجديدة التجريبية لم تظهر بوضوح تام إلاّ في سنة ١٨٨٠ ، فإنها انبثقت في الحقيقة قبل سنة ١٨٧٠ بقليل مع سلسلة «روغون ماكار» . غير أن الظروف والنقد الذي استهدفت له أرغمت زولا على توطيد أركانها وإبرازها في إطارها الكامل بعد مولدها بعشر سنوات . أضف إلى ذلك أنه حين اطلع زولا سنة ١٨٧٨ على كتاب كلود برنار وجد فيه سلاحاً ضدّ الميتافيزيقية والمثالية اللتين كان يمقتهما ، ومن هنا سنحت له فرصة جديدة لأن يوثق الرباط بين العلم والأدب .

وقد تطلّب تطبيق مذهب زولا العودة إلى مستندات عدة ، فكي يؤلف العشرين مجلّداً ، المتضمّنة لرائعته الأدبية ، اضطر إلى القيام

بعشرين تحقيقاً وبحثاً واستقصاء . كان عليه أن يلمّ بالحياة الفرنسية كلها وبأهم ملامح المجتمع في عهد الأمبراطورية الثانية في مجال السياسة والمال وعالم النساء المستهترات والأوساط الكنسية والبورجوازيين والفنانين والعسكريين والفلاحين والعمال . وكان يأخذ من أسرة روغون ماكار شخصاً أو شخصين لبطولة كل رواية من رواياته ، ونادراً ما يظهرهما ثانية في بقية سلسلته . إنّ جميع أبطال زولا ليس لهم وجود إلاّ في البيئة وللبيئة التي ينتمون إليها ، ولهذا اهتمّ بجمع كل ما يتعلق بهذه البيئة ، وكان في الوقت عينه يطلع على بعض المؤلفات التي تتصدى لوصفها محاولاً الاختلاط بالأشخاص الذين عاشوا في الفترة التي تقوم عليها روايته .

وكان لا تستغرق كتابة أية رواية في يده أكثر من أربعة أو خمسة أشهر ، فهو يكتب في اليوم ما يوازي ثلاث صفحات مطبوعة دون شطب ودون الاهتمام بكمال الأسلوب ، وكل جزء من «روغون ماكار» نشر أولاً في الصحف على شكل مسلسلات ، وفي بعض الأحيان كان يسمح بنشر بداية الرواية قبل أن يمنحها اللمسة الأخيرة . وكثيراً ما كان ينهال عليه النقد اللاذع من بعض القراء والتهديد من جانب السلطات ، وربما أدى ذلك إلى منع الاستمرار في نشر الرواية في الصحيفة وانسحاب بعض المشتركين فيها ، وعندما تظهر الرواية في المكتبات تصبح موضع نقد لا يقل عنفاً عن الانتقادات السابقة ، فكان ذلك دعاية ممتازة أدت إلى إعادة طبعها مئات المرات .

ونحن إذا نظرنا إلى مؤلفات زولا في مجموعها لاحظنا أن المستندات التي عاد إليها لكتابة روغون ماكار جمعت بهدف تأييد بعض آراء سياسية واجتماعية وفلسفية . ولم تكن هذه الآراء واضحة

في كتابته ، فقد اكتفى زولا بتأكيد ولائه للجمهورية وكراهيته للأمبراطورية المنهارة ، وعندما كتب «**الحانة**» وجد نفسه للمرة الأولى أمام العالم العمالي ، ومع كل ، فقد رفض أن يسمّى ، في ذلك الوقت بـ«الكاتب الديموقراطي الاشتراكي» . وبعد «**الحانة**» وضح تطوره وراحت كتبه تعكس كفاحه ونضاله النابع من الأحداث الجارية ، وهذا الكفاح هو الذي جرّه إلى الاشتراكية .

ولا شك أنّ «**الحانة**» التي وضعها سنة ١٨٧٧ هي التي فتحت له أبواب النجاح وجلبت له سعة العيش ، حيث اشترى في قرية «مدان» بضاحية پاريس داراً يقضي فيها أكثر أوقات السنة بعيداً عن الضَوضاء ، وجاءه الأدباء الناشئون لزيارته والتعبير عن إعجابهم به وتأييدهم له . وكثيراً ما كانوا يدافعون عنه بأقلامهم ومحاضراتهم ، وأخيراً انضم إليه خمسة منهم لينشروا معاً في سنة ١٨٨٠ مجموعة من القصص تحت عنوان «**أمسيات مدان**» .

وبينا إميل زولا يستأنف كتابةَ «روغون ماكار» جمع في سنة ١٨٨١ ، في عدة أجزاء ، دراسات سبق له نشرها في مختلف الصحف تأييداً لمذهبه ، نذكر منها :

١ ـ **مؤلفونا الدراميون** .

٢ ـ **وثائق أدبية** .

٣ ـ **المسرح والمذهب الطبيعي** .

٤ ـ **الروائيون والمذهب الطبيعي** .

وبمجرد الانتهاء من روغون ماكار ، وقبل أن يلتقط أنفاسه ، انكبّ زولا على تأليف سلسلة أخرى من الكتب أصدرها تحت عنوان عام هو : «**المدن الثلاث**» الأول ١٨٩٤ عن «لورد» والثاني ١٨٩٦ عن روما والثالث ١٨٩٧ عن پاريس .

وفي هذه الفترة عينها جرى حادث قسم فرنسا إلى معسكرين متعاديين ، وألقى زولا بنفسه في ساح المعركة ، ونعني بهذا الحادث «قضية دريفوس» ففي ١٣ كانون الثاني/ يناير سنة ١٨٩٨ نشر زولا مقاله المشهور «أنا أتهم» وجهه إلى رئيس الجمهورية ، وأنهاه بهذه الجملة «إن العمل الذي أقوم به ليس إلاّ وسيلة ثورية لسرعة تفجير الحقيقة والعدالة» . وبعد أن التزم جانب الثبات كعادته ترك هدوء داره لينزل إلى الشارع ويختلط بالجماهير ويذهب إلى المحكمة ويناضل تلبية منه لنداء ضميره . وشطب اسمه من قائمة الذين منحتهم الدولة وسام الشرف ، وحكم عليه بالسجن لمدة سنة وبغرامة قدرها ثلاثة آلاف فرنك ، فأقنعه أصدقاؤه بالتوجه إلى إنجلترا ، فظلّ فيها من ١٨ تموز/ يوليو ١٨٩٨ إلى ٥ حزيران/ يونيو ١٨٩٩ ، ثم عاد إلى فرنسا على أثر إعلان قانون العفو العام .

ثم صدرت له سلسلة جديدة من كتبه أطلق عليها اسم **«الأناجيل الأربعة»** وهي مكوّنة من «الخصوبة» حيث يمجّد الكاتب الأسرة ، و«العمل» يتناول فيه تحرير العمال ، و«الحقيقة» حيث يعلن هزيمة الباطل والكذب ، وحال الموت دون كتابة إنجيله الرابع «العدالة» الذي كان يعدّه ليكون بمثابة مصالحة للشعوب ومدعاة للرخاء الاجتماعي .

وفي ٢٨ أيلول/ سبتمبر سنة ١٩٠٢ مات إميل زولا في شقته بباريس مختنقاً بثاني أكسيد الكربون . وفي الرابع من حزيران/ يونيو ١٩٠٨ وافق البرلمان على نقل رفاته إلى مقابر الخالدين في حفل شهده رئيس الجمهورية .

استناداً إلى ما تقدّم يمكن حصر مؤلفات زولا فيما يلي :

- قصص إلى نينون Contes à Ninon سنة ١٨٦٤ .
- اعتراف كلود La Confession de Claude سنة ١٨٦٥ .
- رغبة الموت Le Vœu de la mort سنة ١٨٦٦ .
- أسرار مارسيليا Les mystères de Marseille سنة ١٨٦٦ .
- أحقادي Mes haines سنة ١٨٦٦ .
- تريز راكان Thérèse Raquin سنة ١٨٦٧ .
- مادلين فيرا Madeleine Férat سنة ١٨٦٧ .
- أسرة روغون ماكار Les Rougon Macquart بين ١٨٦٨ و ١٨٨١ .
- الجمهورية والأدب La République et la littérature سنة ١٨٧٩ .
- الحانة L'Assommoir سنة ١٨٧٧ .
- أمسيات مدان Les soirées de Médan سنة ١٨٨٠ .
- مؤلفونا الدراميون سنة ١٨٨١ .
- وثائق أدبية سنة ١٨٨١ .
- المسرح والمذهب الطبيعي سنة ١٨٨١ .
- الروائيون والمذهب الطبيعي سنة ١٨٨١ .
- المدن الثلاث بين ١٨٩٤ و١٨٩٧ .
- الأناجيل الأربعة Les Quatre Evangiles ١٨٩٩ ـ ١٩٠٠ .
- الوحش في الإنسان La Bête Humaine سنة ١٨٩٠ .
- جرمينال Germinal سنة ١٨٨٥ .
- نانا Nana سنة ١٨٨٠ .
- الرواية التجريبية Le Roman expérimental
- النكبة La débâcle
- الكوميديا الإنسانية La Comédie Humaine
- غليان القدر Pot - Bouillé

- سعادة السيدات Au bonheur des dames
- المال L'argent
- الجشع La curée
- فتح مدينة بلاسان La conquête de Plassans
- جوف باريس Le ventre de Paris
- الدكتور پسكال Le Docteur Pascal

تريز راكان

سبق القول إنّ إميل زولا أراد تطبيق مذهب الحتمية في دراسة الواقع الاجتماعي ، فنشر في سنة ١٨٦٨ روايتين هما «تريز راكان» و«مادلين فيرا» تخالفان تماماً أعماله السابقة ، ويمكن ربطهما بإنتاجه الضخم «روغون ماكار» ، فالأبطال في هاتين الروايتين أناس مثقلون بالرواسب الوراثية ويتطوّرون تحت تأثير البيئة .

وقد أثار هذان الكتابان اشمئزاز وغضب الأوساط البرجوازية ، ووصفتهما بعض الصحف بالأدب المتعفّن ، ثم بعد ذلك وُضعت «تريز راكان» في القائمة السوداء وسحبت «مادلين فيرا» قدم زولا إلى المحاكمة .

والجدير بالذكر أنّ «تريز راكان» صارت بمثابة الدجاجة التي تبيض ذهباً للمخرج المصري . وهي رواية لا تنتمي بالطبع إلى الروايات الشعبية ، ولكن أحداثها أقرب إلى ما يدور في هذه الروايات . وظهرت هذه الرواية ثلاث مرات في مصر ، كما قدّمها الفرنسيون والبريطانيون . فقد أخرجها مارسيل كارنيه عام ١٩٥٣ في فيلم من بطولة سيمون سينيوريه . أمّا اليوناني جورج بان كوزماتوس فقد قدّمها عام ١٩٧٢ تحت عنوان «خطيئة» بطولة راكيل والش . وفي

مصر كانت تجربة صلاح أبو سيف مع هذه الرواية جديرة بالاهتمام، حيث أخرجها عام ١٩٥١ تحت عنوان «لك يوم يا ظالم» عن سيناريو لوفيقة أبو جبل. وهو السيناريو نفسه الذي أعاد أبو سيف إخراجه من جديد عام ١٩٧٨ تحت عنوان «المجرم». وبعد ذلك بسنتين قدّم أشرف فهمي حكاية ريفية عن «تريز راكان» تحت عنوان «الوحش في الإنسان» كتبه عبد الحي أديب.

وتريز ـ المصرية ـ امرأة تعيش مع عمتها التي ربّتها. هي خجول لا تعرف أن للدنيا حدوداً سوى جدران منزلها، لذا تعمل العجوز على تزويجها من ابنها المعتوه.. وتقبل التجربة عن رضاء.. فلا شيء يتغير في الدنيا سوى أنها منسوبة إلى رجل كان يعيش قريباً منها. ويدخل إلى هذه الأسرة رجل، هو صديق للزوج، الذي يرمي شباكه حول المرأة فيفتح في آفاقها طموحات لم تعهدها في نفسها. وفي أول الأمر تقاوم، ثم لا تلبث أن تخضع وتخون، وتمتثل له وتشترك معه في التخلص من الزوج. وفي الغرفة نفسها تعيش مع زوجها الجديد، إلاّ أن الندم يتسرّب إليها فينهش لحمها، فيقتل كل منهما الآخر بعد حالة الكراهية التي أعقبت حبّاً آثماً. وبعد قتل الزوج سعى الرجل إلى تعذيب العجوز التي صدمت عندما عرفت الحقيقة.

وقد صاغ أبو سيف فيلميه في أجواء شعبية، وجد نفسه متوافقاً مع رواية زولا التي صورت أسرة باريسية فقيرة تسكن حيّاً شعبيّاً، تمارس الحياكة من أجل رزقها. إلاّ أنّ «أبو سيف» أضاف شخصيات جديدة مثل الجيران الطيبين وصبي المحامي والمعلم الشهم.

وجميع الأفلام التي أخرجت عن «تريز راكان» اهتمّت بالرجل الوافد على الأسرة بما فيها الأفلام البريطانية والفرنسية. فمنير إنسان

بلا عواطف ، يفكّر في الاستحواذ على زوجة زميله إنصاف ، فيقتل الزوج ويتزوج المرأة ، المرأة التي لم تتعلّم التمرد يوماً ، فمن السهل تحريكها كعرائس الماريونيت (الدمى المتحركة) ، فكما حركتها عمتها طيلة سني حياتها ، فإن منيراً يحركها بالكيفية نفسها . وأمّا «إلينا» في فيلم اليوناني كوزماتوس فرغم أنها امرأة ريفية ، فإنها لم تكن أبداً مغلوبة على أمرها ، وكانت العقل المدبّر للتخلّص من الزوج وعلى الدرجة عينها من الشرّ .

وأبرز ما في الأفلام المأخوذة عن «تريز راكان» هو شخصية العمّة ، فهي موجودة بالكيفية نفسها في جميع الأفلام ، تؤثر في سير الأحداث بشكل إيجابي ، فبعد أن يموت ابنها ، وبعد أن تكتشف خيانة زوجته مع صديقه ، تصاب بالخرس وهي تسمع اعتراف الخائنين بما اقترفاه ، ثم تحاول كشف جرم الاثنين أمام الجيران مرة تلو الأخرى دون جدوى .

أمّا البطل العائد من الخارج فهو إنسان يسعى إلى امتلاك زوجة صديقه محمود ابن البلد في فيلم أشرف فهمي ، فقد كان يحب «صدفة» قبل سفره ما يعطي العلاقة بعضاً من الشرعية . وقد نقل المخرج أجواء فيلمه إلى منطقة ريفية قريبة من أبي قير حيث يتم تصنيع الطوب الأحمر . في بادئ الأمر يشعر المتفرج بشيء من التعاطف مع العاشقين اللذين فرقتهما الغربة ، فها هو الرجل يجد حبيبته زوجة لرجل أبله لا يستحقها . . إلاّ أنه بعد قتل الرجل تتحوّل العلاقة بين العاشقين إلى جحيم لا يطاق ، فلا يقدر أي منهما على لمس الآخر ، ويقتتلان كما لم يعتادا في سابق عهدهما .

ورغم أن فيلم «لك يوم يا ظالم» هو أكثر الأفلام المأخوذة عن الرواية جودة ، إلاّ أنّ أيّاً من هذه الأفلام ، بما فيها «خطيئة» لا يرقى

إلى مستوى الفيلم الذي أخرجه مارسيل كارنيه ، الذي لم يرق بدوره إلى الرواية التي سطرها الروائي إميل زولا . . والطريف أن أشرف فهمي اقتبس من زولا قصته وأكسبها عنوان رواية أخرى . . وهي الرواية نفسها التي قام ببطولتها «جان جابان» لحساب السينما الأميركية عام ١٩٤١ .

الوحش في الإنسان (الدابّة البشرية)

يمكن إرجاع أديبنا في هذه الرواية ـ كما لاحظ جورج شنفيير الذي تناول زولا بالدراسة والتحليل العميقين ـ إلى الفكرة التي هيمنت على روايته هذه ، فجميع أشخاصها تتسلّط عليهم فكرة ثابتة تجعلهم لا يلاحظون ما يدور حولهم ، فينتهي بهم الأمر إلى التصادم ووقوع الكوارث ، لأنهم يسيرون بدافع أهوائهم في خطوط مستقيمة ومتوازية كقضبان السكة الحديد التي تمرّ عليها القوة الميكانيكية للقطارات .

وزولا يستغرق في التفكير عادة في شكل أبطال روايته ، يختصر الأحداث في كل فصل من الرواية . فهو كان يقود سيارة (القاطرة) عندما كان يحضّر روايته «الدابة البشرية» سنة ١٨٩٠ ، وفي «جرمينال» زار منجم فحم حجري .

«الوحش في الإنسان» عرضت على الشاشة للمرة الأولى سنة ١٩٣٨ للمخرج جان رونوار ، وكتب سيناريو الفيلم مع ابنة زولا ، دينيز لوبلان زولا ، في فيلم «سيڤرين» (سيمون سيمون) كانت تريد من عشيقها ، مهندس القاطرة لانتييه (جان غابيه) قتل زوجها ناظر المحطة لانتييه ، وهو رجل نبيل فخور بنفسه ، لا يقدر على ارتكاب مثل هذه الجريمة ، ولكنه في لحظة عصبيّة وغضب يطعن عشيقته بدل زوجها ، ثم ينتحر بعد ذلك بإلقاء نفسه تحت عجلات القاطرة .

تريز راكان



إذا اتخذت جادة «غينغو» إبان رجوعك من النهر ورصيف السفن ، ينتهي بك السير إلى ممر تعلوه قنطرة ، وهذا الممر المعتم يصل شارع «مازاران» بشارع «السين» ولا يزيد طوله على ثلاثين خطوة وعرضه على خطوتين ، وقد رصفت أرضه بالبلاط العتيق الذي استحال بياضه صفرة تضرب إلى الدكنة ، وعلا الزجاج ، الذي تتألف منه تقاطيع القنطرة ، الأوساخ والأتربة ، فلم يعد الضوء ينفذ منه إلاّ عندما يصفو الجو وتنجلي صفحة السماء ، واشتهر هذا الدهليز باسم «بونت نوفو» أو الجسر الجديد .

ويوجد في الجهة الشمالية من هذا الممر دكاكين صغيرة تباع فيها الكتب ، والسلع القديمة ، وألعاب الأطفال ، والملبوسات الداخلية . ولا يبصر مار الطريق إلاّ ظلالاً تتحرك في هذه الدكاكين التي تشبه الكهوف .

أمّا في الجهة المقابلة ، فقد وضع أصحاب المحال مناضد ضيقة أسندوها إلى الحائط الأسود وعرضوا عليها سلعهم وبضاعتهم .

ولا يمر في الممرّ المعتم المقبض للنفس إلاّ كل من يبغي اختصار الطريق ، وجلّهم ينتمون إلى طبقة العمال . كما يحلو لتلاميذ المدارس الكرّ والفرّ فيه لكي يستمعوا إلى الضجة التي تحدثها نعالهم على البلاط .

ويضاء الممرّ في الليل بثلاثة مصابيح مصفّحة بالزجاج ، ينعكس نورها الأصفر الباهت على هذا الحيز الضئيل ، فيبدو المكان أشبه بمصيدة الموت ، أمّا أصحاب الدكاكين ، فيبددون جزءاً من الظلام

المتكاثف في محالهم بسرج خافتة النور تتيح لقاصدها تبيّن ما تحتويه من السلع .

وكان المارة ، منذ بضع سنين ، يرون يافطة كتب عليها بالخط العريض «خردجي» ـ أي بائع السلع الصغيرة ـ ويسترعي انتباههم اسم صاحبة ذلك الدكان «تريز راكان» الذي كتب بطريقة واضحة تحت اليافطة مباشرة .

وتوسّط الباب واجهتين زجاجيتين عرضت فيهما أنواع مختلفة من السلع ، وكانت هذه السلع المعروضة عبارة عن قطع الملابس الصوفية والكتانية ، والياقات والأزرار وإبر الحياكة ونماذج التطريز والأشرطة ، وما شاكل ذلك .

ويستطيع المرء ، إن حدّق إلى الداخل مليّاً ، أن يتبيّن وجه امرأة شابة مقطبة الأسارير طويلة الأنف دقيقة الشفتين ، يتوج رأسها هالة من شعر كثيف أسود كالليل .

وكثيراً ما يرى بجانبها امرأة أخرى وخط الشيب رأسها وعلاها الكبر ، كما يرى شابّاً يناهز الثلاثين يجلس في الركن الضيق ، وهو منصرف إلى القراءة أو مستغرق في الفكر أو مقبل على المرأتين يجاذبهما أطرافاً من الحديث . وكان الشاب نحيلاً هزيلاً متوسط الطول ، وقد أهمل شعر رأسه ، فتهدلت خصلاته الذهبية على جبينه ، وبدا بشعر ذقنه الخفيف وإهابه الذي بقّعه النمش ، أشبه بطفل غرير أفسده التدليل .

وتغادر هذه الأسرة الصغيرة دكانها قبل العاشرة بقليل ، فتصعد إلى منزلها ، يلحق بها القط المرقش وهو يتمسح بأرجلهم ويموء مواء الجائع .

وتقبّل المرأة العجوز ابنها وزوجته ثم تلوذ بغرفتها ، وينام القط على كرسي في المطبخ ، ويدلف الزوجان إلى مخدع نومهما .

وللمخدع هذا ، الذي شغله الزوجان الشابان ، باب آخر يفضي إلى الممر بدهليز ضيق يتلبد فيه الظلام .

وما يطمئن الزوج إلى خلوته بزوجته ، حتى ينضو ملابسه عن جسده ، ويتهالك على فراشه وهو ينتفض انتفاضة الحمى التي كانت تزوره في كل ليلة ، ولا تخلف موعدها معه في أية ليلة .

أما الزوجة الصغيرة فتقصد إلى النافذة وترسل بصرها على سجيته ، فيصطدم بالجدار ويرجع إليها خائباً فاشلاً ، فتسعى إلى سبر غور هذا الظلام الضارب الجران ، ولكنها لا تفوز بطائل . . ويلفحها الهواء البارد ، فيقشعر جسدها وترتعد فرائصها ، وتشعر أن شيئاً مجهولاً يتربص بها الدوائر ، وأن عيوناً حمراء تحدجها ، وأن هاتفاً بعيد الغور يصيح بها قائلاً : «إلى أين المصير؟ إلى أين المصير؟ وما فائدة حياتك؟» .

ولا تعتم أن تغلق النافذة وتنثني راجعة لتنام في جوار زوجها .

- ٢ -

سبق لمدام راكان أن امتهنت بيع السلع في فيرنون ، وقد عاشت زهاء خمس وعشرين سنة في دكان صغير في تلك المدينة ، وألفت نفسها بعد موت زوجها بسنين قليلة متعبة مكدودة . فباعت دكانها ، وتوفّر لديها بجانب ما ادخرته من المال ثروة صغيرة قوامها أربعون ألف فرنك . ولم تلبث أن وظفت هذا المال في أعمال درّت عليها دخلاً سنوياً مقداره ألفا فرنك ، فقنعت بما قسمه الله لها ، وزاد دخلها عن حاجتها ، وعاشت راضية مرضية في منزل صغير اكترته على ضفاف نهر السين في مكان يبعد عن الخانق وتحيط به الأشجار والأيك .

وهكذا عاشت مع ابنها كميل وابنة أخيها تريز في جو صاف وبال خال وسرور رزين .

وكان كميل في ذلك الحين ابن عشرين ، إلاّ أن أمه ما فتئت تدلّله كما يدلّل الطفل . . فهي تحبه بل تكاد تهيم به ، لأنها طالما دفعت عنه غائلة المنون بحدبها وحنانها ، وسهرها وعنايتها . .

فمنذ نعومة أظفاره دهمته الأمراض ، واجتاحته الأسقام ، وتمالأت عليه العلل ، حتى لم يبق مرض من الأمراض المعروفة إلاّ وامتحن به ـ طفلاً وغلاماً ويافعاً ـ وأمضت هذه الأم الرؤوم الصبور خمس عشرة سنة في صراع متصل ، وخوف ممض ، وفزع لا يسكن إلاّ ليثور . . ولكنها تغلبت بجلدها وإخلاصها ومثابرتها على هذه الأمراض التي ما انفكت تغزو جسد ولدها دون شفقة أو رحمة .

خلّفت العلل المختلفة وراءها شاباً متهافتاً مستضعفاً رقيق الجسم

واهي القوى ، وكأنها من كثرة إلمامها بجسده ، حدّت من نمو هذا الجسد ، وأخمدت من نشاط صاحبه ، وجنحت به إلى الخمول والتواكل . . . وقد أذكى هذا من حب الأم! فخوره أرث نار هذا الحب في صدرها ، وتهافته جعلها لا تطيق عنه فراقاً! وما أكثر ما كانت تنظر إلى وجهه الضامر النحيل نظرة وله وظفر . . ولا عجب ، فهي تشعر في قرارتها بأنها أعطته الحياة في كل مرة تعرض فيها للردى .

وكان جهله وقلة علمه بمثابة ضعف جديد أضيف إلى وهنه وخوره ، ولكنه التحق بالعمل في مؤسسة تجارية بمرتب ستين فرنكاً في الشهر ، ولم يرتح للعمل إلاّ لأنه وسيلة ينقذ بها نفسه من وحدته وجموده . . .

وكان أشبه بالطفل الذي تفرحه الدمى الصغيرة وتلهيه عن دنياه! فحدب أمه عليه ورعايتها له واعتناؤها به ، جعله يشعر بالضيق والشقاء . . ومع أنه اعتقد بأنه يحب أولئك الذين يشفقون عليه ويمحضونه الود ، إلاّ أنه في الحقيقة كان يحيا حياة مستقلة بعيدة كل البعد عن حياة سواه من الخلق . . كان لا ينشد إلاّ مصلحته وخيره وسروره ، وكان لا يرجع مساء من عمله إلاّ ويصطحب ابنة خاله إلى ضفة السين انتجاعاً لراحته .

وكانت تريز في ذلك الحين تناهز الثامنة عشرة ربيعاً ، وقد أتى بها أبوها منذ ستة عشر عاماً وقدمها إلى شقيقته وهو يقول : «هذه ابنتي أتركها وديعة لديك ، فاعتني بها واكلئيها بمحبتك» .

وعلمت مدام راكان فيما بعد أن أم الفتاة امرأة من المغرب ولدت بها سفاحاً ، وأن أخاها الضابط قد قفل راجعاً إلى المغرب . بيد أنها

لم تلبث أن علقت بالطفلة وقسمت محبتها بينها وبين ابنها كميل ، حتى أصبحت الفتاة تشاطر الفتى سريره ومأكله ، ولكنها كانت مغايرة له في كل شيء . . فصحتها جيدة ، وبنيتها حديدية ، ومع ذلك فقد شاركته في دوائه ، وتحملت معه جو الحجرة الخانق ، وكانت تلازم الموقد بجانبه ساعات طويلة ، ولا تحول عينيها عن ألسنة اللهب المندلعة .

هذه الحياة القاسية الجافة جعلتها تنطوي على نفسها ، وتحرص على التكلم بصوت خافت مهموس والمشي على رؤوس أصابعها ، والجلوس جامدة صامتة محملقة بعينيها . ولكن المتأمل كان يكتشف فيها ذخيرة من نشاط ، كما كان يكتشف فيها عاطفة جياشة كبتتها هذه الحياة التي فرضت عليها فرضاً . وما كان ركونها إلى الصمت والهدوء ليقتل فيها هذه الجذوة المتقدة ، وما كان استسلامها للوحدة ليودي بنشاطها وقوتها وصحتها !

فلمّا باعت عمتها دكانها وانتقلت إلى ذلك البيت طغى الفرح على تريز ، فقد رأت بأم عينها جمال الطبيعة المتمثل في الأشجار والأزهار والطيور والمياه ، ودت لو تسنى لها أن تطفر في هذه الدنيا الجديدة ، وأن تعدو وتقفز وتغني وتضحك ملء فمها .

ولكنها كتمت ما غزا فؤادها ، وبقيت كما كانت ـ تلك الفتاة المحتشمة الحيية الطيعة ـ وكانت تغتنم الفرصة فتنبطح على حشائش الحديقة الخضراء ، وتبقى في مكانها الساعات الطوال ، لا تفكر بأمر ذي بال ، بل تستسلم بكليتها للأحلام ، وتصغي إلى ضوضاء المياه المنسابة في النهر بشغف وسرور .

في أول ساعات الليل كانت تجلس قريباً من عمتها ، فتخيط الثياب معها ، وتصلح ما رث منها ، ولا تتكلم إلاّ لماماً ، ولا تتحرك

من مكانها إلاّ عبثاً .

وكانت مدام راكان تنظر إلى المستقبل بعين الواثق المطمئن ، كانت مصممة على ربط الشابين برباط الزوجية ، وكانت تفزع كلما فكرت بأنها ستموت يوماً فتترك وحيدها بلا معين . . غير أن ثائرتها كانت تهدأ كلما فكرت بتريز ، وبقوة تريز وصبرها .

وأيقن الشابان أنهما صائران إلى زواج إن عاجلاً أو آجلاً ، وأن هذا الأمر سيتحقق حينما تتخطى تريز سن العشرين .

بيد أن كميل كان على نقيض سواه من المراهقين ، فقد فتت الأمراض من عضده ، فلم ينظر إلى المرأة كما ينظر سواه من الشباب ، بل رأى في تريز الصبية المليحة المكتملة العود صديقاً يسري عنه همومه ويساعده على تزجية أيامه . . . لقد خلا جسده من العاطفة ، ولم تعرف الشهوة سبيلها إليه ، ولم ينل تلك الرعدة اللذيذة التي تسري في عظام الشاب الشرخ متى لامست يده امرأة في مثل عمر الزهر ، كتريز !

وجارته تريز في الظهور بمظهر من لا يأبه للنزع الجياشة ، كأنها هي الأخرى قُدّت من صخر أصم !

*

في تلك الليلة نامت تريز في مخدع الزوجية . . هذا كل ما طرأ على حياتها وحياته ! ولم يقع بينهما شيء جديد . . . ولم تحدث مفاجأة جديدة . .

وفي الصباح استأنف كل منهما طباعه وعاداته ، كميل يشكو الوصب ، ويتذمر من الإعياء ، ويتسخط من جدوب الطالع . . وتريز تشخص بعينيها الواسعتين في قلة اكتراث ، وتتحفظ ذلك التحفظ المخيف في جموده وبروده !

- ٣ -

بعد أسبوع من زواجه ، جابه كميل أمه بإصراره على النزوح إلى باريس ، ولـمّا رأى منها إعراضاً ونفوراً من فكرة الهجرة ، أصرّ على ما وطد العزم عليه وأسمعها كلمات نابية .

وتركت كلماته الخشنة في نفس أمه مقداراً كبيراً من الأسى ، إلاّ أنها رضخت له في النهاية ولبت طلبه ، وقصدت باريس ذات يوم وألّمت بجسر بونت نوفو ، فاشترت دكاناً من تلك الدكاكين الصغيرة ، وأكرت المنزل الذي يعلو الدكان ، ودفعت في ذلك كله ألفاً وخمسمائة فرنك من ضمن الأربعة الآلاف فرنك المتوفرة لديها من دخل ثروتها .

وارتاحت نفسها بعد قلق ، وأفرخ روعها بعد خوف ، فمرتب ابنها ، متى وجد العمل اللائق في باريس ، مضافاً إليه ما تكسبه من العمل في الدكان ، قد يفيان بحاجة العائلة الصغيرة ، فلا تضطرب معيشتها ولا تضطر إلى مس الثروة أو الإيراد .

ورجعت إلى فيرنون فزفت البشرى إلى ولدها ، ثم همت بأمتعتها فحزمتها ، وما هي إلاّ ساعة حتى كانت الأسرة في طريقها إلى باريس .

صدمت المرأة بالحقيقة المرة ساعة ولجت غرف المسكن الجديد . . صدمها الفارق الشاسع بين المنزل الذي قضت فيه وقتاً طيباً في فيرنون ، وبين هذا المنزل المعتم البارد الذي عششت فيه العناكب .

إلاّ أن ابنها سرّى عنها بقوله : «لا تبتئسي . . سأمضي سحابة يومي في العمل ، ولن أرجع إلاّ مساء . . وبذلك أتجنب رطوبة المكان

وأتمتع بالدفء والراحة !» .

أمّا تريز فلم تبد اعتراضاً . . لم تنبس بكلمة تكشف عن حقيقة ما يختمر في صدرها ، كما أنها لم تثقل على الأم بمطاليبها ، فهي راضية بكل شيء ، قانعة بما يسّر الله لها ـ هذا ما يبدو عليها ، وهذا ما تشير به جميع الدلائل !

وتعاقبت الأيام ، وكميل يخفق في كل طلب يقدمه لأرباب الأعمال . . وكان يقضي ساعات النهار برمتها متجوّلاً في الشوارع ومتردّداً على محال الأعمال ، يسأل ويستفسر ويستوضح ، حتى ضاق صدره وعيل صبره ، وجعل يلمح من طرف خفي إلى محاسن العودة إلى فيرنون . . ولكنه ظفر في نهاية المطاف بوظيفة كاتب في سكة حديد أورلينز بمرتب شهري مقداره مائة فرنك .

فشرع يتوجه كل صباح إلى مقر عمله ، وتنزل أمه وزوجته إلى الدكان ، لتعملا وتربحا وتضيقا ببعض المشترين . . ويضيق بهما المشترون . . . وكانت العجوز ألبق من زوج ابنها ، كانت تنيرها في طريقة معالجتها لأمور البيع والشراء ، ولا تدخر وسعاً في إقناع الشاري بجودة السلعة .

إلاّ أن تريز التي كانت تعيش في هذا الظلام ، وفي هذا الجمود ، وفي هذا الصمت الثقيل ، وفي هذا التنائي عن كل لذة وكل عاطفة وكل شهوة ، رأت الحياة مملّة . . رأتها ممتدة تلقاءها إلى مدى لا نهاية له ، عارية خاوية خالية ، ليس فيها إلاّ الفراش البارد تلوذ به متى أغبس الليل ، والدكان الرطب تقصده كلما رنقت ذكاء ، والفراغ . . . الفراغ المريع . . الفراغ الذي يتخلّله ضباب قاتم متكاثف !

*

كانت الأيام شوهاء قبيحة لا رونق فيها ، فطلوع الشمس مثل غروبها ، وهطول المطر مثل انقشاع السحب ، وساعات النهار مثل ساعات الليل .

أمّا ليلة الخميس من كل أسبوع فقد كانت الحدث الوحيد الذي يدخل شيئاً من التغيير على هذه الوتيرة الواحدة .

يوم الخميس كانت الأسرة تجتمع في ساعة مبكرة من الليل ، في غرفة الطعام وحول آنية الشاي ، فتحتسي أكوابه ، وتزدرد كل ما حملته معها من الطعام ، ولا يأوي أفرادها إلى مضاجعهم قبل الساعة الحادية عشرة .

وجاء إلى باريس ضابط بوليس فيرنون ، وكان يحترم مدام راكان ويرتاح إلى عشرتها ، فتردّد على دكانها ، وما عتم حتى أصبح من المشتركين مع أسرتها في اجتماع ليلة الخميس .

كان هذا الكهل يدعى ميشو ، وقد أحيل على التقاعد ورتب له معاش شهري ، وأصبح ابنه أوليفيي وزوجته بعد ذلك من المواظبين على المجيء في ليلة الخميس . . بيد أن قلب تريز لم يمل إلى الشاب المزهو براتبه الكبير الذي كان يتقاضاه من عمله ، كما أنها نفرت من زوجته الشاحبة المتداعية المتطامنة ، ولم ترتح إليها .

وجاء كميل بضيف جديد يدعى غريفي ، كان يشتغل في سكة حديد أورلينز أيضاً ، ويشرف على الأعمال التي يؤديها الفتى ، وكان مرتبه يزيد على الألفين ، ولهذا سال لعاب كميل ، وجعل يعلل النفس بقرب موت هذا الشيخ حتى تسنح له فرصة القفز إلى وظيفته .

واغتبط غريفي بما لاقاه من حفاوة أفراد الأسرة وترحابهم ، فثابر

على الحضور في الموعد المضروب .

وهكذا غدا الخميس يوم عيد للأسرة وضيوفها . . ففي السابعة مساء تهرع الأم إلى البيت فتضيء المصباح الكبير ، وتشعل نار الموقد ، وتضع بجانبه قطع الدومينو ، وتعد عدة الشاي ، وفي الساعة الثامنة يلتقي ميشو وغريفي في مكان قريب من الدكان ، فيدلفان إليه ولا يعتمان أن يصعدا مع الآخرين إلى المنزل ، فيأخذ كل منهم مكانه حول المائدة . فإذا جاء أوليفيي وزوجته ، اللذان درجا على عادة التأخر عن الموعد ، تقوم مدام راكان إلى وعاء الشاي فتصب السائل الحار في الأكواب ، ويلقي كميل قطع الدومينو على المائدة ، وينصرف الجميع إلى اللعب واحتساء الشاي وقضم الحلواء .

إلاّ أن تريز كانت بعيدة كل البعد ، في روحها وتفكيرها ، عن هذه البيئة ، فلم تنسجم معهم ولم تنصهر في بوتقتهم . . . وكانت تتذرّع بالصداع ، وتحتج بتوعك المزاج لكي تعفي نفسها من الاشتراك في اللعب ، فتقعد بعد أن تفوز بأربها في مكانها ، وتنقل طرفها بين الوجوه المختلفة ، فيخيّل إليها أنها ترى هذه الوجوه من خلال سحابة صفراء . . ولا تجد في أي وجه منها إلاّ ما يثير اشمئزازها ونفورها وسخطها !

وجاء بصحبة كميل ذات خميس شاب مديد القامة عريض المنكبين بسام الثغر ، تشع الحياة والصحة من عينيه الواسعتين . . فلما ولجَا الدكان هتف كميل قائلاً : «احزري يا أماه من يكون هذا الشاب؟» .

فنظرت إليه المرأة نظرة تأمل وترقب ، وقدحت زناد فكرها ، فلم تتذكر شيئاً عنه .

واستأنف كميل يقول : «ألا تتذكرين لوران يا أماه؟ ألا تتذكرين صديقي؟» .

فصاحت مدام راكان : «أجل . . أجل . . وإني لأذكره يوم كان يمر بك ، فهو ابن لوران الكبير ، صاحب المروج السندسية الخضراء ، وقد كان آخر عهدي بصاحبك منذ عشرين سنة» .

وجلس لوران ونظر فيما يحيط به .

وعاد كميل يقول إنه غريب الأطوار ، شاذ الطباع ، فقد مضى على عملنا معاً سنة ونصف السنة دون أن يعرف أحدنا الآخر . . ولكنه على نقيضي ، قوي كالثور ، ووظيفته جيدة ، وراتبه لا بأس به ، فقد درس القانون واحترف الرسم . . أليس كذلك يا لوران . . ألا تمكث معنا الليلة فتشركنا في طعامنا وشرابنا؟

فأجابه الشاب : «ما أحب هذا على قلبي ، فتزجية الوقت معك يثلج صدري !» .

ونزع لوران قبعته عن رأسه ، واعتدل في جلسته . وانطلقت مدام راكان إلى البيت لتهيئ الطعام ، ونظرت تريز إلى الضيف دون أن تبدر منها أقل حركة أو كلمة تشي بخلجات صدرها .

لم يسبق للمرأة الشابة أن رأت رجلاً كاملاً . . ولكنها رأته الليلة . . فها هي الرجولة متجسّمة في هذا البدن الصحيح . . وها هي الحياة المشرقة تنضح من ثنايا وجهه . . واختلست نظرات الإعجاب إلى جبينه وشعره الفاحم ووجنتيه وشفتيه وأساريره . . وتأملت في عنقه القصير الغليظ المفتول ، ثم انتقلت بعينيها إلى يديه الضخمتين اللتين توحيان بما يكمن فيهما من قوة لا عهد لها بمثلها ، وخُيّل إليها أنه يستطيع أن يصرع ثوراً ويطحن حجراً !

وارتعشت تريز ، ونظرت بشغف ولذة إلى الكتفين والساعدين والساقين ، واحمرّ وجهها واختلجت أهدابها !

واستدار كميل بغتة إلى صديقه وقال : «المعذرة يا لوران ، غاب عن بالي تقديمك إلى زوجتي ، ألا تتذكر ابنة خالي؟ إنها الآن زوجتي !» .

فحدجها لوران بنظر الفاحص وقال : «وكيف لا أعرفها؟» وأحنى لها رأسه .

وانفرجت شفتا تريز عن بسمة طفيفة فحنت هامتها قليلاً ، وأغضت بطرفها ، ولم تبطئ أن انسحبت من الدكان .

وعلى مائدة الطعام طفق كميل يطرح على صديقه مختلف الأسئلة . . فعلم منه أن الخلاف دب بين الأب والابن منذ خمس سنين ، وأن اندلاع النيران سببه تمرد الابن على الأب وعدم إذعانه لمشيئته ، وتظاهره بأنه منكب على الدرس في كلية الحقوق دون أن يفعل شيئاً من هذا القبيل . فلمّا عرف الأب الحقيقة خيّره بين الطاعة والحرمان ، ثم قطع عنه إعانته المالية ، وأمره أن يرجع إلى مسقط رأسه إن رام الاحتفاظ برضى والده . . ولكنه أبى أن يذعن وزاول فن الرسم معلّلاً نفسه ببلوغ المنى . . غير أنه لم يوفق إلى تحصيل الرزق ، فاضطر إلى الالتحاق بالوظيفة .

وعقب لوران ضاحكاً : «وسيموت أبي بعد فترة ـ أرجو أن تقصر ـ فأرث ماله وعقاره ، وأمتع النفس والروح ولا أبخل عليهما بشيء من أطايب الحياة !» .

وكانت قصة لوران عنواناً لما جُبلت عليه نفسه من الخمول والكسل والشهوة والأثرة . . بل كانت شهادة دامغة على أن جسده

الضخم لا ينشد إلاّ الراحة والأكل والشرب والنوم وإشباع الغريزة .

دراسة القانون أطارت صوابه ، وفكرة خدمة الأرض أطاشت سهامه ، فتهرّب من هذه وتلك ، وارتمى في أحضان الفن لعله يجد فيه ما يغنيه عن الدأب والكدح ، ظناً منه بأن ريشة الرسام لا تعوزها مهارة ولا دراية ، وأن النجاح سيكون ولا غرو حليفه . . .

ولكنه فرق وطرق ساعة عضه الجوع بنابه ، فهو أبعد ما يكون عن الفن ليصبر صبراً جميلاً على الحرمان . . وجسمه لم يتم ويترعرع ليتحمل ما يتحمله الفنان من شظف العيش وجور الأيام . . وهكذا طوى كشحه عن الرسم ، ولم يكربه ذلك مقدار ما آله فراق النماذج النسائية الحية اللواتي كان يمرر ريشته المتعثرة على تعاريج جسومهن الناعمة المشتهاة !

وسرعان ما اطمأن إلى عمله الجديد ، فقرّت عينه بالراتب الذي تقاضاه والمكتب الذي خصّص له ، ولكنه ـ كما قال ـ يتلهف شوقاً إلى الغانيات ويرى بعين خياله صدورهن العارية ونهودهن النافرة وسيقانهن المنسجمة واهتزازة أردافهنّ المثيرة !

وأجفل ساعة انساق في سرده ، وتذكّر أن ثمة صبية تصغي إلى ما يقول ، فنظر إليها مستغفراً ، فألفاها تنصت بإقبال ، وتنظر إليه نظرة عميقة غامضة تتكلم بأفصح بيان عمّا يخامر صدر صاحبتها من مختلف المشاعر والأحاسيس . . وتحوّل إلى كميل وخاطبه وهو يكتم ضحكة كادت تفلت من بين شفتيه : «أتدري يا كميل أني أتوق إلى رسم صورة لك؟» .

فهتف كميل ووجهه يتألق بشراً : «هذا رائع . . لنبدأ فوراً ـ صورة كبيرة لي بريشتك ! هذا رائع !» .

ودقت الساعة ثماني دقات ، ودخل ميشو وغريفي ، وتبعهما بعد قليل أوليفيي وزوجته سوزان .

وقدّم كميل صديقه لهم فقابلوه بتحفّظ وحذر ، وما لبث القوم أن جلسوا في مقاعدهم بعد أن أفسحوا له بينهم .

لقد زاد عدد جماعة الخميس . .

وحرك القدر الذي كان لهم بالمرصاد أصابعه . .

وقهقه ساخراً !

- ٤ -

دأب لوران بعد تلك الليلة على القدوم إلى منزل مدام راكان . كان يقطن في غرفة ضيقة في طريق سان ڤيكتور ، وكان يتلكأ في الرجوع إلى كهفه هذا حتى لا يشعر شعور الملحود في قبر ! وكان كلّما صفر من المال يقضي وقته في التسكع ، ثم يعرج على مقهى صغير حقير فيشرب فنجان قهوة ويصعد إلى كهفه رغم أنفه .

فلما اهتدى إلى بيت مدام راكان أصبح دكانهم منتجعه الوحيد الذي يؤمه كلما غبس الليل ، كما أصبح بيتهم الصغير ، المخلد إلى السكون ، فردوسه الذي يقضي فيه لياليه ، فأفاد من ذلك توفيراً ، وانقطع عن ارتياد المقهى وبذل ثمن فنجان القهوة ! وفوق هذا وذاك فكثيراً ما كان يحظى بالطعام الساخن يملأ به بطنه فتقر عينه وتنعم نفسه .

وحمل معه في إحدى الليالي معدات التصوير ، فبشّ كميل حين وافاه ، وقابلته أم كميل بوجه طلق . . وباشر عمله في مخدع الزوجين ، واستغرق تصوير خطوط الوجه والرأس سبعة أيام ، إلاّ أنها كانت خطوطاً مغلوطة أشبه بخطوط يصورها غلام يتعلم مبادئ التصوير ، لا رسام يدّعي المهارة والبراعة والقدرة الخارقة ! وملأ اللوحة بخليط عجيب من الألوان ، وبقعها ولطخها ، ومع ذلك فقد كان يبتسم راضياً مسروراً كلما أعربت مدام راكان عن إعجابها بفنه ، وكلما ندت من صدر كميل آهة دهش وذهول !

فإذا ما نظر في الرسم ورأى النقص والعيب ، ولحظ الفارق بينه وبين الأصل ، تدارك قائلاً ، كأنه يريد طمأنة الابن والأم : صبراً . .

صبراً . . عمّا قليل تشاهدان ما قل نظيره وانعدم مثيله ! .

وأنشأت تريز منذ اللحظة الأولى تلازم مخدع النوم ، فتتوسّل بأوهى الحجج والمعاذير لتغادر الدكان وتصعد إلى المخدع ، فتجلس مقطبة مفكرة بادية الشحوب ، وتتبع حركات لوران بانتباه ، وتقيّد لحظها به ، وكأن قوة خفية تجذبها نحوه ، فهي لا تتحرك من مجلسها ، بل تبقى ساكنة جامدة كأنها سمرت إلى المقعد . .

وكان لوران يلتفت إليها بين الفينة والفينة ، فيبتسم في وجهها ويسألها رأيها في الرسم . . فكانت كلّما ألقى عليها السؤال تقحقح في إجابتها فتتردد كلماتها في حلقها مبهمة كالهينمة الخفية ، ولا تعتم أن تستغرق كرة ثانية في ألوان من الفكر . . حتى أيقن الشاب الخالي البال أنه استطلع طلعها ، وألمّ بحقيقتها ، وسبر غور نفسها !

ولدى أوبته إلى منزله في كل ليلة ، كان لوران يحدث نفسه حديثاً طويلاً ، فيناقشها الحساب فيما إذا كان يليق به أن يتخذ من تريز عشيقة ومحظية !

وقد طالما ناجى نفسه قائلاً : «هذه المرأة الصغيرة في متناول يدي . . إنها طوع أمري . . ومتى شئت أضحت خليلتي . . فهي لا تحوّل ناظريها عني ، وهي لا تفتأ تحدق إلى وجهي وكأنها تزنني وتروزني . . وكلّما تلاقت عيوننا ارتعشت وارتعدت . . فلا مراء أنها تبحث عن عاشق يطفئ نار وجدها ، فعيناها تنطقان بذلك ، وما زوجها كميل بالرجل الكامل ، بل هو شاب متخاذل مستخذ لا يقوى على إشباع غريزتها !» .

وضحك لوران ضحكة طويلة ، وهو يناجي نفسه ، حينما رأى بعيني خياله وجه صديقه الساهم ، وطرفه المظلم وجسده الواهن

المعروق العظام!

واستتلى يحدّث نفسه : «إنها ولا غرو ضجرة بالحياة في هذا المكان، برمة بزوجها، وأم زوجها، وأخالها تنتظر على أحر من الجمر أول إشارة تصدر عني لكي ترتمي في أحضاني . . فلم لا أكون عشيقها الأثير؟ لم أتيح الفرصة لغيري من الرجال كي يتمتع بهذه الأنثى المتلعجة؟» .

وتوقّف يرقب مياه السين المتدفقة في خرير أبدي، وهز رأسه وهو يحدث النهر العظيم : «سأحاول . . سأقبلها في أول فرصة تسنح . . ولا أشك في أنها ستذعن إذعاناً سريعاً وترضخ على التو! إنها قبيحة، ما في ذلك ريب ـ فأنفها طويل أقنى، وفمها كبير، وجبهتها ضيقة، وليس في فؤادي من حبها نصيب، وعليه فيخلق بي أن أقلّب الأمر على مختلف وجوهه، حتى لا أقع في ما لا تحمد عقباه» .

وقرّر في ما بينه وبين نفسه أن يتروى قبل الإقدام، ويفكر قبل الوثوب إلى الخصم، ولا يفعل شيئاً إلاّ متى أيقن أنه لن يضام، وأن الفوائد التي يجنيها تطغى على المضار التي يصاب بها . .

إن تريز في نظره ورأيه لا تمتاز بالرواء، ولا يبهره منها جمال ولا بهاء، غير أنها لن تكلّفه شروى نقير . . وفوق ذلك فالنساء اللاتي اشترى اللذة معهن بالمال لا يفقنها حسناً!

وهكذا حفزه حب الاقتصاد إلى اشتهاء زوجة صديقه، وأذكى ابتعاده عن النساء أمداً طويلاً نار شهوته، وجعله يعقد العزم على بلوغ الوطر والحصول على المرام، إن أمن في العاقبة فضيحة!

*

أوشك الرسم أن يتم العمل فيه ، ومع ذلك لم يهيئ له القدر تلك الفرصة المبتغاة . . فكميل لا يغادر المخدع دقيقة واحدة ، ولا مفر له من الجهر بأن الرسم قد استوفى حقه وبلغ كماله . . فلمّا أعلن ذلك أبدت مدام راكان رغبتها في الاحتفال بهذه المناسبة السعيدة ، فيطعمون ما لذ وطاب ، ويشربون الأنخاب ، نخب الفنان الموهوب ، والصورة الرائعة ، وصاحب الصورة الحبيب !

وحينما استعرضت الأسرة عمله في اليوم التالي ، ونظروا مليّاً إلى الرسم الباهت الرديء الصنع ، الملطخ في مواضع كثيرة ، الذي بدا فيه كميل أشبه برجل غريق فارقته الحياة ، استطير هو وأمه سروراً ، وصاح متحمّساً محبوراً : «سقاك الله يا لوران ! لقد أبدعت !» .

وانطلق من فوره ليحضر خمراً ، وهبطت أمه إلى الدكّان لتتم عملاً ، وأدرك لوران الفنان الدعيّ أن هذه هي فرصته التي تشوّفها ، وشعر أنه لم يعد يملك الصبر عن اجتناء ما هفت إليه نفسه !

تريز . . نادتها شهوته المشبوبة ! تريز . . . صرخت رغبته المتحفزة !

وشخصت تريز إلى لا شيء ، وحملقت في لا شيء ، ولاح عليها كأنها تنتظر . . تنتظر . . تنتظر . . وأهابت به نفسه الظامئة الأمارة قائلة : «أسرع ويلك ، أسرع . . قبل أن يقفل كميل راجعاً فتتهدم بذلك صروح آمالك !» .

وأطاع الهوى غافلاً عن الشرف ، وفي أقرب من لمح البصر أطبق عليها فضمها إلى صدره وأوسعها تقبيلاً . . فنهته تريز وقاومته . . إلاّ أن مقاومتها همدت ، وسرعان ما رضخت واستسلمت . . وزاغت عن المحجة ، فارتمت على أرض الغرفة ، ولم يجر بينهما كلام ، ولم يجر ما يكدر عليهما الظفر بغنيمتهما . . وقضيا وطرهما !

لم يؤضهما الأمر ، أو تبلغ الخيانة منهما المشقة . .

لم يستحيا من خداعهما وخيانتهما .

وأوهما الزوج المثلوم العرض ، وأمه الطيبة القلب المؤمنة بنزاهة صديق ابنها وخدينه ، خلاف ما أخفيا وخلاف ما أبطنا .

*

منذ البدء أحس العاشقان أن لا غنى لهما الواحد عن الآخر ، وأن القضاء والقدر جمعهما معاً مظهراً بذلك ما هو ثابت أو ما قدر أن يكون ملزماً لكليهما . . فلم يحبسهما شيء عن الاجتماع ، وسقطت إلى الحضيض تلك السجف التي كانت تفصل الواحد منهما عن الآخر ، فأفرطا في ذنوبهما ، وخلعا العذار ، وعلقا يتبادلان القبل دون وجل أو توجس ، وكأن علاقتهما ليست وليدة أيام بل ثمرة أعوام وأعوام . . واشتعلت النار في جسد لوران ، فكان لا يقضي منها وطراً إلا ويكر راجعاً في اليوم التالي وهو أكثر ما يكون شوقاً ورغبة !

واتفقا على طريقة اجتماعهما لانتهاب اللذة ، فكان لوران يسترق خطاه إلى مخدع الزوج من الطريق الخارجي ، فيمكث مع تريز ساعة يقتطفان في خلالها اللذة ، بينما يكون كميل منهمكاً في عمله ، ومدام راكان منشغلة في دكانها .

وتذرّع لوران بالأعذار ينتحلها كل يوم ليغيب ساعتين عن المكتب ، فلا يكاد يلمّ بالممر حتى تثور عاطفته ، فيلغي احتراسه ويصعد عجلاً مسرعاً خافق القلب !

وعجب لنفسه كيف انقلبت نظرته إليها ، فأصبح يراها غنية بحسنها وجمالها عن كل زينة . . عجب لنفسه كيف كلف بها

وتولع بحبها ، ووجد فيها ضالته المنشودة ، وجد القوة والقدرة والفتنة ، وزاد حبه ضراماً ، زاد حبه استعاراً مع كل قبلة يطبعها على فمها . . فوجهها الجامد الذي لا تختلج فيه عضلة . . أصبح وجه امرأة ولّهها الحب وتيّمها الغرام . . ونظراتها القانطة اليائسة الكليلة ، أصبحت خليطاً من نظرات الوحش والإنسان . . والهمود الذي وسمها بميسمه استحال حركة مفعمة حيوية ونشاطاً . . والشفتان الباهتتان الحائلتان الذابلتان ، أصبحتا تشعان بنور غريب عجيب يشده ويذهل ويستحوذ على اللب !

لم يعد قلبه يطاوعه على اصطبار ، ولم يعقه عائق عن امتطاء اللهو كل يوم . . واستمر على غيه وآستمرأ مرعى فجوره وفسقه .

فهو لم يعاشر امرأة كتريز من قبل - فالقبلة الأولى أججت النار المتوارية في صدرها ، وهيجت الوحش الجائع الرابض في جسدها . . وكأنها استفاقت من حلم ، وكأنها ولدت من جديد ساعة تبيّنت البون الشاسع بين يدي زوجها الهزيلتين ، ويدي هذا الرجل القوي . . وتفجرت غرائزها كأقوى ما يكون ، وسرت في عروقها دماء أمها الإفريقية ، وصب في قلبها حاراً دافقاً . . فوهبت إليه نفسها وجسدها دون حياء ، وقالت للضمير ، وقالت للشرف ، وقالت للوفاء : سحقاً . . سحقاً . . أنا محرومة أنصفني الدهر ، أنا مهيضة الجناح رأبت الأيام كسري ! وقالت للوران الحبيب ـ عود على بدء . . إلى الملتقى ، إلى الملتقى !

هذه المرأة التي كبتت البيئة مشاعرها ، استعادت أخيراً حريتها ، بل استعادت طبيعتها ، فتكشّفت رغباتها ، وسفرت حقيقتها ، ومشت في الطريق الذي كتب عليها .

كانت تحيط عنق حبيبها أحياناً بذراعيها ، وتهمس في أذنه بصوت خفيض فيه رنة أسف على ما فاتها ، ولحن فرح على ما لحق بها : «أواه أيها الحبيب ! لو تعلم كم تألمت؟ لو تعلم كم قاسيت؟ . . كم ترمضت على نيران العذاب؟ لقد ترعرعت في غرفة مغلقة مرتجة ، يشيع في جوها المرض ، فشاركت «كميل» فراشه وأنا صغيرة ، وشاطرته فراشه وأنا كبيرة ،فكنت أبتعد عنه ما وسعني الفراش . . كنت أكتم أنفاسي بيدي حتى لا تفعم أنفي رائحة المرض المنبعثة من جسده . . كان حقوداً عنيداً صلباً لا يتناول الدواء إلاّ متى حذوت حذوه . . . فكنت أشرب الدواء إكراماً لعمتي ، وأعجب الآن كيف لم يتخرمني الموت لكثرة ما تجرعت من عقاقير وأدوية . . لقد حرماني كل شيء يا حبيبي ، حرماني الحرية والحياة والحب !» .

وعلا صوت نشيجها وهي تبثه أشجانها وتفضي إليه بآلامها ، ثم قالت وهي تكفكف عبراتها :

«ولست أتمنى لهما إلاّ الخير ، فقد كفلاني وتعهّداني وكفياني العوز والمسغبة ، ولكنني كنت أتمنى لو أنهما تركاني وشأني لأقاسي شظف العيش ، بدل أن أقاسي مرارة السجن في غرفة مريض دنفته العلة . . . كنت أحلم بالحريّة وبأمي الإفريقية ، وبالنهر والغابة ، وبالشمس المشرقة والهواء الطلق .

«وكنت أنتظرك منذ حين . . كنت أنتظرك دون أن أدري . . وكنت إذا طاش حلمي وضاق بالدنيا ذرعي ، أتحمّل كل الأيام لأن إحساساً خفيّاً كان يحفزني على الصبر !

ولن تصدق مهما سقت من حجج ما تجشمته من مكاره وآلام ، فقد كنت طول وقتي أصانع وأداهن وأجامل ، حتى غدوت متلونة

متصنعة ، أبطن أمراً وأظهر سواه !

«وإني لأعجب كيف قويت على الحياة وبقي في عروقي دماء . . فقد طالما أطرقت إلى الأرض ، وقد طالما عشت منكسة الرأس مغضية الطرف ، ألبس على وجهي قناع البله والعته أسوة بهما ! وعندما رأيتني خلتني سليبة العقل فاقدة الحجى . . وأنت على حق فيما ذهبت إليه من ظنون ، فقد حطمتني الأيام ، وتطوع زوجتي وتطوعت عمتي للقضاء على البقية الباقية من ذكائي وفطنتي .

«ما أكثر ما مالأتني نفسي اليائسة على الارتماء في أحضان السين ، وكنت قبل أن تنهار مقاومتي أقضي الليالي الطوال مسهدة لا يكحل الكرى جفني ، مؤرقة أعض بأسناني على الوسادة حتى لا يسمع أحد زفراتي ، ولم أبخل على جسدي بالضرب . . . كنت أوسع نفسي ضرباً وأصمها بالجبن والخور والاستخذاء . . . وكانت النيران التي تلظيت على وقدها تلهب جسدي ، وسوّلت لي نفسي الخائرة أن أفر من هذا الجحيم . . حدثتني روحي اللاغبة أن أهيم على وجهي في الفلوات والقفار ، وأن أنحو نحو وحوش الغاب ، فأنطلق من إساري وأتجه قدماً إلى الشمس . . . إلى الشمس . . . وأتنفس الهواء . . . بيد أن شجاعتي خذلتني ، فقد أحالاني إلى حيوان أليف بلطفهما اللّين الخدع ، وتوددهما الكريه الذي تتقزز منه النفس . وطفقت أكذب ، جنحت إلى الكذب ، تخرصت وأفكت ، وغدا الحرمان رداء جديداً تلفّعت به !

لقد أدنى خلقهم إليّ العذاب وجرعني من الصاب ، ولكنني لذت بالصمت والسكون ، وإن كنت أحلم كل الليل بالضرب والهدم والتحطيم !

ولا أدري كيف تزوجت هذا الرجل الذي حملته أمه وهناً على وهن؟ لا أدري؟ ولكني ذقت وبال انقيادي الأعمى وعشت فريسة ضاغوط يجثم على صدري . . . فهل رقّ قلبي له لأنه مثل الحيوان الصغير؟ هل أشفقت عليه لأنه أقرب إلى طفل قصير كليل منه إلى شاب طويل ذي قوة وحول؟

أما أنت . . . أنت يا أحب الناس إليّ . . . ماذا أقول عنك؟ وبماذا أصفك؟ لقد أحببتك مع أن منظرك أثارني وملأ قلبي حفيظة . . . ومع ذلك كنت أنتظر مجيئك بفارغ الصبر ، لأمشي حولك ، وأدع ملابسي تلامس ملابسك . . . وخُيّل إليّ في الأيام الأولى أن دماءك كانت تطلق عليّ موجات محرقة لافحة . . . أوتذكر الأيام الأخيرة التي كنت ترسم إبانها؟ إن قوة القدر كانت تجذبني نحوك جذباً شديداً ، فكنت أتنشق الهواء المشبع برائحتك في حبور وجذل . . . وعلمت ، بل أيقنتُ آنذاك ، أني كنت أستجدي القبل ، فخجلت من هذه العبودية التي كبلتني بأصفادها من جديد ، وأيقنت أني سأكبو . . . واستسلمت دون حجاج ولا لجاج !» .

غادرها لوران في ذلك اليوم وانطلق إلى حجرته وهو عرضة لمختلف الأفكار والهواجس . . . ولكنه رجع إليها في اليوم التالي وهو أشد ما يكون شوقاً إلى جسدها الغض وثغرها المتضرم بنار لاسعة كاوية .

وتكررت اجتماعاتهما ، وزاد غرامهما عنفاً ، وارتمت تريز في أحضان الرذيلة ضاربة عرض الحائط بالحياء والخجل ، معرضة عن الهوة السحيقة الفاغرة فاها التي كانت تنزلق إليها تباعاً .

ومع أن عشيقها كان يطلب منها أن تلزم جانب الحذر والحيطة ،

إلاّ أنها كانت تسخر منه وتبدد مخاوفه بضحكاتها العريضة .

وتحقّقت مخاوف لوران يوماً ، فصعدت عمتها إلى البيت ، فارتعدت فرائصه ساعة سمع وطء خطاها ، ولكن تريز ضحكت ملء فمها ، ثم جرته إلى مؤخرة السرير وغطته بكومة من الثياب .

وفتحت مدام راكان الباب بهدوء حتى لا تقلق راحة زوجة ابنها المتعبة ، وقالت وهي ترمقها بنظرة العطف والوداد : «عزيزتي تريز . . هل أنت مريضة؟» .

فنظرت تريز إليها وتأوهت وتململت ثم قالت : «تبّاً لهذا الصداع ! ناشدتك يا عمّتاه أن تدعيني وشأني . .» .

وذهبت العجوز في سبيلها ، وقرقرت تريز ضاحكة ، ووثب لوران من مكانه ، وتعانق العاشقان !

وحانت منهما التفاتة فوقع طرفاهما على القط فرنسوا ، فقالت تريز ضاحكة : «يخيل إليّ أنه يراقبنا ، وأنه سيشي الليلة بنا إلى كميل . .» .

ونظر لوران إلى القط واقشعر بدنه . .

وأردفت تريز : «سيقف على قائمتيه ، فيشير إلي بمخلب وإليك بمخلب ، ويصيح بملء فمه : هذا الرجل وهذه المرأة يتبادلان مئات القبلات كل يوم . . وقد نسيا أمري . . وبما أن علاقتهما الأثيمة تزعجني ، فأنا أطلب إليك أن تزج بهما في السجن» !

واستمرت تريز تمثّل دور القط ، واستمر القط ينظر إليها ويرقب حركتها .

أما لوران فقد داخله خوف شديد ، فهو لم يقع بعد تحت سيطرة حبيبته ، وهو لا يزال يضطرب هلعاً كلما فكّر بما قد يحدث له إن

انكشف سره واطّلع كميل على خيانته .

*

قرّت عين لوران بما حصل عليه ، فقد تعلق كميل به وجعل يصحبه بعد انتهاء العمل إلى الدكان ، ومالت إليه مدام راكان وأولته حبها ، ورأمته كما ترأم ابنها ، وأشفقت عليه ورثت له ، وأفهمته بصريح العبارة أن مكانه على مائدة الطعام محفوظ ليل نهار !

واستفاد الشاب من هذا الكرم ، فأصبح لا يفارق «كميل» ، فهو يلازمه بعد خروجهما من المكتب ، فيتجهان إلى رصيف الميناء ، ليفضي كل منهما إلى صاحبه بأفكاره ، ثم ليعرجا بعد ساعة أو ساعتين على بيت مدام راكان ليتذوقا ما طهته يداها من طعام شهي .

كان لوران يلمّ بالدكان كما يلمّ بداره ، وكان يدخن ويبصق على الأرض ويتكلم ويقهقه دون تحرج ، وكأنه موجود في حجرته ، أو بين ذويه وأسرته .

ولم يأبه لوجود تريز ، أو يتخيّر كلماته وحركاته ، بل كان يخاطبها بلهجة الصديق وصراحة الشقيق ، دون أن تطرف له عين أو يختلج هدب ، فيضحك كميل ملء فمه ويستغرق في القهقهة ، ثم ينثني إلى زوجه فيلومها في شيء من العنف على تقطيبها ووجومها ، ويحثها على مقابلة صراحة لوران بصراحة مثلها ، وبشاشته بوجه طلق وبشاشة لا تقل عن بشاشته .

لقد غدا لوران عشيق الزوجة وصديق الزوج ، وابن الأم المدلّل . وما اتفق أن صادف مثل هذه المتعة في حياته ، ما اتفق أن ظفر بمثل هذه البلهنية . . فهو يعيش في رغد لا يشوب صفاءه كدر ، وهو

يحيا هانئاً موطد العيش ، أميناً من الغد ، واثقاً من لقمته ، مطمئنّاً إلى إشباع غريزته ، قانعاً . . قانعاً بما قسم له ، وما أغدق عليه ، وما وفره الشيطان لشخصه !

وعلى نقيضه كانت تريز . .

نهلت الصبية المضطرمة الحشا من ينبوع الغرام ، وأقبلت بكليتها على الفسق الذي تردت في حمأته كما يقبل الصادي على جب فيه ماء عذب سلسل . . ولكنها اضطرت إلى تمثيل دورها . . اضطرت إلى تمثيل شخصيتين وتقمص شخصيتين . . فأبدعت وأجادت . فهي هي تريز الشاردة الفكر المقطبة الحاجبين الممعنة في التحليق في سماء أحلامها . . وهي هي المتقنّعة بقناع الموت الذي يجمد وجهها حتى ليبدو وكأنه الموت بالذات . . وهي هي تريز المتلاطمة المشاعر ، المتقلبة على جمر الحب ساعة تخلو بحبيبها ويخلو معها حبيبها !

وطغت عليها الفرحة ، فهي تنتقم ممن فرض عليها حياة الكبت ، وتعوّض ما فاتها ، فتخدع «كميل» ، وتختل أمه ، ويسفر خدعها وختلها عن لذة عارمة طاغية جبارة لا عهد لها بمثلها !

واستمرت الحال ثمانية شهور على هذا المنوال ، واقتطف العاشقان من ثمرات الصبوة أنضجها ، وجرعا من أكؤس الهوى أطيبها ، وامتزج الجسمان . . واندمج القلبان . . وانصهر الروحان في بوتقة الرجس والفجور ، حتى أعماهما الخنا عن كل معنى من معاني الشرف والفضيلة والكرامة !

- ٥ -

وقع ما لم يكن محيد عن وقوعه ، وأقبل رئيس لوران ذات يوم عليه وهو مصعّر الخد ، محمرّ العين ، بعد أن أسرف الشاب في تغيبه عن العمل ، فأنذره بالفصل من الخدمة والحرمان من الأجر إن هو طلب الإذن في مبارحة المكتب ، فالتاعت نفسه ، وكاد لولا بقية من جلد وعزم ، أن يخرج عن طوره فيخر على الأرض مغشياً عليه !

في مساء ذلك اليوم الذي تخلّف فيه كارهاً عن الاجتماع بحبيبته ، استقبلته تريز بوجه كالح متجهم وعينين ينبثق منهما شرر الحنق . فاحتار في أمره ، وتلبّث يتحين الفرصة الملائمة ليطلعها على الحقيقة ، فلما سنحت له الفرصة قال : «أي تريز ، قلب لنا الدهر ظهر المجن وحال بيني وبينك ، فلم يعد في إمكاني مغادرة مكاني . . فما العمل؟ ما العمل؟» .

ورجع كميل بعد قضاء حاجته ، فأطبقت تريز فمها على كلام كثير كان لسانها يوشك أن ينطق به . وفكّرت فيما تكأد سبيل لذتها ، فكّرت بالسعادة الزائلة ، فخفق قلبها . . فكرت باللذة المولية فطارت نفسها شعاعاً . . . ولم تشأ أن تصدق ما سمعته من لوران ، فهل يمكن أن يعيقها عائق عن المضي في طريق الغواية التي استمرأتها؟

وأمضت الليل مسهّدة مفتحة العينين ، تتقلب على فراشها وتتأوه ، وتضع الخطط الخيالية التي يتعذر تطبيقها !

واستطاعت في ليلة الخميس أن تحدث لوران على انفراد دقيقة واحدة ، ولكنها ازدادت حيرة وبلبلة ، وازداد قلب لوران وجيباً

واشتعالاً ، ولم يجدا لعاطفتهما متنفّساً ، ولم يعثرا على طريقة يعيدان بها المياه إلى مجاريها .

الحرمان . . ما أشقى الحرمان على قلوب العاشقين ! ما أشقى قلوب العاشقين متى فصل بينهما أمر !

ومضى أسبوعان آخران والعاشقان يتحرقان على وقد من نار جهنم ، شعر الشاب إبانها أكثر من أي وقت مضى بحاجته الملحة إلى تريز ، بحاجته الرعناء الهوجاء المجنونة التي لا يثنيها جدل أو نقاش !

وناداهما الدم ـ أهاب بهما الدم الذي اختلطت فيه الشهوات ـ أن يعودا إلى ما درجا عليه ، ولكن . . أنى لهما أن يظفرا بالمنى؟ أنى لهما أن يفوزا بالأرب؟

وتلظّى جنونهما ، وأصبح لوران لا يجسر على المجيء إلى الدكان ، أصبح يخشى المجيء لأنه يخاف من نفسه ، ويخاف من نزوته ، ويخاف مما قد تجره رغبته عليه من المتاعب الوخيمة العواقب ـ فقد تغلغلت تريز رويداً رويداً إلى أعماقه . . وإلى سويدائه . . إلى قطرات دمائه . . فامتلأ قلبه بها حتى فاض وامتزج دمه بحبها كما يمتزج الماء بالراح ، وأوشك صبره أن ينفد ، وكاد صدره يضيق بمهجته . . وأتاه الفرج في رقعة صغيرة من تريز تطلب منه فيها أن يلازم بيته في الساعة الثامنة من مساء اليوم التالي .

وما كاد يغادر المكتب في اليوم التالي حتى تخلّص من كميل بحجة التعب وهرول صاعداً إلى غرفته ، وعلق ينتظر وهو على أحرّ من الجمر قدوم تريز .

وتريز كذلك استنبطت حيلة ، وكانت حيلتها لا تنطلي على

أشخاص ذوي فطنة وذكاء . وما حانت الساعة الثامنة حتى أهرعت إلى حجرة حبيبها ، فولجت الكهف الصغير ، وانحنت على السرير الذي كان يضطجع فيه لوران .

وهبّت نسمة رخاء من النافذة الضيقة ، فأنعشت الحبيبين وملأت أعطافهما قوة وأملاً ، وملأت جوانحهما سعادة واستبشاراً .

وقضى العاشقان ساعتين لم يشعرا كيف ولّتا . ولـمّا وافت الساعة على العاشرة هبت تريز من مكانها مذعورة منبهرة ، وقالت وهي تهز رأسها حسرة : «لا بد من الذهاب ، وإلاّ افتضح المخفي وبان الأمر لكل ذي نظر وعين !» .

ورنا إليها لوران متضرّعاً وقال : «ما أصعب العيش يا حبيبتي ! أليس في وسعك أن تبعدي «كميل» عنك ، أن تبعثي به إلى الضواحي؟» .

فقالت متضوّرة متململة : «وهل في طوقي ذلك؟ هل في طوقي إرسال رجل مثل كميل إلى مكان بعيد عن باريس؟ دون هذا المراد خرق القتاد . . إنّ له رحلة واحدة . . رحلة فحسب . . أتعلم إلى أين؟ إلى الجحيم ! إلى الجحيم ! ولكنه لن يموت ، بلى لن يموت ! سيتغلب على الموت كما تغلب دائماً !» .

وساد الصمت ، وتسربت إلى الحجرة نسمة أخرى لطيفة منعشة . وقال لوران كمن يستفيق من أضعاث : «وما باله لا يموت؟ لم لا يموت؟ !» .

وارتعدت فرائص المرأة الصغيرة ونظرت إلى خليلها ، ثم أجالت طرفها في الغرفة الحقيرة . . واستتلى : «لقد زارني طيفك في ليلة البارحة وقضى الليل بطوله معي ، وفي الصباح تنبّهت من رقادي

على قبلتك . . فلما ألفيت نفسي وحيداً صرخت من الوجد . . أتفهمين؟ !» .

«أجل . . أجل . .» .

وأطبقت على فمه وجعلت تتأوه وتنشج ، وجعلت تقبّله ، وتكاد شفتاها تفترسان شفتيه .

وقال : «أواه ! لو تخرمه الموت !» .

«إذا مات تزوجنا . . وتمتعنا بحياتنا وحريتنا . .» .

«يموت الناس أحياناً ، ولكن من تستبقيه الحياة يقاسي من العذاب مره ويتذوق علقمه» .

فحدجته تريز بنظرة غامضة عميقة وقالت : «إلا أن وسائل الموت المصطنعة يكمن فيها الخطر والهول» .

«هناك حوادث طارئة تودي بالإنسان ـ صدمة قاتلة . . سقطة مردية ، حجر ضخم يحطم الجمجمة !» .

وتبادلا النظرات وقرأ كل منهما في عيني صاحبه كلمات وكلمات ! وانثنت تريز إلى الباب واندفعت من الحجرة بسرعة وهي تقول : «أنا لك ما حييت ، فافعل ما تريد» .

وعاد الرجل إلى الاضطجاع في الفراش الدافئ المتضوع بأرج حبيبته ، وجعل يفكر بالقتل ! وانصلتت من قيودها غريزة كامنة في أحشائه ، غريزة لم يكتب لها إلاّ الكبت من قبل حطّمت قيودها . . غريزة القتل التي جبلت مع طينته وطفقت تحثه على التخلص من كميل . . . وتحضه على تخرم أنفاس هذا الشاب العليل للظفر بامرأته .

وأنشأ يضع الخطط . . اتجه تفكيره إلى أبيه الشيخ الذي تحدّى

الموت وما برح يتحداه ، وتراءى له أنه سيقضي عشر سنين أخرى في قيد الحياة ، فيحرمه بذلك من تراثه وماله ، ويضطره إلى معاناة شظف العيش عشر سنين أخرى . فإذا ما بنى على تريز بعد موت كميل ، تؤول ثروة الأم راكان إليه ، فيستقيل من عمله ويقضي أيامه في لهو وتبطل .

وأوت تريز إلى مضجعها بعد وصولها إلى البيت ، وأشاحت بوجهها عن زوجها المستغرق في النوم ، وهي تود لو دفعت أصابعها في عينيه ، أو غرزتها في وجهه ، أو قبضت بيد من حديد على مخنقه ، وضغطت وضغطت لتستل روحه من بين ضلوعه . إنها تنشد الحياة والتمتع بمباهجها وملاذها ، فما بال هذا الزوج المحجوج يحرمها منها؟ ما باله يقف حجر عثرة في طريق سعادتها؟ .

واستولى عليها الكرى فنامت . وألمّت بها الرؤى ، فإذا بكميل ميت مدرج بكفنه ، وإذا بلوران يحتل مكانه وينام في مضجعه .

ومضت أسابيع ثلاثة لم يستطع الحبيبان إبانها أن يحتالا بحيلة ليجتمعا ويطفئا نار غرامهما . . فكان لوران يجلس في الدكان المعتم وهو يصفّر أو يومئ أو يشير ، فترمي له تريز ببصرها وكأنها تعلم ما تنطوي عليه حركاته وإشاراته من الحنين المكتوم والشوق المخنوق . ولم يزالا على ذلك حتى ضاق صدرهما ، وعيل صبرهما .

ولم يغنهما شيء عن هذا الحرمان ، وعاد تجمّلهما بالصبر وبالاً عليهما .

- ٦ -

كانت الكراهية تملأ تريز من زوجها كلّما قرب منها أو حدثها ، وكان متى حملها على مرافقته يوم الأحد في نزهة ذهبت معه رغم أنفها .

فإذا ما ذهبت معه في جولته الأسبوعية ، ذرعا الشوارع بتمهّل وهو متأبط ذراعها . وكان السرور يطغى على قلبه كلّما التقى صديقاً أو زميلاً فيقدمه إلى زوجته ولسان حاله يقول :

«انظر ، ها أنا بلغت من الدنيا جسيماً من الأمور ، وها هي زوجتي الدليل على ما بلغت من المنى ، فلم لا أغتر؟ وهل في ذلك ملامة عليّ؟» .

ولكنهما عندما كانا يشخصان إلى سان أوين ليزجيا بضع ساعات من نهارهما على ضفة السين ، كانت تريز تنسى نفورها وكراهيتها وتستعيد إلى الذاكرة تلك الأيام الحلوة التي رتعت فيها على ضفاف النهر إبان إقامتهم في فيرنون ، حين كانت طفلة وادعة هانئة !

ثم إنه لما وثق بصديقه لوران وأنس به واطمأن إليه في سره وعلنه ، جعل يصطحبه معه كلما انتجع النهر هو وزوجته !

ودعاه في يوم من أيام الأحد إلى مرافقتهما ، فلبى لوران الدعوة ، وانطلق الثلاثة في الساعة العاشرة صباحاً إلى سان أوين .

كانت السماء صافية الأديم ، والشمس دافئة ، والريح معتدلة تهب على الوجود فتمسها مساً خفيفاً منعشاً . وما حانت ساعة الظهيرة حتى كانوا جالسين في ظل دوحة عظيمة وارفة .

وطفق كميل يسرد على الحبيبين قصصه التافهة المعنى والمبنى ،

وما عتّم الرجل ، المنصرف عما يكتمه الاثنان في صدريهما وهو غير الذي يظهرانه ، أن توسّد الحشائش الخضراء واستغرق في النوم .

وعلا غطيطه بعد قليل ، فقام لوران من مكانه ودنا من تريز ، ورنا إليها بعينين متضرّعتين ، وكأنه يطلب منها أن تسعفه وتمنحه ! وما لبث أن انطرح أرضاً وشرع يقبل قدمها وساقها ، ويضم إلى صدره هذه الساق البضة . وغلى الدم في عروقه ، فقد ملأت خياشيمه الرائحة المتضوعة من جسد تريز ، وشعر بحافز عظيم يحثه على احتوائها بين ذراعيه وضمها إلى صدره ، وإغراق روحه الظامئة في روحها المتعطشة .

ولكنه لم يجسر على ذلك ، فالزوج الثقيل الظلّ قد يستفيق فجأة من رقاده ، فيفقد تريز إلى الأبد !

وكأنما أرهبت فكرة الخسارة نفسه وأدخلت على قلبه الخوف والهلع ، فانتصب واقفاً وابتعد عن المرأة التي يحب ويهوى ، واتكأ على شجرة ضخمة ، ونظر إليها ونظرت إليه . وفكر الاثنان ، وأشاحت تريز وجهها عنه ، وشخصت إلى الفضاء وهي لا تزال تقدح زناد الفكر !

ارتعد جسد لوران ، وعجب لهذا الشرود الذي استولى على محبوبته ، ثم خطا خطوتين من كميل ورفع قدمه كأنه يروم سحق رأسه . . ولكنه لم يفعل ما سوّلته له نفسه ، بل تراجع إلى الوراء ومشى إلى النهر ، وجعل يتأمل في المياه المتدفقة ، ويضع خططه لعمل يأمن على نفسه تبعته .

ولما أركن إلى ما عوّل عليه بعد أن أجهد نفسه في الفكر ، انقلب راجعاً وفي عينيه نظرة من علق قلبه بالغايات ، وفي أساريره أمائر

من قلّت حسرته بعد العزم واليقين . لقد بت الأمر ، وسينجح في ذر الرماد في العيون ، ويعيش بقية أيامه مع تريز كزوج موفور الكرامة لا حسيب عليه ولا رقيب !

وأقبل على النائم المستأمن ، فعابث أنفه بغصن صغير ، فهب الراقد مذعوراً ، ولكنه ما عتم أن جعل يضحك ، ويربت كتف لوران ، ويطنب في مدحه والثناء على روحه الخفيفة وظرفه ودعابته !

وقصدوا بعد قليل مطعماً من المطاعم المنبثة بكثرة على ضفة النهر ، فلاذوا بمائدة صغيرة وهم يزمعون أن يطعموا . غير أن لوران التفت بغتة إلى صديقه وقال : «ما رأيك يا كميل في نزهة نهرية تزيد من شهيّتنا؟» .

فقال كميل : «يطيب لي ذلك ، إلاّ أن تريز كما أرى جائعة !» .

فقاطعته زوجته قائلة : «لا ، لا . . لعمري إنها فكرة لا أشتهي خيراً منها ، فهلم هلم . . .» ونظرت في وجه لوران وأدركت ما يضمره ، فاقشعر جلدها وارتعدت فريصتها !

وهب الثلاثة واقفين ، وغادروا مائدتهم بعد أن أمروا الساقي أن يعد لهم ما لذّ وطاب من الأطعمة ، ثم صعدوا إلى قارب صغير شرع لوران يجذفه حتى ابتعد بهم عن الضفة .

وكانت الشمس آنذاك في الطفل ، وقد أخذ الغسق يضرج الأفق البعيد . ومضت ساعة والقارب ينساب في يسر على صفحة الماء ، وأرخى لوران المجذافين من يديه ووقف يتأمل في الجزيرة الصغيرة التي انعكست عليها تلك الحمرة القانئة المكتسية بها سحب السماء .

وساد الصمت ، وجنحت الشمس إلى المغيب ، وغامت المرئيات أو كادت تغيم ، ودخل القارب في مكان يضيق فيه مجرى النهر .

وارتفع صوت غناء ، واستدار لوران بغتة ، فحمل كميل من وسطه ، فقهقه الأخير ضاحكاً وقال : «ويحك يا لوران اتركني لا تدغدغني وإلاّ سقطت في الماء . .» .

فشدّد لوران من ضغطه على الخصر الضامر ، ودفع كميل إلى الأمام ، فالتفت الفتى متعجباً ، فوقع طرفه على وجه صديقه المتقلّص العضلات ، فلم يفهم ، وانتابه رعب هائل ، وأراد أن يصيح . . أن يصرخ . . ولكنه شعر بيد تكتم أنفاسه ، ثم أحس باليد الخانقة تهبط إلى عنقه فتعصره عصراً . .

وبغريزة الحيوان الذي يدهمه داعي الحمام نهض على ركبته ، وتشبّث بحافة القارب ، وناضل وقاوم بيأس وقنوط واستماتة ، وصاح بصوت مريع متحشرج : «تريز ! . تريز ! .» .

ونظرت إليه الزوجة الصغيرة وأنشبت أظفارها في مقعدها ، وحاولت أن تغمض عينيها ، ولكنها حملقت بعينيها . . حملقت في الرجلين ـ في الرجل المقبل على الموت ، وفي الرجل الذي قيضه الموت رسولاً لنقمته وبطشه ! .

وارتفعت الصيحة مرة أخرى تردد متألمة مستنجدة مستصرخة : «تريز ! . تريز ! .» .

فأصابها الهلع وملأ شغافها الفزع ، وانبجست الدموع من مقلتيها ، وسحت من عينيها غزيرة ، ثم دفنت وجهها في راحتيها ، وتشنّجت أعصابها ، وأصابها نوع من الجنون ، فقفزت من مكانها وارتمت على وجهها وهي تئن وتزفر وتعض على نواجذها ! .

جن جنون لوران لكثرة ما صادفه من مقاومة كميل ، فجعل يهزه بعنف ، واستمر يضغط على عنقه كي يوهن قواه ، وما هي إلاّ فينة

حتى تمكن من الفتى فرفعه في الهواء . . وشعر المسكين بالموت ، فحاول التخلّص من الذراعين المفتولتين ، ثم مال برأسه على عنق جلاده فغرس أسنانه في رقبته ، فصرخ لوران صرخة ألم وغيظ ورمى صديقه بكل قوته ، فتلقفه النهر بذراعين مفتوحتين وضمه إليه . .

اضطرب ماء النهر وعلته الفقاقيع ، وصاح كميل وغاص في اللُجّة الباردة ، ثم طفا ثم غطس ، وما لبث أن برز ثانية فتعلّق بالقارب إلاّ أن لوران ضربه على أصابعه ، فأنّ أنين المتوجع وأرخى قبضته وغاب في طيات الماء ، وظهرت شعرات من رأسه أخذت تعبث بها المياه ، وما لبث النهر أن ابتلعه .

أخفى لوران جرحه العميق وراء ياقته ، ودنا من تريز فرفعها بين ذراعيه وقفز بها من القارب وجعل ، بعد أن قلبه رأساً على عقب وأرسله إلى قاع النهر ، يصرخ مستنجداً مستغيثاً .

وتناهى صوته إلى الصيّادين الذين كانوا يتغنون وينشدون ، فهرعوا إلى مصدره ، وما هو إلاّ قليل حتى انتشلوا المرأة وحبيبها وحملوهما إلى اليابسة . بيد أن لوران كان يعول ويولول !

كان يصرخ صراخاً يفتت الأكباد . . كان يدعو بالويل والثبور وعظائم الأمور . . لقد فقد صديقه ، فقد أعز صديق . .

وتخلّص من قبضات الرجال المشدوهين ورمى بنفسه في النهر ، وأمضى فترة من الزمن يبحث دون جدوى عن كميل ، على أنه آب راجعاً وهو مطأطئ الرأس حسير النفس مكتئب الروح مستعبر العينين . . وجعل يندب صديقه ويرثيه ، ويتفجّع لما حاق به ، حتى استحوذ الحزن على الحاضرين ، فتوجّعوا عليه ونسوا «كميل» الغريق !

وتصاعد صوته الحزين يردد بأسى ويأس : «أنا الملوم على ما جرى ، أنا المسؤول ، ويلي ، أنا المسؤول ، لو منعته من الرقص والقفز . . لسلم وسلمنا ، ولما انقلب القارب بنا !» .

لقد استغاث ولكنه لم يطلب الحياة لذاته ، بل طلبها لامرأته . . فيا للوفاء ! يا للوفاء ! ليرحمك الله أيها الخل ! .

وحدث ما يحدث عادة ، فقد وافق ثلاثة أو أربعة صيادين على كلامه ، فشهدوا بأنهم رأوا القارب ساعة اختل توازنه ، كما زعموا أنهم رأوا لوران يسعى جاهداً لإنقاذ الضحية ! .

واتجهوا عقب ذلك إلى المطعم ، فتجمهر الناس حول الباب ، وأخذوا يتحدثون عما جرى ويصفون الكارثة التي أودت بحياة شاب في غضارة الصبا ، ويضفون البطولة الخارقة على لوران المخلص الوفي !

بيد أن تريز كانت غائبة عن الصواب في أثناء ذلك ، لا تعي ما يدور حولها ، ولا تصغي لما يقال لها . فلمّا عادت إلى رشدها بعد حين ، صحبها لوران إلى مخدع النوم الذي قدمه لها صاحب المطعم ، ثم هرول نازلاً واستقل عربة وتوجه إلى پاريس ليطلع أم كميل على الفاجعة !

*

قدح لوران زناد الفكر وهو منطو على نفسه في العربة التي حملته إلى پاريس ، فاستخفه الفرح للنجاح الذي أحرزه ، ولانطلاء خدعته على الجميع . وما كاد يصل إلى پاريس حتى قصد لتوه منزل ميشو ، وكانت الساعة تقارب التاسعة ليلاً .

وجد ضابط البوليس المتقاعد يتناول الطعام مع ابنه أوليفيي وزوجة

ابنه سوزان ، فانتحى بالشيخ جانباً وأطلعه بصوت مهموس على المأساة المروعة ، ثم عقب قائلاً :

«وقد قصدتك فور وصولي لجهلي المطبق فيما يجدر بي أداؤه لهاتين المرأتين التاعستين . . وأضرع إليك أن تصحبني إلى الأم الثكلى !» .

وأصابه الهلع الشديد ساعة رأى عيني أوليفيي تحدجانه من بعيد بنظرات الفاحص المتأمّل . لقد أتى إلى هذين الرجلين بجرأة لا تعرف الخوف ، ولكنه شعر وهو يتعرض لهذه النظرة النارية أنه ارتكب خطأ فاحشاً بلجوئه إلى رجلين ينتميان إلى قوى الأمن ، ويتميزان عن سائر الرجال بقوة الملاحظة التي اكتسباها من طول المران .

أمّا الحقيقة التي لا مراء فيها ، فهي أن أوليفيي ، الذي سمع كلام لوران ، لم يتمعّن في وجهه عن قصد أو اشتباه ، بل كانت نظرته نظرة رجل متألم صعقه خبر فاجع . . أما ميشو فقد تأوه متوجّعاً وقال :

«يا إلــهي ! ما أصعب العيش ! ما أصعب المهمة ! يا للمسكينة ! يا لأمه المسكينة ! وماذا نقول لها؟ وكيف يتاح لنا تعزيتها؟ لقد أصبت بمجيئك إلينا ، وسنذهب معك !» .

وضع الرجل قبعته على رأسه ونزل مع لوران وابنه وزوجة ابنه ، فلمّا وصلوا إلى جسر «بونت نوفو» استمهل ميشو لوران قائلاً : «لا تصحبنا إلى الداخل ، بل انتظر ريثما نعدّ المرأة لتقبل الخبر القاصم» .

فتنفّس القاتل الصعداء ، وسرّ لهذا الإجراء . ودخل الآخرون ، وشرع ميشو يتكلم ، وكان حذراً حريصاً ، إلاّ أن الأم المهيضة أدركت سريعاً أن حدثاً جسيماً قد ألمّ بابنها ، ففرّ لونها وألحت على ميشو

وهي تشرق بدمعها وتكاد تتهافت من الرعب ، أن ينبئها بالخبر اليقين . وانصاع الرجل لإرادتها وأطلعها على الفاجعة . .

ولولت المسكينة ، وذرفت الدمع السخين ، وكان حزنها مريراً يليّن الجماد . . . كان أشد من الحزن ، بل كان مأساة أصبح الحزن إزاءها ملهاة !

مزق صراخها الفضاء ، ودوى نحيبها فأعول المساء . . وصاحت من كبد محرور ، فتضورت النجوم ألماً في كبد السماء . . وبكت ما شاء لها البكاء ، وكان بكاؤها هولاً وفناء . . كان بكاؤها زوال ضياء وحلول ظلماء . . كان بكاؤها أروع وأبشع من البكاء ، ـ كانت أم ـ والأم متى فدحت بابنها أضحت من كثرة الشجن بلهاء وأي بلهاء !

جمد أوليفيي وأبوه في مكانيهما ، وأقبلت سوزان على الثاكلة تواسيها وتعزيها ، وتسكب معها شآبيب الدموع . . ولكن أية تعزية هي تلك التي ترفع عن قلبها وقر غمها؟ أي سلوان هو الذي يخفف عن روحها الضنى والقنوط !

رأت الأم الملهوفة ابنها يصارع الموج . . رأته مجمد الأطراف منتفخ البطن . . ورأته في الأوان نفسه طفلاً يلح عليه المرض . . ثم رأت نفسها تكافح الوصب وتدافع المرض ، وتقف في وجه الموت وتنتصر عليه . . . وتنتصر . . وتنتصر . . مثنى وثلاث ورباع . . إلاّ أن الموت الزؤام انتصر عليها في نهاية المطاف فسلبها حشاشتها ، سلبها وحيدها . . أملها . . مناها . . نور حياتها . . سلبها الدنيا والآخرة !!

وأحست بشيء يستقر ثقيلاً كبيراً في حلقها ، ويكاد يخنق نفسها ، فتمنت لو قضت نحبها الآن . . الآن . . حتى تلحق بحبيبها !

وانسحب ميشو وابنه ، ولم يعتما أن ذهبا مع لوران إلى سان

أوين ، فوجدوا تريز في الفراش تتقلى على نار الحمّى ، كما أخبرهم صاحب المطعم . أما الحقيقة فهي أن تريز ، وقد فاءت إلى نفسها ، ضاقت ذرعاً بخوفها ، ولكي لا يفتضح أمرها تظاهرت بالإعياء ، ثم تهالكت وتمارضت ، ولاذت بالصمت وأغمضت عينيها ، وأبت أن ترى أحداً من الناس .

ولكنها كانت طيلة ذلك ترى «كميل» ولوران وهما ملتحمان في معركة الموت . . ترى «كميل» يطفو وجهه الشاحب ثم تغيبه المياه . . وكانت هذه المشاهد سبباً آخر في انفعالها وارتفاع حرارتها .

وحاول ميشو مراراً أن يكلمها ، ولكنها كانت تحوّل رأسها إلى الناحية الأخرى وتستخرط في البكاء . . فلم يجد الرجل مندوحة من مغادرتها ، فهبط مع ابنه ولوران إلى المطعم حيث اجتمعوا مع ضابط الأمن الذي كان في أثناء ذلك يستجوب الشهود . . واستمعوا إلى ما كان يقال ، وأنصتوا إلى الصيادين الذين زعموا أنهم شاهدوا ما وقع للضحية ، وكيف حاول صديقه لوران إنقاذه فأشرف هو الآخر على الغرق .

وأجمعت الصحف في اليوم التالي على بطولة الصديق وأريحيته . . اكتظت صفحاتها الأولى بوصف الحادث الأليم ، مشيدة بمناقب لوران الشهم ، الذي بذل جهد الجبابرة لإنقاذ صديقه من مخالب الحتوف !

أفرخ روع لوران ساعة أعلن تقرير الحكومة الرسمي ، وخُيِّل إليه أن حياة جديدة دبت في جسده . . فمنذ اللحظة الأولى التي غرس فيها الضحية أسنانه في عنقه ، كان يتراءى له أنه ميت ـ ميت في نفسه وحسه ـ وكانت غريزة حب البقاء تحفزه إلى المقاومة ، وتنطق لسانه بالكلام . . .

أمّا الآن ، وقد لاحت له تباشير النجاة من العقاب والظفر بالمنى وبالحياة ، فإن دماءه عادت تجري في عروقه ، فاستمر يمثل دور الصديق المفؤود الملتاع لمصيبة صديقه ، وعلق يفكر بتريز ويتخيلها نائمة في الفراش بجانبه .

قال لميشو وهو يتكلّف الشجى : «ليس في وسعنا أيها الصديق أن ندع هذه المسكينة وشأنها ، وهي المرزوءة بأفدح مصيبة . . ليس في مقدورنا أن نتركها دون ناصر أو معين ، فقد يصيبها مكروه ، وقد تطغى عليها آلامها النفسانية فتفضي بها إلى الجنون ، بله الموت . . ولا مندوحة لنا إن شئنا مساعدتها ، من حملها إلى پاريس !» .

وما أتم تخليطه حتى هرول صاعداً إليها ، فرجا منها بصوت مشرب عطفاً ومحبة أن تتمالك قواها . . فلمّا سمعت صوته ارتعش جسدها المحموم ، وحملقت إليه مشدوهة مذهولة ، ثم استوت جالسة في الفراش ، وجعلت تتلدّد إلى يمين وإلى شمال ، كأنها مخبولة أصابتها لوثة !

ورضخت أخيراً له ، فارتدت ملابسها ومشطت شعرها ، ثم استقلت العربة . وجلس لوران أمامها ، وأمسك بيدها وجعل يضغط عليها . . وشعر بهذه اليد الناعمة ترتجف في يده ، إلاّ أنها لم تحاول سحبها من قبضته ، بل أجابته على ضغطته بضغطة مماثلة ، فاندلعت النيران في اليدين ، والتحم الباهمان ، وخُيّل للاثنين أن دماءهما اختلطت وامتزجت ، وأنها لن تلبث أن تتمخض عن حياة وأمل وسعادة !

إلاّ أنهما في هذا الظلام الدامس شعرا بقبضتهما الموحدة تثقل وتثقل وتضغط على رأس كميل ، فلا يتيسّر له رفع هذا الرأس من الماء .

ووصلت العربة أخيراً ، فنزل ميشو وابنه أوليفيي ، ومال لوران على خليلته وهمس في أذنها : «تشجعي يا تريز . . فأمامنا طريق طويل ، ينبغي عبوره بصبر وجلد وقوة !» .

فأجابته بصوت مثل صوته : «لبيك يا حبيب الروح ، وثق بي ، فأنا كالطود ، وقلبي قوي ، وحبي صخرة تتحطم عليها الأعاصير !» .

وهبطت من العربة مستعينة بيد أوليفيي ، ثم أسرعت إلى مخدعها فاحتجبت فيه !

ومضى لوران في سبيله ، مشى في الطريق الموحش الخالي من السابلة . وكان الليل قد انتصف ، والنسيم يهب من الغرب عليلاً منعشاً . ولم يسمع القاتل سوى وقع خطاه على الأرض الحصباء ، وكان للصوت وصداه تأثير رهيب في قلبه .

لقد قتل أخيراً ، قتل «كميل» ، وانتهى الأمر ، وسيحيا الآن في سلام ريثما يحين الوقت الذي يرتبط فيه بتريز إلى الأبد !

كانت فكرة اقتراف جريمة القتل تسبب له في الماضي ضيقاً وذعراً ، كانت نفسه تثور وتتمرّد كلّما فكر في القتل ، أمّا الآن ، وقد قتل ، فإنه شعر كأن عبئاً ثقيلاً ارتفع عن عاتقه ، فتنفس بيسر وسهولة ، وأيقن أنه شفي من آلام التردد والخوف . . .

وولج غرفته ، وما هي إلاّ دقائق حتى كان يغط في نومه . . إلاّ أن قلبه كان يجب وجيباً شديداً ، وعضلاته تنتفض بين الحين والحين انتفاضة غير معهودة لديه . . لقد تغيّر فيه شيء ، وانتابه شعور غامض لا يعرف كنهه !

كان القدر يتمخّض .

كان الغيب يوشك أن يتضح .

وكانت ارتعاشة وجهه، وخفقة قلبه، واختلاجة أهدابه، وهو مستغرق في النوم، أبلغ دليل على ميلاد عهد جديد!

لقد بقي، ولا يدري بما هو غائب.

لقد ودت نفسه البقاء خوفاً من الردى.

لقد سل سيفه على صديقه وعمي عن السيف الذرب الذي تسله المنايا على الأنام!

*

استيقظ لوران في الصباح في أحسن حال، كأن النسيم الهباب قد أسكن نفسه وملأ روحه التي كانت تعاني الضنك، رجاء واستبشاراً. وغاب عن باله الحادث الرهيب، ولكن الجرح المؤلم الذي أحدثته أسنان كميل في رقبته كان يذكره به بين الحين والحين.. كانت عضة كميل هذه بمثابة قطعة من الحديد ملتهبة تحرق جلده. كان يشعر كأن عشرات من الإبر تمزق جلده ببطء وإصرار واستمرار!

نظر في المرآة، ولوى رأسه حتى استطاع أن يرى الجرح الأحمر، وبقع الدم التي سالت على كتفه، فغسل الجرح بماء ساخن، وطمأن نفسه بأنه لا يعتم أن يندمل بعد بضعة أيام. ثم اشتمل ملابسه وذهب إلى مكتبه، وهناك سرد المأساة بصوت خافت بدا للجميع كأنه لحن حزين يرثي به صديقاً راحلاً... وكان زملاؤه قد قرأوا تفاصيل الحادث في صحف الصباح، فتمثّل لهم لوران بطلاً من الأبطال، فاحترموه وبجلوه وقدروه «حقّ» قدره!

غير أنه رغم اطمئنانه إلى زوال الخطر، فإنه لم يفتأ يضطرب كلّما فكر بالجثة المختفية... فكميل في الحقيقة لا يزال مجهول المصير ما

دامت جثته راقدة في قاع النهر ، ودوام هذه الحال يعرقل المساعي ، ويهدم ما بناه هو وتريز من قصور الآمال .

بحث المسؤولون عبثاً عن الجثة ، فغطس عدد من الغطاسين في كل بقعة تكثر صخورها . . ولكن دون جدوى . .

لقد اختفى كميل ، ولعله تلاشى بقدرة قادر . ودأب لوران على الذهاب إلى معرض الجثث المجهولة علّه يعثر على الجثة المختفية .

ومضت الأيام ، وكاد يضيق ذرعاً بهذا الانتظار الطويل ، وكاد اليأس يداخل قلبه من العثور على الغريق .

وحدث في يوم من الأيام أن رأى جثة رجل تأكلتها المياه وشوهتها تشويهاً فظيعاً . . وبينما هو يحملق مشدوهاً إلى هذا الفناء المروع ، إذ بالرأس ينشق قليلاً ، وبالأنف يتسطح وينبسط ، وبالشفتين تنفرجان عن أسنان منضودة بيضاء كالثلج ! وضحك الرأس الغريق ، وضحك لوران ولكن ضحكته كانت أشبه بالعويل !

وطال الأمد وتلاشت الراحة ، وحلّ مكانها الهم والكمد .

ولهفت نفس لوران : أين؟ أين الجثة؟ ومع ذلك فكلما خُيّل إليه أنه وجدها سرت في نفسه قشعريرة خوف وفزع باردة مثلوجة !

واعتاد هذه الزيارة اليومية إلى المعرض الرهيب ، وارتاحت نفسه كلّما رأى فيه جثث نساء عاريات الصدور باديات النهود . . وانتشت روحه كلما وقع طرفه على الدماء المتخثرة على هذه الصدور الساكنة سكون الأبدية !

ورأى مرة جثة امرأة في العشرين من عمرها ، وكانت أعضاؤها منسجمة قوية سليمة ، وتراءى له أنها لن تعتم أن تنهض من رقدتها ، فالجسم البض الجميل لم يعتوره البلى ، والطراوة المتجلية في

تقاطيعه لم يقلل منها ما حاق بها ، وكانت الشفتان مفترتين عن ابتسامة خفيفة لطيفة ، والنهدان الصلبان قائمين مستويين ، كأنهما يتحديان الموت . . ولولا ذلك الخط الداكن الرفيع الذي أحاط بعنقها ، لحسبها المرء فتاة تعرض مفاتنها على حبيب قلبها ! ونقّل لوران طرفه في أعضاء هذا الجسد ، فشعر بنوع عجيب من الرغبة الخائفة !

وجاء أخيراً ذلك اليوم الذي وجد فيه ضالته في المعرض ، فسمّر في مكانه ، وجعل ينظر إلى العينين المغمضتين نصف إغماضة ، وإلى الشفتين الزرقاوين المتقلص ما حولهما بهلع قاتل . ومرّت عليه الدقائق وهو جامد ساكن ، يفكر ولا يفكر ويرى ولا يبصر ، ويقارن بين كميل وهو حي وكميل وهو جثة هامدة .

وكان المنظر كريهاً لم ير لوران أبشع منه ، كان منظراً تتقزز منه النفس ! كان كميل بوجهه الناحل ، وصدره الناتئ العظام ، وساقيه الهزيلتين ، يبدو كرجل قضى فترة من الزمن دون أن يطعم طعاماً أو يشرب شراباً !

وعندما استطاع لوران أن ينتزع نفسه انتزاعاً من معرض الجثث ، ذهب إلى ميشو فجاء به ، وقام الاثنان بالإجراءات اللازمة من استصدار شهادة الوفاة وتصريح الدفن . .

ولـمّا تمت المعاملات القانونية الضرورية ، دفنت جثة كميل ، وخُيّل إلى لوران أن همومه الآنفة انجابت ، وأن سحابة كثيفة جلت من أفقه ، وأنه حان الوقت الذي ينسى فيه جريمته ، وما أعقبها من حوادث ، وما لابسها من إبهام . . .

خيل للقاتل أنه نسي الجريمة ، فهل نسيها حقاً؟

خيل للقاتل أنه أفلت من العقاب ، فهل أفلت حقّاً؟
خيل للقاتل أنه ظفر بأمنيته ، فهل ظفر بها حقّاً؟
خيل للقاتل أن العقبة الكأداء قد أزيلت من طريقه . فهل زالت حقّاً تلك العقبة الكأداء بزوال كميل ، وهل استخلص تريز لنفسه؟
وهل مات كميل؟

*

- ٧ -

خيّم السكون . . سكون القبور على الدكان الصغير . . وأرخت المصيبة عليه ظلالها الرهيبة ، فناح الدكان ، وناحت السّلع ، واتشح جسر «بونت نوفو» بالسواد .

أرتجت أبواب الدكان الصغير الساكن سكون القبر ، وعندما فتحت ثانية ، بدت السلع ، المعروضة في واجهته ، كأنها هي الأخرى تتشح بغلالة من السواد ، فقد علاها الغبار وانتشر حولها التراب ، وشاب وجه تريز اكفهرار وأي اكفهرار !

قضت مدام راكان والزوجة الأرمل أياماً ثلاثة في حزن لا يريم . . زجيا أياماً مريرة أحلك من الليل البهيم . . لاذت كل من المرأتين بحجرتها ولزمت سريرها ، وفكرت كل واحدة بمصيبتها تفكيراً يختلف عن تفكير الأخرى .

ولم تر كل من المرأتين وجه الأخرى في هذه الأيام الثلاثة . وكان موت الفتى بمثابة الضربة القاصمة تنزل بعنف على الرأس فتشدخه . . وهكذا ألمّ بالعجوز المسكينة شداه أذهلها عمّا يحيط بها ، فوقعت في بحران من المرض ـ مرض اليأس الذي عصر كبدها ونهش فؤادها وأسلمها إلى الجنون . .

وظلّت هذه الثاكل ساعات وساعات وهي صامتة ساكتة مطبقة الفم ، تحدق بعينيها ، فلا ترى ، وكأنها تتيه في جحيم من اليأس والقنوط . . وتلا ذلك توتر شديد في أعصابها ، فطفقت تنتحب ، وطفقت تنوح ، حتى اهتز البيت ألماً ، ومادت الأرض لوعة وحسرة !

أمّا تريز فقد أوصدت عليها هي الأخرى باب مخدعها ، ولاذت

بالفراش ، فاضطجعت عليه ، فلم تتحرك من مكانها أو تذرف دمعة سخينة على قرينها . . وكانت سوزان في أثناء ذلك تخدم المرأتين ، ولكنها أخفقت في حمل تريز على تبادل الحديث معها ، كما أنها فشلت فشلاً ذريعاً في التخفيف عن آلام الوالهة .

في اليوم الثالث قرّ رأي تريز على شيء ، فغادرت الفراش وارتدت ملابسها ، ثم ذهبت إلى غرفة مدام راكان ، وكانت المرأة العجوز في تلك الأثناء شاردة اللب موزعة البال ، فلما دخلت تريز بادلتها النظرات ، ثم فتحت ذراعيها وضمت إليها زوجة ابنها ، وصرخت صوتاً من الأعماق ، ردده الفضاء ، وكأنه صوت الفناء . . قالت : «ابناه ! أيها المسكين ! أواه يا كميل» .

وبكت ، ذرفت الدمع الهتون ، وسكبت مدامعها المحرقة على وجه الأرملة الشابة .

وما عتّمت تريز أن ألحّت عليها في النزول إلى الدكان . وكانت المرأة الكهلة قد انكمشت وتقلّصت بهيئتها وعاطفتها ، حتى أضحت أشبه بطفل . . وكان ظهور كنتها الفجائي بمثابة عودة الذاكرة إليها ، فأقبلت عليها تبثها أحزانها وتفضي إليها بآلامها ، وتشكرها على رأفتها وحنانها . . ثم دعتها إليها ثانية وهي لا تزال تنشج وتنتحب .

وعادت المياه إلى مجاريها ، وأكلت العجوز طعامها بعد صوم طويل ، وفتحت أبواب الدكان على مصاريعها ثانية .

*

استأنف لوران ما قطعه من زيارة الدكان ، فطفق يقضي مع المرأتين المفؤودتين زهاء نصف ساعة في كل يوم ، ثم يفارقهما دون أن يلتفت إلى تريز ، وكانت مدام راكان تنظر إليه نظرها إلى منقذ

ابنة أخيها ، وكانت تثق بأنه ذلك الرجل الكبير القلب الذي بذل وسعه لدرء الخطر عن ابنها ، لهذا جعلت تستقبله بمزيد من اللطف والبشاشة والترحاب .

واجتمع الأصدقاء في يوم خميس في الدكان ، وكأنهم كانوا على ميعاد ، وما وافت الساعة على السابعة حتى صعدوا إلى المنزل ، وجعلوا يزاولون عاداتهم القديمة ، فيلعبون ويحتسون أكواب الشاي ويتسامرون . .

وتذكّرت المرأة ابنها الراحل ، فذاب قلبها حسرة وأجهشت بالبكاء ، ثم أومأت بيدها المرتجفة إلى المقعد الخالي . .

فذعر الجميع وخفقت قلوبهم ، وشعروا بالحسرة على أيام هنيئة ولّت ، ولم يشعروا بشيء من الحسرة على الكارثة التي حلّت بكميل .

أمّا لوران فقد اغتبط لاستئناف سهرات الخميس ، فهي كفيلة بتحقيق رغبته وبإنالته وطره .

وكان رداء تريز الأسود يزيدها جمالاً في عينيه ، وكان قلبه يخفق طرباً كلما شعر بعينيها تنحطان عليه بشجاعة وقوة ، إنها له جسداً وقلباً !

على أن هذه السعادة لم تدم إلاّ ريثما أعقبها تعس وشقاء ، ذلك أنها كانت سعادة كالإلاق أو كالرعد والبرق اللذين لا يحدثان مطراً .

فقد مضت سنة وثلاثة شهور ، فتلاشى الحزن من قلب الأم ، أو كاد ، أو خُيِّل للأقربين أنه خف وضؤل .

ورجع لوران إلى عادته القديمة ، وأخذ يلمّ بالدكان في مساء كل يوم ، فيسأل المرأتين عن حاجاتهما ، وينتحل الأعذار إن اتفق أن

تخلّف عن المجيء ، كما ينتحلها خادم مخلص أمين . وكان في ليالي الخميس يعين مدام راكان في الاستعداد لاستقبال الضيوف . . ولكنه لم يحاول الانفراد بتريز ، وإن كان يختلس من فمها قبلة يستعيد منها الاثنان ذكريات الماضي السعيد . ويبدو أن الجريمة أخمدت نار شهوتهما ، أو ذرت الرماد فوق هذه النار المشبوبة . . فبإقدامهما على قتل كميل تمكّنا من إشباع رغائبهما الوحشية ، ولكن هذه الجريمة الكبرى ملأت قلبيهما اشمئزازاً من القبل والتقبيل .

والعجب العجيب أن الكثير من الفرص سنحت لهما لإشباع غريزتهما ، وتحقيق جانب من حلمهما الذي دفعهما إلى القتل . . فمدام راكان المشدوهة الشاردة اللّب لم تكن تمثل بشخصها وكيانها عقبة تحول دون بغيتهما التي اقترفا في سبيلها أبشع جريمة ، إلاّ أن الحب لم يعد يحثهما على محاولة ما قطعاه ، وقابليتهما التي طالما ارتكبا الشطط وركبا متن الخطر من أجلها لم يبق لها من وجود ، فجعلا يمضيان وقتيهما في تبادل النظرات والكلمات ، وطفقا ينظران الواحد إلى الآخر من غير أن تصطبغ وجناتهما بذلك اللون القرمزي الذي يعقب الانفعال . . كما أنهما نسيا تلك القبل الوحشية المتلظية التي كانت تتخدش من عنفها شفاههما . .

ووصل بهما الأمر أخيراً إلى التهرب من كل خلوة تسنح اتفاقاً ، فهما كلما ألفيا أنفسهما في خلوة لا ثالث معهما ، استولت عليهما الحيرة ، ولم يعرفا ماذا يقولان وماذا يصنعان . . وأخشى ما خشياه الظهور بمظهر البرود والجمود !

على أن الاثنين كانا يخدعان أنفسهما ، ويعتقدان أنهما فهما السبب الذي يجعلهما يظهران بهذ المظهر كلّما اجتمعا . . فقد نسيا

اضطرابهما وأصرّا فيما بينهما وبين أنفسهما على أن همود حواسهما وهجوع قلبيهما ما هو إلاّ من قبيل الركون إلى ما يحمله المستقبل القريب من استتباب واستقرار حياتي بيتي . . تشبثا بفكرة الزواج ، ونسبا إليها هذا الخمود الوقتي في العاطفة ، وأيقنا أن القلبين لن تعتم نار الحب أن تدفئ جنباتهما ، فيسترجعا عواطفهما ولذتهما ونشوتهما ، وينعما بحياة كلها رغد وحب . . وهذا الأمل ، فيما يتشوّفان إليه ، درأ عنهما خطر السقوط في هوة اليأس السحيقة التي فغرت فاها في أعماق كل منهما !

في جنح الليل . . . في بهيم الليل الذي كان الكرى يجفو إبانه عيني تريز ، كانت تستوي جالسة في سريرها ، وتستغرق في لجة من الفكر . . . ويفضي بها الفكر أخيراً إلى اعتبار لوران كلباً أميناً يحرسها ويدفع عنها الأخطار . . فأضلاعها الباردة لم تعد تضرم نارها جذوة الرغبة ، تلك التي كانت تلهبها وتشعلها قبل مصرع كميل !

وانكبت على المطالعة ، فقرأت قصص الأبطال . . فأثرت فيها الكتب ، فجعلت تبكي بلا سبب ، وتضحك لأدنى سبب !

وهكذا رجعت إلى سابق عهدها من الاضطراب والقلق ، وكانت الأقاصيص ، التي تخوض مضمار الاستقامة والشرف ، تضع العقبات والفواصل بين غرائزها وإرادتها .

وبقيت كما خلقت ، تلك الفتاة المتوحشة التي تحدّت السنين ، وقذفت نفسها في مستنقع الفاحشة الآسن . . .

إنها لكثرة ما قرأته من كتب غدت قادرة على التمييز بين النبل وضده ، والرقة ونقيضها . . ولكنها عجزت عن سبر غور نفسها .

واستمرت تعيش في معترك من البلبلة وعدم الاستقرار!

أمّا لوران، فقد خبر في البدء شعوراً بالراحة والاطمئنان، وكأنه تخلّص من عبء ثقيل.. وكان يتساءل في دهشة واستغراب، ويتراءى له أنه في أضغاث، وأن ما حصل فعلاً هو رؤية مزعجة لن يلبث تأثيرها أن يتلاشى بعد اليقظة التي تعقب الغفلة، فهو لا يكاد يصدق أنه قادر على اقتراف جريمة القتل!

منذ مقتل كميل استمر يمثّل دوره بطريقة لاشعورية تمليها الغريزة.. وكان كالحيوان المكفوف الذي يعرف واجباته ويؤديها بضبط وإتقان... أمّا الآن فقد أخذ يتلفت حتى وقع طرفه على الهوة التي مر فوقها، فخارت عزيمته وخثرت نفسه!

ولطالما حدّث نفسه بقوله: «لا جرم أني كنت مخموراً! لقد اختبلتني هذه المرأة بغنجها ودلالها.. يا إلـهي كم كنت مجنوناً ساعة جازفت بحياتي ومستقبلي!».

وزاده الفكر جبناً.. وزاده الخوف حرصاً.. وزاده التكاسل والإقبال على الطعام وزناً.. وزاده شرود الذهن إهمالاً لهندامه وأناقته ونظافته!

ولكنه أصبح مواظباً على عمله، وجعل يأكل في المطعم الحقير الذي كان يقصده قبل التقائه «كميل»، فيقضي فيه ساعة الظهيرة وهو يمضغ ببطء ويلوك بتمهل، كأنه يتعمّد إطالة الوقت..

لم يفكّر في شيء في أثناء النهار، أمّا في الليل فكان يستغرق في نوم ثقيل... وهجعت رغباته، وأصبحت تريز لا تخطر له على بال.. وإن تمثّلت له في بعض الأحيان، فهو يراها زوجة شرعية له، ويرى نفسه رجلاً متقاعداً يعيش في بحبوحة من ريع الثروة التي تملكها زوجه.

كانت هذه الأحلام تسدد خطاه إلى الممرّ في مساء كل يوم ، بالرغم من شعور القلق الذي كان يداخله كلما ظللت رأسه قباب الدهليز ، ووطئت قدمه عتبة الدكان .

وانتهت مدة الحداد ، واستبدلت تريز الملابس السوداء بملابس زاهية ، فاكتشف لوران فجأة أنها تبدو صغيرة مغرية ، ولكن الاضطراب ما برح يختلجه ، فهي تضحك وتبكي بلا سبب ، وهي كما لاح له حيرى لا تعلم لها هدفاً ، ولا لتفكيرها غاية ، ولا لشعورها مستقراً .

وخاف ، خاف مما هو آت ! ولكن ، لا بد مما ليس منه بد . . يجب أن يرتبط بتريز ، فقد انقضى على موت كميل سنة وثلاثة أشهر . . . وهو لم يقتل إنساناً خلقه الله إلاّ ليظفر بزوجته . . فكيف يستطيع أن يهجرها؟ كيف يسوّغ خيانته المروعة إن هجرها !

إن رباطاً من الدم والروع يشدّه بتريز . . وإنّ تريز إن نأى عنها قد تسوّل لها نفسها الانتقام منه ، فتشي به ، وتقول : «عليّ وعلى أعدائي يا رب !» .

واغتنم ذات ليلة دقيقة غفلت فيها مدام راكان عنهما ، فقال بصوت مهموس :

«ما أتوق إلاّ إلى المبيت معك الليلة ، فهل أطرق بابك؟ هل آتي إليك بعد لجوء عمتك إلى مخدعها؟» .

فجحظت عيناها ، وأجابت وهي ترعد :

«كلاّ . . لا تفعل . . علينا أن ننتظر ، ففي التأني السلامة !» .

*

غادر لوران الدهليز وهو متوتر الأعصاب مكدود الجسم . .

فأنفاس تريز الحارة أيقظت شوقه وألهبت رغبته . فطفق يمشي قدماً إلى الميناء وهو ممسك قبعته بيده ، حتى يبرد الهواء نار جبهته المتأججة . . ثم عرج على غرفته ، فدهمه الفزع ، وخُيِّل إليه أنه سيلقى رجلاً مختبئاً في هذه الغرفة الأقرب إلى الكهف !

لم يكن قد أحسّ من قبل بهذا الاستخذاء ، فما رأى نفسه إلاّ وهو ينكص على عقبيه ، ويدلف إلى حانة قريبة فيشرب الخمر ويكثر من شربها .

وفكّر بتريز وهو يجرع خمره ، فأحن عليها ، لأنها لو رضيت به رفيقاً في غرفتها لما كبد ما كبده .

ولم يجد مناصاً في نهاية الأمر من الذهاب إلى حجرته ، فما كاد يدخل الباب الخارجي حتى انقبض صدره ، وأطبق عليه خوف قاتل . . وخُيِّل إليه أنه لن يعتم أن يرى القتلة منبثين في كل زاوية أو ركن ، بل أيقن أنهم لكثرتهم أشبه بحقل مزروع . .

وأصابه اللهاث ، وكأنه يقاسي شدة الموت ، ولم يجسر على التقدم إلى قدامه أو التأخر إلى ورائه ، وما أبطأ بعد أن استجمع قواه أن أغار على باب غرفته ، ففتحه بيد مرتجفة ، ودخل بسرعة وهو لا يكاد يصدق أنه نجا من ذلك الهول ، ومن هذه الأشباح !

وطفق يبحث ، فلمّا اطمأن إلى خلو الغرفة من الأشباح ، تنفس الصعداء ، وتهالك على فراشه وهو يبتسم في شداه وتعجّب !

وتحوّلت دفة أفكاره إلى كميل ، فلم يجرؤ على فتح عينيه خوفاً من أن يبصر ضحيته في ركن الغرفة . .

وشعر فجأة بالسرير يهتز ، فظن أن «كميل» مختبئ تحته ، وأنه يهزه هزاً عنيفاً ، حتى يقع قاتله إلى الأرض ، فينقض عليه وينشب

أظفاره وأسنانه في مخنقه . . . وخثرت نفسه ، ولهف قلبه ، وتولاه اللغوب !

ثم أدرك ، بعد هلع ، أن السرير لا يتحرك ، فأفرخ ما شبث بقلبه من روع ، وأطفأ الشمعة وحاول أن ينام .

وبينما هو يفقد شيئاً فشيئاً حواسه ، وتنطلق إرادته من زمامه ، طفقت أفكاره ترجع إليه وتنثال عليه . . وبدأت الرؤى تطوف به من جديد . فرأى تريز كما خلقها ربها ، رآها مضطجعة على الأريكة في شكل جذاب يستثير المشاعر . . ثم رأى «كميل» حيّاً يُرزق ، ورآه في معرض الجثث ، جثة . . . ثم أحس بالباب ينشق ويظهر من ورائه كميل الميت ـ كميل المنتفخ الجثة ـ كميل ذو اللون المحتقن ! ومدت الجثة يدها للوران بضحكة بشعة مشبعة حقداً وضغناً ، حتى بدت نواجذها ، وكانت سوداء فاحمة . . وحتى بان لسانها وكان داكناً مريعاً !

صرخ لوران وقد اقشعرّ بدنه وتندى جبينه بالعرق . . ثم سحب الغطاء فوق رأسه وحاول أن ينام . . . وأصابه استرخاء ، تبعه على الأثر فترات صحو .

أخيراً تبلج الفجر ، فتحامل القاتل المضنى على نفسه ، وارتدى ملابسه وهو يشعر بالتعب والوصب . . . وكان إبان ذلك يغمغم : «لو وافقت تريز على طلبي ، لو قبلت بي الليلة في مخدعها ، لما جرى ما جرى !» .

ومادت الأرض تحت قدميه ، وسمّر إليها بقيد من هلع ساعة أنبأه حسه بأن النهار سيعقبه ليل . . وسمع صوتاً بعيد الغور يقول . . سمع صوتاً من الأعماق يهتف . . سمع صوته المتحشرج يردّد :

«لا ندحة لي عن الزواج . . فمتى ضمّني مع تريز فراش واحد لا أفكر بكميل . . ومتى قبّلتني تريز في عنقي فارقني وجعي ، وزايلني ألمي . . ويحه . . لقد عضني !» .

*

في تلك الليلة تسلل إلى الدهليز ودخل الدكان ، فما كادت مدام راكان تراه حتى هرولت إليه تقول :

«لكم قاست تريز من تباريح الذكرى في الليل ! لكم سمعتها تصرخ وتهذي . . وهي تشعر الآن بوعكة ألم !» .

وكانت عينا تريز إبان ذلك تتطلعان إلى وجهه بنظرة غريبة جاحظة . . . ولا جرم أن الاثنين حدسا ما حدث لهما في الليل .

ولبثا في مكانيهما حتى العاشرة . . وران عليهما صمت ، وأي صمت . . . وكانت عيونهما تتكلم ، وكانت التيارات المختلفة يتجاذبها القلبان الوجفان المرتجفان في جنون . .

بل في جنون أشدّ من الجنون !!

- ٨ -

ألمّ بتريز أيضاً طيف زوجها القتيل في تلك الليلة ، فأخذ جلدها يقشعر ، وطفقت تفكر بكميل راقداً في جوارها . وكما جرى للوران جرى لها هي ، وكما صرخ صرخته المدوية ، صرخت هي ، وكما تراءى له أن زواجه كفيل بإعادة الأمور إلى نصابها ، تراءى لها !

وتوترت أعصاب القاتل وشريكته ، بل تحطّمت هذه الأعصاب ، وكان من جراء انهيارها أن تقارب القلبان ، أو بالأحرى ، كان هذا الانهيار حافزاً لهما على إحياء حبهما ، فرابطة الدم ـ الدم المهراق ـ والشهوة الحمراء الرعناء ، قد جمعتهما معاً ، وقرّرت مصيرهما .

الذي كان يحيل هدوءه قلقاً ، كان يحيل هدوءها قلقاً . . والذي كان يحز في قلبه ، كان يحز في قلبها . . وعلى ذلك أضحى قلباهما قلباً واحداً ، وجسداهما جسداً واحداً ، وروحاهما روحاً واحدة .

وهذه المقاسمة ـ مقاسمة النزع والعواطف والأهواء ، هذا التغلغل الجماعي في مقومات حياتيهما هو ولا غرو ظاهرة نفسانية تصيب أناساً تجمع بينهما أعصاب حطمها الدهر !

حاولا أن يجفوا ، أن يبتعدا . . . حاولا أن يحب الواحد منهما شخصاً آخر ، بيد أنه في ذلك اليوم الذي أظهرت لهما الحقائق أن لا غنى للواحد منهما عن الآخر ، في ذلك اليوم ، ضاقت حلقات السلسلة ، فأيقنا أنهما مرتبطان برباط لا انفصام له !

ومع أنهما كانا يتشوّفان إلى الزواج ، إلاّ أن الأخطار كانت تبرز لهما من الفكرة ، فيرتعدان فرقاً . . . فالزواج ولا جرم سيثير الشكوك

والريب . وأخيراً اتفقا أن يحثا مدام راكان نفسها وضيوف ليلة الخميس على مطالبتهما بالزواج . . فهما إن أوحيا إليهم بأن هذا واجب تجاه الراحل ، لن يعتموا أن يطالبوا ملحّين بتحقيقه !

ولم ينفك في أثناء ذلك شبح القتيل يظهر لهما في الليل ، فكان الأرق يحيل فراشيهما إلى وقود ، وكانت ألسنة النيران تندلع على الدوام من هذين الفراشين .

وما كان أثقل تلك الليالي على قلبيهما ، وما كان أشق تلك الليالي على مشاعرهما . . . وكان لوران يقضي هذه الليالي هائماً على وجهه ، خائفاً من غرفته ، فزعاً من الشبح المريع الذي أمسى شريكاً له في مرقده !

وهكذا أصبحت حياتهما كفاحاً مريراً بين الحياة والموت ، وصراعاً ناشباً بين العقل والخيال ، وقتالاً مستمراً بين القاتل والقتيل ، لا تخمد ناره ولا يفتر أواره !

وتضاعف وجلهما مع مرور الأيام ، حتى أصبحا مع الجنون على ميعاد . . . ولم يبق لهما سوى القبلات يختلسانها اختلاساً لتسرّي عنهما قليلاً ، ولتشعرهما بأنهما ما برحا يعيشان ويحسان ويحبّان !

وهكذا تضاعف وجدهما ، وتضاعفت رغبتهما في الزواج ، واشتعلت نيران الرغبة في صدريهما ، فخُيّل إليهما أنهما كانا على حق عندما أخمدا أنفاس كميل .

*

أخذت جهود الحبيبين القاتلين تثمر شيئاً فشيئاً . . فتجهم وجه تريز ، وحزنها ويأسها ، كل هذا أقلق بال مدام راكان ، فأصرّت على معرفة أسباب هذا الانهيار في الشعور والصحة . .

وأخذت تريز تلعب دور الأرملة الحزينة ، وطفقت تصف مللها وآلامها دون أن تدخل في التفاصيل . وعندما ضيقت عمتها عليها الخناق ، أجابتها بأنها في أحسن حال من الصحة ، ولكنها لا تعلم سبب ضجرها وضيق صدرها ، وتعقب على ذلك بالبكاء ، ثم تتأوه وتزفر ، ولا تلبث أن تبتسم ابتسامة مفعمة بالأسى . .

أطبق الخوف على قلب العجوز ، وخُيّل إليها أن تريز تذبل رويداً رويداً ، وأن حياتها أصبحت مهددة بالزوال ، ولهذا جعلت تبتهل إلى الله كل ليلة كي يجنبها السوء ، ويحفظها لها .

ولم تجد مندوحة عن طلب المشورة من صديقها القديم ميشو ، فخلت به ذات ليلة وأفضت إليه بمكنون صدرها .

وأجابها الشيخ وهو يهز رأسه : «أجل يا عزيزتي ، فتريز تتردى في هوة عميقة من اليأس ، وإني عليم بما يشقيها ويسلب عافيتها ، فهي ضجرة من الحياة ، ولا ينقذها من مللها ويأسها إلاّ الزواج» .

كانت صراحة الرجل طعنة نجلاء اخترقت سويداءها ، فقد خُيّل إليها أن الجرح الذي نزف في قلبها تضاعف نزفه .

وذرفت العجوز دموع الحزن ، فقد تراءى لها أن «كميل» مات مرة أخرى . . . ولكنها جعلت بالصبر والأناة تروض نفسها على تقبل الفكرة ، وفي الوقت نفسه تبحث عن القرين الكفؤ .

ولا مرية أن المرأة المسكينة كانت تفكّر بنفسها أكثر من تفكيرها بابنة أخيها ، فهي رغبت في تحقيق الزواج كي تضمن لنفسها السعادة ، غير أنها كانت تخشى أن يعمل الزوج الموعود على إفساد أيامها الأخيرة ، فمجرد تفكيرها بجلب رجل غريب إلى بيتها ، كان يملأ قلبها رعباً . . وهذا ما جعلها تحجم عن مكاشفة تريز بما وطدت عليه العزم !

اختلف دور لوران عن دور تريز ، فبينما تريز تمثّل دور المرأة الوالهة المتقلبة على نار الأسى واللوعة ، إذ بلوران يتخذ له صفة الصديق الحادب الرقيق ، فهو يبذل وسعه ليخدم المرأتين ، ويختص مدام راكان بعنايته ، ويمحضها حبه وحنانه . . وأصبح وجوده بعد قليل ضرورة ، وأصبح حكمه ملزماً !

انفرد يوماً بمدام راكان ، فقال لها بصوت راجف خائف : «إني خائف على تريز . . فهي مضعضعة مستضعفة !» .

واستعبرت عيناه وهو يستتلي : «أجل ، إني خائف عليها ، فقواها تنحط تباعاً !» .

استمعت العجوز إلى النذير وقلبها يتفطّر . . واستأنف هو : «لقد حطمها موت كميل العزيز ، فهي كما أرى تحتضر منذ سنتين ، ولن يدخل السلوان إلى قلبها شيء ، لن يبرئ أسقامها شيء . . أواه !» .

كانت هذه الأكاذيب والأخاديع تستمطر مدامع العجوز . . وكانت كلّما طرق سمعها اسم ابنها تستخرط باكية !

لحظ لوران التأثر الذي كان يخلفه في المرأة نطقه باسم كميل ، فشرع يعدد مناقبه ومآثره ، ويتحسّر على أفول نجمه اللامع . . وكلّما تلاقى ناظراه بناظري تريز كان جسده يهتز من الانفعال ، ويُخيل إليه أن ما قاله لا يتعدى الصواب ، وأن «كميل» كان مثال الشباب . .

وبينما كان ميشو وتريز في أحد أيام الخميس ينتظران صعود الآخرين إلى غرفة الاستقبال ، إذ بلوران يلج القاعة ، ويتقدّم من تريز فيسألها عن صحتها ، ثم يجلس في مكان قريب منها . فمال ميشو على مدام راكان وأشار إلى لوران وقال بصوت خافت :

«هذا هو الزوج المنشود . . لا تتأخّري ، قومي بالإجراءات

السريعة ، وسنساعدك إن اقتضى الأمر!» .

وتبسّم ميشو بسمة عريضة . . .

أمّا مدام راكان فقد شعرت بأن إشعاعاً من النور قد أضاء فجأة ، ورأت ، في لمحة خاطفة ، الميزات الجمة التي ستجنيها من هذا القران . . فمن شأنه ، إن تحقق ، أن يدعم الأواصر التي ربطتها وربطت تريز بصديق ابنها ـ بالرجل الطيب القلب ـ وهي بذلك لن تجلب إلى بيتها رجلاً غريباً ، بل ستجلب رجلاً من الأسرة ، فتضيف إلى شيخوختها مسرة حرمتها زمناً ، كما أن تريز لن تكون خائنة لعهد كميل ولذكراه إن تزوجت صديقه الحميم!

وقبل ذهاب لوران في تلك الليلة ، هرول ميشو إلى مدام راكان فأسرّ إليها شيئاً ، ثم تأبط ذراع لوران وخرج معه .

ولـمّا أفضى إليه بالفكرة المختمرة ، أجابه بأنه يحب أرملة صديقه كما يحب شقيقته ، ولن يراوده الفكر في أن يجعل منها زوجاً .

ولـمّا ألحّ عليه ميشو بالقبول مبيّناً الفضائل والمزايا ، جعل لوران يتظاهر شيئاً فشيئاً بميله إلى تحبيذ الرأي ، كما تظاهر بأنه إن وافق ، فهو لا يوافق إلاّ معتقداً بأن الفكرة هي مفاجأة من السماء أملاها الإخلاص والواجب .

في الوقت نفسه ، كانت مدام راكان مقبلة على تريز تحدثها حديث القلب ، وتقنعها بصواب الرأي . . ولما صادفت منها إعراضاً وازوراراً جعلت تنتحب . .

وعندما صاحت تريز أنها لن تضع أيّاً كان في موضع كميل من قلبها ، فاجأتها العجوز بأنها تحب لوران كما أحبت ابنها ، فطأطأت تريز رأسها وأجابتها بصوت مشرب ألماً :

«على رسلك يا عمتاه! فلوران بمثابة الأخ، أحبه كأخ لي! . .» .

وصمتت بغتة، ثم استتلت وهي تطرق برأسها وتمسح الدموع المنبجسة: «بيد أني سأنصاع لك وأستجيب لرغبتك وأحاول جهدي أن أحبه كزوج . . . لا يحدوني إلى ذلك إلاّ رغبتي الصادقة بإسعادك! لقد كان رجائي الوحيد أن أبكي «كميل» ما شاء الله أن أبكيه . . لقد كان أملي معقوداً على تمضية أيامي في حزن على حبيبي وزوجي، ولكن لا أجد مندوحة من تجفيف مدامعي ما دامت سعادتك تتوقف على الأمر!» .

في الليلة التالية تمت خطبة القاتلين ـ خطبة لوران وتريز!

في الليلة التالية صاتت عظام كميل!

في الليلة التالية قلب القدر صفحة جديدة . . . صفحة ملوثة!

*

حان اليوم الموعود، فتنبّه لوران وتريز من رقادهما وهما أسعد ما يكون حالاً، وطمأن كل منهما نفسه بأن آخر ليالي الروع قد ولّت، وسيظلهما سقف واحد . . وبذلك يدفعان معاً عن أنفسهما الخطر، فيقفان كتلة واحدة في وجه عدوهما اللدود ـ الغريق!

في ذلك الصباح جلست تريز في سريرها وثغرها مفتر عن بسمة عجيبة، وعيناها تقيسان السرير الكبير، وعقلها يتشوف الآتي ويكتنه ما وراءه . ولم تلبث بعد يسير أن غادرت الفراش وجعلت تتلفع بثيابها، وتنتظر قدوم سوزان التي عرضت خدماتها عليها، وأعربت عن رغبتها في مساعدتها في ذلك الصباح الأغر ـ صباح الزفاف!

وجلس لوران أيضاً في سريره واستغرق في الفكر ـ فها هو أخيراً يترك هذا الكهف المقيت ليحيا في جوار امرأة يحبها . . وكان الطقس

قارس البرد في تلك الساعة الباكرة، فجعل يرتعد ويرتعش، كما جعل يعلل النفس اللاغبة بقرب ساعة الفرج، ويمنيها بالدفء وصفاء العيش!

وكانت مدام راكان منذ أسبوع مضى دسّت في يده مبلغ خمسمائة فرنك عندما اكتشفت أنه صفر اليدين. وقد أخذ هو المبلغ شاكراً، فاشترى به ما يحتاج إليه من ثياب، كما اشترى الهدايا التقليدية لتريز!

اشتمل لوران ملابسه الجديدة بعد أن اغتسل وتضمّخ بالطيب..

وبغته ألم شديد في عنقه عندما حاول أن يشد ياقته، فتطلع إلى المرآة، فرأى، والرعب آخذ منه كل مأخذ، ما حاق بعضة كميل من الاحمرار.. فعض على شفتيه، واستحال لونه إلى لون الزعفران.

ولـمّا فرغ من ارتداء ملابسه غادر غرفته إلى الدهليز، وهو لا يجرؤ على تحريك رقبته حتى لا ينتابه الألم فيتذكر، وتروعه الذكرى.

ولكنه عرّج على مكان عمله، بعد أن اكترى عربة، فجاء بأحد زملائه، ثم ذهب معه إلى منزل ميشو فاصطحبه أيضاً.. ولما وصل الثلاثة إلى الدكان، التقوا شاهدي تريز، غريفي وأوليفيي، كما التقوا سوزان التي كانت ترمق العروس كما ترمق طفلة دميتها الصغيرة الجميلة.

وبالرغم من عجز مدام راكان عن المشي، فقد أصرت على مرافقة ولديها ـ كما دعتهما ـ إلى كل مكان يذهبان إليه.. وهكذا حملوها في عربة!

انتهت مراسيم القران، وركب العروسان عربتهما، وخُيِّل إليهما

أن الهوة التي كانت تفصل بينهما قد ضاقت أكثر فأكثر!

أمضى الجميع وقتاً ممتعاً في أحد الفنادق، حيث صعدوا وشربوا ولهوا إلى ساعة متأخرة من الليل، رجع بعدها العروسان والأم إلى بيتهم.. فصعدت العجوز إلى حجرتها وهي تغمغم بالدعاء، ودخل لوران وعروسه إلى مخدع الزوجية!

أوصد لوران الباب وراءه ، وأجال طرفه في أنحاء الحجرة . كانت النيران تؤجّ في الموقد فتعكس أضواءها الصفراء على السقف . . وكان الأرج يتضوّع في الغرفة فيفغم عبيره أنفي الشابين .

أرادت مدام راكان أن يبدو المكان أشبه بعش للمحبين ، وقد وشت السرير بقطع ملونة من القماش ، ووضعت على حفافه أشرطة حريرية ، كما وضعت في ركنين متقابلين أصيصين من الورد والزهر . . وكان جو الغرفة يوحي بالسلام ، ويضرم نار الغرام . . .

جلست تريز قرب الموقد وحدقت إلى ألسنة اللهب . كان لباسها أبيض ناصعاً ، وقد برز من أعلاه كتف كالعاج ، تهدلت عايه ضفيرة من شعر أسود كالليل . . وانحنى لوران فلثم الكتف العاري ، فأجفلت ، ورمته بنظرة غامضة تجلى فيها الرعب .

وتمالك جأشه ، فجلس قبالتها . ومضت الدقائق بطيئة ، ولم يدن أحدهما من الآخر . . فأين العاطفة المضطرمة؟ أين الحب المتأجج؟ إنهما وحيدان الآن ، إنهما في مأمن من أعين الرقباء ، وليس لهما إن أرادا إلاّ أن يمدّا أيديهما فيتعانقا ويتساقيا أكؤس الهوى !

بيد أنّ عبئاً ثقيلاً ضغط على قلبيهما ، فطفقا يتبادلان النظرات دون أن تنبثق منها تلك الرغبة . . وطفقا يتألمان من الصمت والبرود والجمود ـ إن أحلامهما المتقدة المشبوبة قد انتهت إلى الحقيقة المرة ـ لقد قتلا «كميل» وتزوجا . . . ولكن شفتي لوران ما كادتا تلمسان كتف تريز ، حتى حلّت بهما الرجفة ، وانتابتهما القشعريرة !

بحثا في قرارة قلبيهما عن جزء ضئيل من تلك العاطفة الجياشة

التي تلظت نيرانها في هذين القلبين ، إلاّ أنهما لم يجدا شيئاً . . . ما وجدا إلاّ الهمّ والغمّ والشقاء !

حاول لوران أن يتكلّم عن الحب ، وأن يستعيد ذكريات الأيام الخوالي ، فمال عليها وقال :

«هل تذكرين أمسياتنا معاً؟ هل تذكرين كيف كنت أسترق الخطى إلى هذا المخدع؟ إنّنا الآن حران ، وفي مكنتنا إشباع غرائزنا التي كبتها الحرمان . . . هل تذكرين تلك الليلة التي حلمت فيها أني قضيت بين أحضانك ليلة كاملة ، وتنبّهت من نومي على قبلاتك؟» .

انتفضت تريز كعصفور بلّله القطر ، واستدارت إلى لوران ونظرت إلى وجهه ، الذي عكست عليه النيران أضواءها الحمراء ، في وجل وذعر .

واستأنف الشاب حديثه بصوت متهدج : «وها نحن نظفر بأمنيتنا ، فنجتاز العقبات ونتخطى الحواجز ، ونفوز بضالتنا . . إن المستقبل لنا ، والسعادة ملك يميننا . . أليس كذلك؟ سعادة ملأى بالهوى ، مفعمة بالحب . إن «كميل» تلاشى من الوجود ، وليس لنا أن نخشى أذيته ، أو نرهب نقمته ولعنته !» .

انقطع عن الكلام ، وخُيّل إليه بغتة أنه يوشك على الاختناق . .

وتبادل القاتلان النظرات ، وانطلقت ذكرياتهما من عقالها ، وجلس شبح كميل في مكان الوسط بينهما ، فأحسا بقشعريرة باردة ، واشتما رائحة منبعثة من جيفة ! فجمدا كأنهما سمّرا . . وأخذت أعينهما تسرد في آن واحد قصة مروعة مخوفة !

وقفز لوران من مكانه كمن لدغته أفعى ، فخلع حذاءه ووضع عباءته على كاهله ، وعاد إلى الجلوس . . وتبادلا الكلام !

طرقا مواضيع تافهة بعيدة كل البعد عمّا فكّرا فيه منذ لحظات ، إلاّ أن أعينهما فضحت سريرة كل منهما ، فعندما تكلم لوران عن الزهر والنار ، أيقنت تريز أنه كان يذكرها بالصراع المرير الذي وقع في القارب . . وعندما أجابته تريز بالإيجاب أو النفي ، أدرك لوران أنها تقول بأنها تتذكر أو لا تتذكر بعض تفاصيل الجريمة !

وران الصمت ، إلاّ أن صمتهما كان هو الآخر ينطق بجريمتهما ! واختلطت أفكارهما ، واهتز كيانهما ، وهتف هاتف لم يسمعه إلاّ هما :

«لقد قتلتما «كميل» ، وها هي جثته مسجاة بينكما ، تجمّد دمكما وتثلج أطرافكما !» .

وارتفع الصوت ، وما برح يرتفع حتى كاد يصم آذانهما ! واهتزت الغرفة من الدويّ ، فجنّ جنونهما !

وانتصب لوران واقفاً ، ودنا من تريز وهو يقول : «قبّليني . . .» .

فأشاحت وجهها . . ولمحت وهي تفعل ذلك الجرح الملتهب في عنقه . .

وعاد يقول : «قبّليني ، قبّليني . . .» .

فهزت رأسها ، ثم وضعت أصبعها على الجرح وقالت : «ما هذا . .؟» .

فخُيل إليه أن أصبع تريز غاص في عنقه ، فوثب إلى الوراء وأنّ أنيناً مروّعاً ، ثم انقض عليها وأمسك رأسها بوحشية ، وأدنى فمها من عنقه ، فحاولت التخلص من قبضته ، وزفرت بصوت متحشرج ، ثم تهالكت على المقعد وهي تنشج بعد أن أرخى يديه !

وخمدت النيران في الموقد ، ورأى لوران شبح كميل في ركن من

الحجرة ، وكان وجهه أزرق منتفخاً ، فصاح : «انظري . . . انظري . . .» .

فتطلّعت تريز إلى المكان الذي أشار إليه ، وهمست كأنها تخاف أن يسمعها كميل :

«إنها الصورة التي رسمتها له أنت !» .

فقال : «أزيليها من مكانها ، أسرعي !» .

قالت : «كلاّ ، إني خائفة» .

قال : «أواه أزيليها يا تريز !» .

قالت : «كلاّ ، كلاّ . .» .

فقام من مكانه وحملها بين يديه ، ثم أرغمها على التقدم من الصورة وهو يخفي وجهه وراء رأسها . . ولكنها أفلتت منه ، فاضطر إلى التقدم وحده . . واستمرت العينان الجامدتان تنظران إليه بحقد ! فنكص على عقبيه وهو يقول :

«أنت على حق ، فلنتركها في مكانها ، ولنطلب إلى عمتك أن تأخذها إلى غرفتها عندما يطلع النهار» .

وعادا إلى الجلوس ، وسمعا فجأة ركزاً خفيفاً ، فتراءى لهما أن الضحية تحاول اقتحام الباب . . فاستولى عليهما هلع لا يعرفان له مثيلاً . . ثم تناهى إلى سمعهما مواء . . وبرز القط فرانسوا ، فقفز على المقعد ، وجعل ينظر بضراوة . . فزاغت عينا القاتل ، وأيقن أن روح كميل تقمّصت القط !

وتذكر بغتة ما قالته تريز عن القط ، فأيقن أن الحيوان محيط بكل شيء ، وأنه لا ندحة له عن قذفه من النافذة . . ولكنه لم يجد الشجاعة الكافية !

ومضت ساعات الليل بطيئة وانية ، ولاحت نجمة الصبح ، فتنفس الزوجان الصعداء ، والتفت لوران إلى صورة كميل وتبسّم ساخراً من نفسه ، ثم أزالها من مكانها دون أن يشعر بشيء من الخوف الذي شعر به منذ ساعات . .

وضحك بعد ذلك ضحكة جوفاء ، وقال :

«أنت الملومة على هذا القلق ، فاحذري يا تريز ، وإلاّ سقطنا تحت عجلة الجنون إن سمحت لهذا السخف أن يستحوذ علينا !» .

وقهقه ثانية دون أن يعلم السبب . .

*

هذه كانت ليلة عرسهما . .

وهكذا أمضياها . .

همّ وغمّ وقلق . .

فزع وهلع ورعب . .

شبح يصول ويجول . .

في خيالهما المريض !

كانت الليالي التالية أقسى من الليلة الأولى . . . وكان الشقاء من نصيبهما ، كان اليأس شعورهما المشترك ، أمّا الحب ، وأمّا الشهوة ، فأمران زالا وتلاشيا .

واكتشف لوران بعد حين أن تريز لم تكن أرملة ساعة بنى عليها ! اكتشف أنه اقترن بامرأة لها زوج - زوج غريق .

وقهقه كميل تشفّياً !

قهقه الغريق الميت حتى صخت قهقهته آذان قاتليه !

وصمم لوران أن يطرد الجثة من مضجعه !

في البدء تجنّب السرير ، ثم جعل ينطرح عليه بملابسه ، ثم حرص ألاّ يضع يده على تريز ، ثم قرّر في ساعة يأس أن يحتضن زوجه فيسحقها بين يديه بدلاً من تركها لشبح ضحيته لقمة سائغة شهية!

وكان يرجو من هذا أن يشفي نفسه من أرقها .. كان يرجو أن يكون لقبلاتها فعل الترياق في جسده المتسمم!

ولكن كل شيء حاوله ، وحاولته ، كان لا طائل تحته .. لقد تشبث الواحد بالآخر ، كما يتشبث الغريق بحبل النجاة ، ولكنهما أبصرا بالقتيل يتغلغل بينهما ، فانهارت البقية الباقية من عزيمتهما ، وتلاشت مقاومتهما ... فابتعدا ونأيا!

وقهقه كميل!

وجعل ينظر إليهما كلّما ناما على طرفي السرير وهو في الوسط ... جعل ينظر ويضحك ... وجعلت تريز ترتجف خوفاً ... فمن يدري قد ترى الجثة خور لوران فتطبق عليها بيديهما العظميتين!

حاولا محاربة الخوف بالخوف .. حاولا أن يتبادلا الحب المجنون ... ولكنهما فشلا ... أخفقا ...

وها هما يستمعان ، ولا ينفكان يستمعان إلى قهقهة كميل المدوية المجلجلة!

ـ ١٠ ـ

هكذا جعل الزوجان يعيشان حياة مزدوجة ـ حياة الظلام التي كانا يقضيانها في ظلام ، وحياة النور التي كانت تبدأ مع مطلع الشمس ، عندما يلاشي ضياء النهار أشباح الليل ـ وكان الاثنان لا يتذوقان الراحة والهدوء إلاّ متى افترق كل منهما عن الآخر ، فيذهب هو إلى عمله وتهبط هي إلى الدكان ـ ومع ذلك فأمسياتهما كانت هادئة وادعة طالما كانا يجلسان مع مدام راكان أو مع غيرها من الأصدقاء . . ولكنهما ينقلبان إلى مخبولين معتوهين متى اضطرا إلى انتجاع مخدع العذاب !

وما أكثر ما تحدثت العجوز عن فيرنون ، وما أكثر ما وضعت الخطط للمستقبل ، وكانت تتجنب ذكر اسم ابنها حرصاً على راحة الزوجين ، وتفادياً لما تجره عليهما هذه الذكرى من تباريح ، ولكنهما كانا دائماً في شغل عنها وعن حديثها بأفكارهما السوداء المربدة .

وآذن هذا الملاذ الأخير المتجسد في مدام راكان بزوال ، فقد زحف مرض الشلل على جسد العجوز ببطء وإصرار ، فأيقنا أن ذلك الوقت الذي تعجز فيه المرأة عن الحركة والكلام آت لا محالة . . . فصوتها أخذ يخفت باستمرار ، وحركتها تفتر دون انقطاع ، وحواسها تفقد قوتها شيئاً فشيئاً ، حتى استحالت مع الوقت إلى مجرد شيء !

واستبدّ الهلع بالزوجين وهما يشاهدان تفاقم الانحلال الذي طرأ على المرأة ، فبذلا وسعهما لإرجاء ذلك اليوم المخوف الذي تفقد العليلة فيه جميع أحاسيسها ، فما بخلا بمال ، وما تركا طبيباً يتوسّمان فيه الخير إلاّ واستدعياه ، فهما لا يشاءان أن تنقلب غرفة

الطعـام إلى مكان يشبـه مخدع النوم ـ إلى مكان ترتع فـيه الأرواح وتمرح الأشباح ، ويعيث الخوف في ذهنيهما فساداً !

وقـدّرت المرأة لهـمـا هذا الإخـلاص ، وأثر فـيـهـا حنان الزوجين الوفيّين ، فكافأتهما بتحويل ثروتها إليهما ، فهي لم تكن تتوقع بعد مقتل ابنها أن تحظى بما يعوضـها عن حنانه وإخلاصه ، فلمّا فاض عليها حدب تريز ولوران شكرت الله وأيقنت بأنها ستغمض عينيها الإغماضة الأخيرة في راحة وسلام .

واستمر الزوجان في تلك الأثناء يعيشان حياتهما المزدوجة ، فإذا ما جنهما الليل ، وانفردا في مخدعهما ، أخذا يصرخان من كبد حرى ، وأخذا يكافحان الجنون المستشري دون جدوى . . وإذا ما شرقت الشمس وأغرقت الدنيا بأشعتها ، أفرخ روعهما ، وانتعشت روحاهما ، وتنفسا الصعداء ممّا دهمهما في ليلتهما الليلاء !

وما شك أحد في أمرهما ، وما خطر على بال أحد ما يتعرّض له هذان الشخصان من الهلس واختلاط الفكر والتهيؤات العصبية ، بل إن مظهرهما ومخبرهما كانا يدخلان في روع أصدقائهما بأنهما مثال الزوجين السعيدين المتفقين الرافلين في حلة من حلل النعيم !

حتى إن صديقهما غريفي كان يدعوهما بـ«اليمامتين السعيدتين» ! وكلّما شاهد ما يرتسم في عيونهما من أمائر التعب ، كان يقول لهما مداعباً : «ومتى يا ترى نرى الوليد؟» .

وكان ميشو يقول : «سقياً لهما من محبين ! إنهما يؤثران الإخلاد إلى الصمت ، ولكنني أراهن بأنهما يتبادلان القبل بل يلتهمان الواحد الآخر كلما احتواهما عش غرامهما !» .

ولم يدر سواهما أن جثة كميل تقيم معهما . . لم يدر إلاّ هما أن

«كميل» كان ملازماً لمضجعهما . . لم يدر غيرهما أن وجهيهما ، الهادئين المستسلمين ، كانا ينقلبان إلى وجهين محتقنين ، يسودهما الخوف والفزع !

ما درى إنسان بذلك .

ما درى إلاّ هما ، وشبح كميل . . .

تصرّمت أربعة أشهر على زواج القاتلين ، أخذ لوران بعدها يفكر باجتناء الثمرات التي منّى نفسه بها ، ولم يكن ليتأخر عن الفرار من تريز وشبح كميل بعد زواجه مباشرة ، لو لم تلح لناظريه هذه الثمرات الناضجة التي حان قطافها . فانتظر على مضض وقاوم الخوف والأرق ، وصابر وصبر ، حتى لا يضطر ، إن طاوع مشاعره وهرب ، إلى الرجوع ثانية إلى حياة الفاقة والعوز . . فهو ببقائه يأمن غائلة الجوع ، ويستطيع متى شاء أن يترك عمله ويركن إلى الراحة . ولم يكن ليتأخر كذلك عن الفرار بثروة الأم لو لم تبادر هذه ، عملاً بنصيحة ميشو ، إلى التنازل عنها لتريز !

وأخبر المرأتين في إحدى الليالي أنه قدّم استقالته من عمله ، ولكي يلاشي القلق الذي بدا على وجه زوجته عقّب متداركاً بأنه سيستأجر له غرفة يزاول فيها فن الرسم . ثم طفق يصف لهما ما تسببه له وظيفته من الضيق ، وما يتيحه له الفن من الشهرة والكسب !

وعضّت تريز على شفتيها من القهر ، ولكنها كتمت ما داخل حسها . . فلمّا سألها لوران رأيها فيما أقدم عليه ، هزت رأسها ثم قالت : «إنك بذلك تفقد دخلك الوحيد فتصبح عالة علينا» .

فحدجها لوران بنظرة ينبعث منها الشرر ، وكاد يرد عليها ، إلا أن مدام راكان أعربت عن رضاها وموافقتها ، وقالت بأن رغبته

محترمة ، وأنه يجب أن تتهيأ له فرص إظهار موهبته العظيمة وفنه الرفيع . .

ولا جرم أن المرأة العجوز قد أفسدت لوران كما أفسدت «كميل» من قبله . . فهي تدلّله وتلاطفه وتلبي جميع طلباته ، وتوافق دون أي تردد على جميع آرائه واقتراحاته .

وهكذا قرّ الرأي على أن يكتري الفنان غرفة لعمله ، ويخصص له مبلغ من المال مقداره مائة فرنك لنفقاته ، شريطة أن تتدبر الأسرة أمورها بطريقة تبقى معها الثروة الأصلية سليمة !

وما كذب لوران خبراً ، فقد اكترى غرفة صغيرة جهزها بأدوات الرسم ، ونقل إليها مائدة وبعض المقاعد . ثمّ ودع زملاءه وباشر عمله الجديد ، ولكنه لم يفعل شيئاً سوى الذهاب إلى غرفته ، وتزجية الوقت في التدخين والاستلقاء على الأريكة التي اشتراها لهذه الغاية ، وكان عندما تأزف ساعة الغداء يذهب إلى البيت فيطعم بسرعة ويرجع ثانية ليقضي عدة ساعات أخرى في راحة وهدوء . ولـمّا جاءت زوجته يوماً إلى غرفته أبى أن يفتح لها الباب ، وزعم فيما بعد أنه كان غائباً ساعة أتت . . ولكنه امتنع عن استقبالها حتى لا تأتي بكميل إلى هذا المكان الأمين !

ولكنّ الكسل أضجره في نهاية الأمر ، فبادر إلى رسم رأس رجل ، وجعل يعمل ساعة أو ساعتين ثم يغادر المكان فيتسكع في الشوارع . . وانتهى من عمله الأول ، فأقبل على عمل ثان ثم ثالث ، وبينما هو يتجوّل في طرقات باريس في أحد الأيام التقى صديقاً له كان يتخذ الرسم حرفة ، فألح عليه أن يأتي إلى مرسمه . ولبّى الصديق دعوته ، وما كاد يرى الصورة التي رسمها حتى امتلأ عجَباً ،

فعهده بصديقه تافه الفن لا يمت ذوقه إلى التصوير بسبب ، ولكنه رأى نفسه الآن إزاء رجل تدل آثاره على طول باع ، فخطوطه خطوط معلم ، وضربات ريشته ضربات فنان .

ونظر الصديق إلى لوران فرأى عجباً ، رأى أمامه رجلاً رقّ جلده ونحل وجهه وبان القلق والانفعال في أساريره وحركاته . . فأيقن أن ثمة أمراً جللاً قد وقع له ، فغيّره . . . وأن ظاهرة خارقة قد أصابته فأحالته إلى فنان موهوب تبشّر أعماله بمستقبل زاهر باهر في عالم التصوير . .

ولا غرو أن جريمته التي قاسى من جرائها الويل أرهفت حسه ، وصقلت شعوره ، وفتحت له آفاقاً واسعة من الخيال . . ولا جرم أن هذا الانقلاب العظيم ، الذي استحوذ على نواحي حياته ، كان السبب الأول والأخير فيما اكتسبه من مقدرة وكفاءة وعلو كعب !

وقبل أن يغادر الصديق المكان قال للوران : «لي ملاحظة واحدة يا صديقي على عملك الذي قمت به ، فالوجوه في جميع الرسوم متشابهة متقاربة ، كأنك ترسم وجهاً واحداً وحسب ، وتغيّر فيه قليلاً في كل صورة . .» .

وتفصّد العرق البارد من جبين لوران بعد ذهاب صديقه ، فجعل يتأمل الصور المختلفة ، وما عتم أن قال بصوت متحشرج : «إنه على حق ، فهي متماثلة متشابهة . . . وكأنها مقتبسة من وجه كميل وملامحه !» .

وأمسك بالريشة وجعل يصوّر ، فكانت الصور التي رسمها تنطق بملامح كميل ، فألقى بها من يده بعنف ، وقد أيقن أن القدر يسيّر يده ، وأن يده تعصي إرادته فتصور ما تأباه نفسه وتعافه روحه . .

ثم أقبل ثانية على ريشته يرسم بها خطوطاً لوجوه الحيوانات ، فكانت القطط التي مثّل تقاطيعها والكلاب التي أظهر ملامحها تشبه «كميل» في بسمته وتكشيرته ، وفي لفتته ونظراته !

جن جنونه وجعل يمزق القماش والورق ويحطم ما تصل إليه يده من أدوات ، وآلى على نفسه أن يهجر عمله ، فهو لن يقوى على مناوأة ما تمليه عليه هذه القوة الخارقة . . إنه عبد مطيع ويده أسيرة محنته . . وكميل واقف له بالمرصاد . . يعبث به ويسخره في التنكيل بذاته !

*

كشّر المرض الوبيل عن أنيابه ، وتغلغل الشلل الذي استمر يزحف شهوراً عدة إلى ضلوع مدام راكان وإلى فمها . . فبينما هي في إحدى الليالي تتكلم إلى ولديها العزيزين انقطع صوتها بغتة ، فحاولت أن تصيح وتصرخ ، ولكن حشرجة كحشرجة الموت أفلتت من حلقها . . فقد استحال لسانها إلى حجر ، ويبست يداها وساقاها ، وأصبحت عاجزة عن الحركة ، عاجزة عن النطق ـ أصبحت بكماء مشلولة !

قفز لوران وتريز من مكانيهما وهما أشد ما يكونان خوفاً ! وجعلا يتكلّمان معها ويحاولان ، ولكنها نظرت إليهما في استسلام ورضوخ ، فأيقنا أن المرأة لم تعد سوى جثة ينبض فيها طرف من الحياة ، وأنها تراهما وتعي كلامهما ، ولكنها لا تستطيع أن تخاطبهما . . فلهفت أنفسهما وتولاهما ذعر وأسى . . . لأنهما فقدا آخر مرجع لهما ، فقدا الراحة التي كانا يشعران بها معها كل ليلة قبل أن يتجسّد لهما شبح كميل !

وغدت لياليهما بؤساً وضنى ، فالمرأة المتهالكة في مقعدها لا تستطيع أن تشغلهما بحديثها ، وجمودها الدائم لا يبعد عنهما الشبح القاتل . . . وهكذا تضاعف الوصب الذي كان يجثم على صدريهما كالكابوس !

لكن عينيها الميتتين كانتا تدفئان قلبيهما بعض الشيء ، وحركة بؤبؤيهما كانت تبعث قليلاً من الطمأنينة إلى مشاعرهما . . بيد أنها كانت تبدو كلما أغمضت هاتين العينين كأنها جثة بلا روح ، وكان في هذا ثالثة الأثافي لهما ، كان فيه الانهيار العصبي ، والقتل البطيء ، وعذاب السعير الذي تفتّحت أبوابه على مصاريعها كلّما جمعهما الليل ونفخت الروح في الأشباح !

لهذا كانا لا يدعانها تغمض لها عين ، كانا إذا ما أخذها الوسن يهرعان إليها فيهزانها من كتفيها هزآً عنيفاً حتى تضطر إلى تمضية ساعة أخرى معهما . . وكانت المسكينة تقاوم النوم ما وسعها الأمر ، وكان هذا الحب الذي تنم عنه عواطفهما يضفي عليها ألواناً من السعادة والسرور !

أمّا في النهار فقد كان لوران يبارح الدار ، وتريز تنزل إلى الدكان ، وتبقى الأم وحيدة ، لا يؤنس وحدتها أحد غير تريز التي كانت تصعد إليها بين الوقت والآخر ، فتقضي لها حاجاتها وتعود أدراجها بعد قليل . ولم تنقطع في أثناء ذلك اجتماعات ليلة الخميس ، وكانت عبارات المديح والإطراء لتريز وزوجها تنهال على مسامع الأم ، فتخفض المرأة عينيها وتتدحرج على خدها دمعة تعبر عن شكرها العميق لهذين المخلصين !

وأعجب ما كان يجري في خلال تلك الاجتماعات إقبال

الأصدقاء على العجوز المفلوجة، يحدثونها ويجيبون أنفسهم، كما يفعل امرؤ مع دمية صماء لا حياة تختلجها.. وهنا ميشو وغريفي أنفسهما على تصرفهما، واعتبرا عملهما هذا أريحية يشكران عليها..

غريفي تبجح بأنه يستطيع متى نظر إلى عيني القعيدة الجامدة الحركة أن يفهم ما تطلبه نفسها، فإذا ما جدّ الجد وشاءت المرأة أن تطلب أمراً ما، كان هو آخر من يعلم... ومع ذلك أصر على الزعم بأنه أقدر من قرأ الأفكار واستخرج الدفائن والأسرار!

ولولا مهارة تريز وفطنتها، لعانت المرأة العاثرة الأمرّين. فتريز كانت تدرك في لمحة خاطفة ما يجول في ذهن عمتها، فتسارع إلى تلبيته.. وتريز كانت تقرأ ما يعتمل في نفس هذه الميتة الحية كأنها تقرأ في كتاب.. فالمرأة الفاقدة الحركة لم تزل محتفظة بإدراكها وذكائها.. وعقلها السليم كان أشبه بعقل إنسان يُدفن حيّاً على عمق قدمين أو ثلاث، ليستفيق من هجعته، فيصيح ويصرخ ويكافح.. ويمر فوقه الناس فلا يسمعون صوته المريع، بل يمرون مرّ الكرام، وكأنهم يمرون على رغام، أو على حطام!

وكلما نظر لوران إلى وجه الميتة الحية التي أطبقت شفتيها على سر، وانطوى محياها على شعور خفي، وشعت الحياة من مقلتيها فقط، كلّما قال لنفسه: «من يعلم؟ من يعلم بماذا تفكر؟ لا بد أن هناك مأساة قاسية تعتمل في هذا الجسد الميت!».

ولم يكن لوران مصيباً في حدسه، فمدام راكان سعيدة.. سعيدة بعناية ولديها العزيزين... فقد طالما حلمت بمثل هذه النهاية ـ أن تموت ببطء وعن كثب من أحبائها.. ولا جرم أنها كانت ترغب في

الكلام لكي تعرب عن شكرها لأصدقائها الذين يتمنون لها سلام القلب وراحة البال . بيد أنها أذعنت للقدر ، فحياتها الهادئة الهانئة ، وطبيعتها النبيلة ، صبراها على بلواها . لقد انقلبت ثانية إلى طفل ، وجعلت تقضي أيامها دون تذمّر ، فتحدق إلى الفضاء ، وتفكّر في القضاء ، وتستعيد ذكريات الماضي الحلوة والمرة . .

وما هو إلاّ شهر حتى ارتاضت على حياة الجمود ، وارتاحت إلى العيش في صمت وهمود ، وكان ملاذها في خالقها . . .

زاد جمال عينيها ، وانبعث منهما بريق صاف متألق ـ وأصبحت هاتان العينان البراقتان بمثابة لسانها وبنانها والمعبر عن فكرها . . . كانت عيناها عيني أم رؤوم ، وكان هذا الإنسان المقيم في عينيها ، يتحدث ويشكر ويطلب الخير والسعادة لكل إنسان . . . كان هذا الإنسان يبتسم ، وكانت بسمته اللطف المجسم والإيمان الصريح . . .

واعتقدت هذه التاعسة أن نهايتها أصبحت قريبة ، وأنها لن تمتحن بمصائب أخرى قبل انعتاق روحها ، ولكنها كانت مخطئة ، فقد جرى في إحدى الليالي ما لم يكن في الحسبان ، فاستعر نار شقائها من جديد .

فوجودها بين الزوجين لم يعد يخفّف عنهما أو يطرد من مخيلتهما شبح كميل ، فهما كلما غرب عن بالهما وجودها ، استحوذ عليهما الجنون وتراءى لهما شبح كميل . . .

في مثل هذه الأوقات كانا يتلفظان بكلمات حرصا من قبل على كتمها ، وبعبارات كانا في السابق يرتعدان لمجرد ظنهما بأن مدام راكان قد سمعتها . . وأدركت العجوز فجأة ما جرى ، ورأت كل شيء ، وحملقت بعينيها ، واختلجت شفتاها المطبقتان . . وانقلب

الإنسان الطاهر الباسم القابع في عينيها ، إلى شيطان ينفث الحقد ، ويصب النقمة ، ويود لو أحرق الناس جميعاً !

وما قاسى إنسان مثل ما قاسته هذه التاعسة ، فالحقيقة المرة المروعة اخترقت جسدها كالصاعقة المدمرة . . ولو كان في مكنتها رفع صوتها ولعن هذين القاتلين ، لقلّت آلامها ونقص عذابها ، ولكنها أرغمتها على إبقاء هذه القوة المتفجرة في أعماقها لتضيف إلى حزنها حزناً وإلى موجدتها موجدة .

خُيِّل إليها أن القاتلين ذكرا على مسمع منها ما جنته أيديهما ليتمتعا بعذابها وليلهوا بمصابها . . واصطرع الأسى مع الغيظ في قلبها ، وبذلت جهدها ، بل بذلت جهداً يفوق الطاقة البشرية حتى تستطيع أن تلقي عنها هذه القيود وتحرر فمها من كمامته ، فتشق بذلك قناة يسيل فيها فيض يأسها ، ولكن جهودها باءت بالفشل ، وشعرت بلسانها يلتصق بارداً بحلقها . . وأحست أنها موءودة ، وأن اللحادين يهيلون فوقها التراب والحجارة !

وزلزل قلبها وتبعثرت حياتها تلقاءها ، فأصبحت ركاماً وحطاماً ، وأبصرت مآثرها وطيبتها ونبلها وإخلاصها ذرات مفتتة لا قيمة لها !

أهاب بها صوت بأن الحياة أكذوبة . . بل جريمة . . فالقناع الذي لم تبصر وراءه إلاّ المحبة والصداقة ، تهدل الآن وتمزق ، لتبصر الدم والنقمة والعار . . وما منعها إلاّ بكمها عن الكفر بالحياة ، فقد خدعتها طيبتها ، وموهت عليها الحقيقة ، ولم تطلعها على شؤون الإنسان ، أو تدعها تموت في سذاجتها ووداعتها وعماها ، والآن لم يبق لها إلاّ أن تموت وهي تفكر بالحب وتكفر بالصداقة وتكفر بالإخلاص . . فليس في الوجود إلاّ القتل والحقد . .

ماذا ! أقتلاه وأخفيا جريمتهما وراء ستار من النفاق ، أو بالأحرى ، وراء ستار من الفجور؟ إنها تسقط ولا تني تسقط . . إنها تسقط في هوة سحيقة . . إنها تسقط في الجحيم . . وقالت لنفسها : «وسأستمر في السقوط حتى أتحطم وأصير كالبلهاء !» .

وجعل رأسها يدور على محور فارغ ، وطنّت أذناها طنيناً صاخباً . . . تريز التي كفلتها وحدبت عليها وتعهدتها بعين العطف والمحبة . . ولوران الذي محضته الحب كما تمحض أم رؤوم ابنها ، هما القاتلان . . .

ودار رأسها على محوره ، وعادتها ذكرى حوادث طفيفة أشكلت عليها في الماضي ، وتكشّف لها اللثام الآن عن أسبابها ، وطفقت تردّد فيما بينها وبين نفسها : «إن ولدي قتل ولدي !» . ولم تجد لها وسيلة أخرى تعرب بوساطتها عن قنوطها .

وأيقنت بعد قليل بأن روحاً أخرى تقمصت جسدها ، روحاً جبلت على الحقد . . ولكنها أدركت ، وقلبها يتمزق ، أنها عاجزة عن الحركة ، لا تستطيع الانقضاض على المجرمين ، فاستسلمت لشجنها ، وأخذت الدموع تسيل من عينيها بغزارة وتتدحرج على خديها . . . كانت عيناها تبكيان ، أما وجهها الذي جمده المرض فلم يتغير فيه شيء !

*

وطغى على تريز شعور هائل من الشفقة الخائفة ، فقالت تخاطب لوران : «يجب أن نحملها إلى فراشها» .

فامتثل لوران لزوجته ، وعندما أحاط الأم بيديه ، ودّت المسكينة لو وافتها القوة لتمنعه من لمسها ، فالله لن يسمح له بحملها ، والسماء

تنطلق حممها عليه لتحرقه بها! ولكن القوة لم ترجع إليها، والسماء لم تصعقه، وهو حملها بين ذراعيه القويتين.. فحدجته بنظرة تقدح بالشرر، فقال بصوت أجش:

«انظري إليّ.. انظري ما وسعك النظر، فلن تأكلني عيناك!».

ورمى بالجسد المتشنّج على السرير، فأغمي على المشلولة.. وكان آخر فكر ومض في رأسها مزيجاً من الرعب والاشمئزاز والمقت، فسيحملها لوران كل صباح وكل مساء بيديه الملوثتين بدماء ابنها.. بجسده الغارق في رائحة الجريمة..

- ١١ -

هذان اللذان لا ينفكان يراقبان ضوء الفجر ، والليل حالك دامس ، ليخرجا من خضم انغمسا فيه في الدواهي .

هذان اللذان يبرز لهما من دوارس الرموس شبح ضحيتهما كلّما جنهما الليل ، ليذكرهما بالإثم الذي اقترفاه .

هذان اللذان أظلم دهرهما ، ونأت عنهما آمالهما ، ولم يعد يرد عنهما الحمام إلاّ بقية من رجاء يجيش به صدراهما الدنسان .

هذان اللذان نمت شجرة شرهما في قرارتهما ، حتى إذا بسقت أفنانها تغلغل الشر إلى جوارحهما .

ما جاء يوم الخميس حتى أظهرا مزيداً من الفزع ، فهل يا ترى يتضح المخفي للضيوف إن أجازا لمدام راكان أن تجالسهم؟

إلاّ أن لوران بدد مخاوف زوجته ، زاعماً بأن المرأة التي لا تتكلم ولا تحرك ساكناً أعجز من أن تعرب لأي كان عمّا يعتمل في صدرها .

فأجابته تريز بخوف : «لعلها تجد وسيلة تبيّن فيها ما تريد ، فأنا منذ تلك الليلة لا أفتأ أقرأ الويل في عينيها» .

قال : «لا تخافي ، فالطبيب أخبرني بأنها ميؤوس منها ، ومهما يكن الأمر فيكفينا همنا وما نحن فيه» !

وكانت مدام راكان تجلس في مكانها ساعة قدوم الضيوف في تلك الليلة ، وظهر لوران وتريز بمظهر ينم عن السرور والهناء .

وتجاذب الجميع أطراف الحديث ، وسألوا العجوز عن صحتها ، وما عتموا أن انهمكوا في اللعب .

وكانت مدام راكان تنتظر بشوق وتلهف هذه الفرصة ، كانت مزمعة على بذل جهدها للثأر لدم ابنها . . فلمّا باشر القوم لعبتهم ، استجمعت قواها واستطاعت بعد جهد خارق أن تحرك يدها اليمنى .

وذعرت تريز ، فنظرت إلى اليد المتحركة بعينين جاحظتين !

وصاح غريفي : «إنها تريد أن تشركنا في اللعب . . أواه ، إنها تريد ذلك !» .

فاكفهرّ وجه المشلولة وجعلت تحرك أصبعها ببطء على غطاء المائدة .

فتتبعوا حركتها ، وهتف أوليفيي بعد قليل : «إنها تكتب اسمك يا تريز ، استمري يا سيدي ، خطي ما تريدين» .

اصطكت أسنان القاتلين هلعاً ، وكاد يغشى على تريز . . وكاد لوران يفقد رشده . . ظناً أن سرهما سينكشف الآن !

وكتبت مدام راكان كلمتين ، ثم كتبت كلمة ثالثة . . وقرأ ميشو بصوت عال : «تريز ولوران هما . . .» .

ونظرت المرأة إلى القاتلين نظرة تفيض كرهاً ، وحاولت أن تكتب كلمة رابعة ، ولكن يدها سقطت فجأة من مكانها . . وانزاح الضاغوط عن صدري لوران وتريز . . . لقد أخفقت مدام راكان في محاولتها الأولى والأخيرة !

وأغمضت المرأة الخائرة عينيها ، وتضاعف همّها . . . لقد فشلت ، فلتمت . . لتمت . . .

وتمنت أن تنطفئ الشمس .

أن تخبو حمرتها .

أن يحيق بالمسكونة ظلام . . وبرد . . وفناء . . .

*

شهران مضيا ، وتلتهما أيام أحلك من الليل . . والقاتلان يترمضان على النار التي انبثقت شرارتها من اتحادهما برباط الزوجية !

نزت البغضاء من قلبيهما ، اختلطت رويداً رويداً بدمائهما ، وكانت كراهيتهما فظيعة شنيعة تكاد تنفجر عنفاً وشراسة . كانا يعلمان حق العلم أن الواحد منهما عبء على الآخر . . كانا يعلمان أن نجاتهما هي في افتراقهما ، ولكنهما لم يجدا السبيل إلى الانفصال وبقيا متلازمين على كره ، وبقيت نفس كل منهما تتمنى لو ظفرت بالقوة لتنكل بالآخر وتسومه الخسف !

والسحابة القاتمة التي ظلّلت رأسيهما كانت مشبعة بالغضب على جريمة اقترفاها فحطمت حياتهما وقوضت صروح آمالهما ، فهما لا يشكان بأن الشر استشرى ، وأنهما سيتألمان ويتعذبان حتى الموت !

لم يشاءا أن يعترفا أن زواجهما كان عقابهما . . وصمّا آذانهما عن سماع الصوت الخفي الذي طالما جاهر بالحقيقة ، والذي كثر ما قص عليهما قصة حياتهما .

لقد تذكّرا الماضي ، فأدركا أن خيبة أملهما ، في نيل وطرهما من الحياة ، هي السبب في هذا الشقاء العارم . فلو تسنى لهما احتضان الواحد الآخر وتقبيل كل منهما للآخر ، والعيش في سلام ومحبة ، لما ندما على ما فرط منهما ، بيد أن جسديهما تمرّدا على الزواج ، فتساءلا بذعر عما يفضي إليه هذا التمرّد . .

وكافحا كفاح الجبابرة ، ولكنهما لم يتحرّرا من القيود . . فأيقنا ، والألم يحز في قلبيهما ، أنهما لن ينجوا وأنهما لن يجدا مناصاً من قضاء بقية حياتهما تحت سقف واحد .

واستفحل الخلاف بينهما ، وتراءى وكأن القاتلين طفقا يتحيّنان

الفرص لصب جام غضبهما الواحد على شريكه، فتجسس لوران على تريز وتجسست تريز على لوران، ونكأ لوران جرحاً في يد تريز، ونكأت تريز جرحاً في عنق لوران.. وصرخ الاثنان من الألم، وانهالت الصفعات وانثالت اللكمات.

إن وجودهما أضحى ثقلاً تنوء تحته روحاهما، وإن «كميل» أصبح صديق الطرفين وعشيق الحبيبين العدوين.. فكلاهما يكيل التهم للآخر، وكلاهما ينحي باللائمة على الآخر، وكلاهما يناجي روح كميل ويستعديها على الآخر!

وحدّث ولا حرج عن شتائمهما المقذعة، فهما ينهيان صراعهما بباقة ضخمة من السباب، ثم يخلدان فجأة إلى الصمت.. وهما يشعران بالتعب وانحطاط القوة ـ لقد أصبح نزاعهما بمثابة المخدر يتناولانه كلّما جفاهما النوم!

أصغت مدام راكان إليهما، وحدّدت طرفها فيهما، وأخذت تحيط شيئاً فشيئاً بدقائق الجريمة، كما أخذت تتغلغل في أعماق هذين القاتلين اللذين دعتهما بولديها ـ فقصة ابنها كانت تتلى كالنشرة كل يوم، وفي كل يوم كانت القصة ذاتها تزيد بشاعة ودمامة!

وبينما المشلولة تتوغل بفكرها في الحمأة الملطخة بالدم، طفقت تطلب الرحمة، وتصلي إلى الله أن يغفر لها زلتها.. لقد خُيِّل إليها أنها وصلت إلى أقصى درجات اليأس، ولكنها اعتقدت بأنها ستستمر رغم هذا في الانحطاط.. وشعرت بأنها أصبحت تتيه في حلم مرعب لا نهاية له!

لقد كان للاعتراف الأول وقع أليم عليها، ولكن ألمها تضاعف تحت وطأة هذه الصدمات المتوالية التي كانت تصيبها كل يوم..

فالقصة تعاد على مسامعها ، والتفاصيل تسرد بإسهاب ، والطنين المروّع يزداد عنفاً وشدة .

وثالثة الأثافي كان الندم الذي استولى أحياناً على تريز ، فهي تستخرط في البكاء ، وتضرع إلى لوران أن يصمت عن الكلام ، مع أنهما منذ لحظات كانا بكلامهما يقتلان «كميل» مرة بعد مرة بعد مرة !

واتفق ، وهما يتناولان الطعام في عشية يوم خانق شديد الحر ، أن احتج لوران على الماء الذي لم تبرده تريز .

فقاطعته متأجمة : «لم أوفق في العثور على الثلج» .

قال : «لن أشرب إذاً» .

قالت : «ولم لا؟» .

قال : «لأنها رديئة ، حتى لكأنها مياه مجلوبة من النهر !» .

فحملقت فيه تريز مشدوهة وردّدت قوله : «من النهر !» ، ثم خنقتها العبرات .

فصاح بها لوران وقد فطن إلى ما أجج كربها : «ماذا دهاك؟ ولم تبكين !» .

«إني أبكي لأني . . أواه ! أنت تعرف السبب . . رباه ! ماذا دعاك إلى قتله يا لوران؟» .

«أنت تكذبين . . اعترفي بأنك تأفكين . . فإنني رميت به في السين ، ولكنك كنت الحافز !» .

«أنا . . أنا . .» .

«أجل ، أنت . . فلا تضطريني إلى إرغامك على الاعتراف !» .

«ولكنني لم أمدد نحوه يداً ، لم أدفعه !» .

«أنت فعلت أكثر من هذا! أنت تظهرين الدهش، أو تتعمدين نسيان التفاصيل.. فانتظري قليلاً وسأجلو ذاكرتك!».

ومال على المرأة الصغيرة، وصاح والشرر ينبعث من عينيه: «لقد كنت على الضفة، ألا تذكرين؟ فوافقت عن طيبة خاطر وجلبت القارب، ألا تتذكرين؟!».

«هذا كذب، هذا تخرص، فأنا لم أرغب قط في قتله، وما المجرم إلاّ أنت!».

رفع يده ليصفعها، ولكنه تركها تسقط إلى جانبه، وما عتم أن شرع يذرع الغرفة جيئة وذهاباً، وهو يقول بصوت مخنوق: «تباً لها.. إنها تقودني إلى الجنون.. ألم تأت إلى غرفتي كالمومس؟ ألم تسلبني رشدي بغنجها ودلالها حتى أجاريها!».

فصاحت بصوت متهدج مبحوح: «أنت هو القاتل، فلا تحاول التنصّل!».

«لا بل أنت.. أنت أيتها الزانية! أيتها الداعر التي وهبتني نفسها منذ اللحظة الأولى.. فاعترفي بالأمر الواقع، اعترفي بأنك غرّرت بي واتخذت مني آلة تنفذ مآربك!».

وكانت المشلولة تصغي إلى كلامهما وتراقب حركاتهما، وترى والفرح يطغى على قلبها إلى أي درك سقط المجرمان!

إن «كميل» لهما بالمرصاد.. إنه ينتقم على دفعات.. إنه يميتهما كل يوم، ميتة في النهار وألف ميتة في الليل... فيلفرخ روعك يا أم كميل.. لتغتبط نفسك أيتها الثاكلة، فعين الله لا تغفل!

*

تغيّر الطور، وبدأت تريز عهداً جديداً، فقد جعلت تبكي الغريق

كلما جلس لوران بجانبها ، فأعصابها المنهارة أفسحت في المجال لفيض من الحزن . . . فبعد كفاحها المرير ضد شبح القتيل ، وبعد قضائها بضعة شهور وهي تكبت الثورة المعتملة في صدرها ، شعرت بغتة بأنها لم تعد قادرة على الصمود ، فاستسلمت ، وتحولت إلى طفلة لا إرادة لها ـ طفلة تروعها أتفه الأمور ، ويستمطر مدامعها ما لا يستحق البكاء . . .

خُيِّل إليها للوهلة الأولى أن الضحية الذي لم يرهبه الغضب ستليِّن قلبه الدموع . . وكانت بذلك أشبه بالآبق الذي يبغي سيده أن ينزل به القصاص ، أو بالملحد الذي يظن أنه يخدع الله بتملقه وريائه !

وأمست المشلولة ضرورة من ضرورات حياتها ، فهي تستعملها كأنها مجثى للصلاة ، أو كرسي للاعتراف . فكلما شعرت برغبتها في البكاء ، جثت قريباً من المرأة البائسة ، فبكت وتضرعت وضربت رأسها بالأرض حتى تخور قواها .

وكانت تحدثها قائلة : «إني تاعسة لا أستحق الرحمة ، لقد خدعتك وسلبتك ولدك ، ولن تغفري لي زلتي . . . ومع ذلك ، لو استطعت أن تقرأي ما في قلبي ، لو استطعت أن تري ألمي وندمي ، لو استطعت أن تقدري مبلغ عذابي ، لأشفقت عليّ . . أواه . . لا ، لا . . ارحميني ، أشفقي عليّ !» .

وأمضت الساعات الطوال وهي تهذي بهذا الكلام ، فتنتقل من اليأس إلى الرجاء ، وتدين نفسها وتصفح عن نفسها . . ولم يخطر لها على بال بأن عبراتها وتبكيت ضميرها وندامتها كانت تخضع عمتها إلى كرب ممض . . أما الحقيقة التي لا مراء فيها ، فهي أنه لو حاول شخص أن يبتدع طريقة شيطانية للتنكيل بمدام راكان فإنه لن

يجد أفضل من هذه التمثيلية التي دأبت تريز على تأديتها كل يوم!

فلكم قاست المسكينة، ولكم بكى قلبها الكسير، ولكم ودت لو استطاعت أن تستمطر لعنات السماء على رأس هذه المجرمة بصوت عال، حتى تعلم أن عمتها لن تغفر لها زلتها. ورغم ذلك فقد فرض عليها أن تصغي لكلام تريز، وأن تتحمل العذاب الذي يسببه لها هذا الكلام.

وتمادى بتريز النزق حتى جعلت تقبل عمتها، فقد تظاهرت في أحد الأيام أنها تقرأ في عيني المشلولة ما يود قلبها أن يعرب عنه من الصفح والغفران، فانكبت على الأرض جاثية وصاحت بصوت مخيف: «لقد غفرت لي، أجل، غفرت لي!». ثم قبّلت جبين المسكينة ووجنتيها.. واشمأزت أحاسيسها وغثت نفسها ساعة لمست شفتاها الوجه البارد. ولكنها اغتبطت لهذا الاشمئزاز، ورأت فيه عاملاً آخر تجنح إليه كل يوم للتخفيف عنها وتخدير أعصابها!

وكلّما أعولت وردّدت في الاسترجاع، كانت تستبشر خيراً وتقول: «لقد نجوت..» ثم تعود فتمطر عمتها بوابل من قبلاتها، وهي تناغيها وتهمس في أذنيها: «ألم تصفحي؟ ألم تغفري؟ لقد فعلت.. لقد فعلت.. إنني أرى أنك صفحت، فعيناك تفصحان عن ذلك!».

هذا.. مع أن العجوز كانت تبكي من القهر والموجدة وتود لو كان في عينيها سهام لتصوبها إلى قلب تريز فتصميها وتنتقم لولدها منها!.

وما أكثر ما دعتها تريز بالطيبة السماوية، وما أكثر ما أضفت عليها في حضرة لوران النعوت الجليلة.. وكانت تستدير أحياناً إلى

لوران فتقول : «أصخ السمع يا لوران ، لقد اقترفنا منكراً ، وعلينا أن نكفّر عن ذنبنا العظيم . . انظر ، إنني أصبحت امرأة أخرى منذ الدقيقة التي ابتدأت فيها أبكي ندماً ، فاقتدِ بي ، ولنجهر معاً بأننا ننال العقاب الحق على ما ارتكبته أيدينا !» .

وكان لوران يجيبها كلّما سمعها تردّد هذا اللغو : «لك الخيار في قول ما تشائين ، فأنت شيطانة مجبولة بالمكر والرياء . . فابكي إن طاب لك البكاء ، ولكن أضرع إليك أن لا تثقلي عليّ بدموع التماسيح !» .

وكانت تجيبه وهي تحرق الأرم : «أيها الجلف . . أيها الخبيث . . أنت تأبى الإعلان عن ندمك ، ولكنك جبان رعديد اغتلت صديقك على غفلة منه . .» .

ثم تصمت فترة ، لتعود فتقول بصوت حزين : «كان طيباً ، وكان قلبه كبيراً . . ولكننا أثبتنا بصنيعنا أننا وحشان ضاريان !» .

فيقاطعها وهو يكاد ينقض عليها : «تبّاً لك أيتها الفاجرة ! هل غابت عنك كلماتك؟ هل نسيت ما كنت تقولينه عن قذارته وسخافته وسوء فعله؟» .

فتصيح عندئذ وهي تستشيط غيظاً : «أقصر ويلك ! لا تحاول الهزء بضحيتك . . فأنت لا تعلم شيئاً عن قلب المرأة ! لقد أحبني كميل وبادلته الحب !» .

ويضحك لوران متهكّماً ويقول : «أغبطك على هذا يا تريز ، لقد أحببته ، أليس كذلك؟ ولا جرم أن حبك لزوجك حفزك إلى اتخاذي عشيقاً لك . . . وإني لأتذكر ما قلته لي يوماً عندما انطرحت على صدري ، إنني لأتذكر كلماتك ساعة صرخت والهة ودعوت الله أن

ينقذك من كميل الأبله الحيوان . . .» .

«لقد أحببته كما تحب فتاة أخاها ، فهو كما عرفت حسن الخلق ، نقي السريرة ، طيب الشمائل ، ومع ذلك قتلناه ، أواه . . . يا إلـهي !» .

واستطردت بعد أن رقأت دمعها تقول : «كان أنبل منك قلباً وأرق عاطفة ! وأتمنى على الله لو كان هو الرجل الحي ، وأنت الملحود في القبر !» .

فوثب عليها لوران ولكمها لكمة هائلة أطاحت بها إلى الأرض ، ثم جثم على صدرها وجعل يضغط على عنقها حتى جحظت عيناها وأزبد فمها .

لقد اكتشفت في هذا العذاب لذة جديدة ، فأستكانت له ، وودّت لو قضى ساعة وهو يضربها ويركلها ويضغط على عنقها . . لقد كان الضرب نوعاً آخر من أنواع السلوان .

*

طفقت منذ ذلك اليوم تعدّد في كل ساعة مآثر كميل وحسناته فتقول : «كميل فعل هذا ، كميل قال هذا ، وهذه هي من شمائل كميل . . كان يحبني من أعماق قلبه» .

دائماً كميل . . دائماً عبارات من المديح والإطراء تنهال على كميل . . كل ذلك لكي تخلّص روحها ، وتدعه وحيداً مع الشبح حتى يوسعه تعذيباً وتنكيلاً ! .

ولم يعتم الشبح ، الذي كان يلمّ بلوران في الليل ، أن أصبح لا يفارق البيت صباح مساء ، فهو في كل مكان ، في قاعة الاستقبال ، في غرفة أمه المشلولة ، في مخدع الزوجين ، في الدكان . . . في كل

مكان يذهب إليه لوران . . لقد جن الرجل ، جن لوران ، وأصبح قاب قوسين من الموت !

ولكن ، لكل أجل ميعاد ، وقد يموت الإنسان مرات ومرات قبل أن يقف عن الحركة قلبه وعقله !

- ١٢ -

جاء وقت فكرت فيه مدام راكان بالإضراب عن الطعام حتى تموت فتنقذ نفسها من شقائها ، فقد خانتها شجاعتها ، ولم تعد تتحمل هذا الاستشهاد البطيء الذي طال أمده ، وأيقنت أن في الموت راحتها وخلاصها . .

فترحها كان يتضاعف حدة ، ولوعتها كانت تثور كالبركان كلّما طبعت تريز قبلة على خدها . . وكانت تفضل الموت على قبلة الزوجة القاتلة ! وكانت تتمنى أن تفارق روحها جسدها كلّما حملها لوران بين ذراعيه .

رفضت كل طعام قدمه لها الزوجان ، وقضت يومين كاملين وهي تطبق فاها حتى لا يستطيع لوران أو تريز إدخال الطعام إليه ! وجن جنون تريز ، وتساءلت ، وهي تنتحب ، عمّا تصنعه متى قضت عمتها . . وألحّت عليها أن تأكل ، وقبّلت خديها ويديها . . كما أنها فقدت حلمها ، فجعلت تفتح فكّي المرأة كما يفتح المرء فكّي حيوان . . ولكن مدام راكان لم تبتلع لقمة واحدة من الطعام .

وما عتم لوران ، بعد أن يئس منها ، أن نهى زوجته عن محاولتها وقال لها : «دعيها . . دعيها وشأنها . . فلعلنا نظفر بالراحة والهناء إن ولّت عنا» .

وكان لهذه العبارة فعل السحر على المشلولة ، فخافت أن يتحقق أمل لوران وتريز ، فيحظيا بالهناء المفقود . . فقالت لنفسها بأنها جبانة مستخذية ، وأنه لا يخلق بها أن تترك المسرح قبل ختام التمثيلية . . في ذلك الوقت فقط يمكنها أن تفارق الدنيا ، أن تنحدر إلى

الظلمات . . إلى المجهول . . إلى المكان الذي يوجد فيه كميل . . حتى تقول له : «لقد أخذت بثأرك ، فأنعم بالاً . . لقد انتقمت لك . .» .

عليها إذاً أن تؤجل موتها إلى الساعة التي تنضج فيها ثمرة النقمة ، لكي تحمل معها حلماً من الحقد المنقوع الغليل . . حلماً لا تنفك تراه في الصحو والمنام . . و هكذا عدلت عن صيامها وتناولت طعامها .

رأت العجوز بعين بصيرتها أن النهاية أضحت قريبة ، فالعلاقة بين الزوجين تسير من سيئ إلى أسوإ ، ولن يمضي وقت طويل حتى تنفجر الدنيا بهما فتمزقهما أباديد . . . فكل شيء كما رأت ينذر بهبوب العاصفة . . فالكراهية مستعرة الأوار ، والخوف ناشب أظفاره في مهجتيهما ، وحياتهما والجحيم سواء في العذاب والتجرّع من الصاب . . ناهيك عن الضرب المبرح الذي كانا يتبادلانه ، وناهيك عن العزم الأكيد الذي كان يشع من عيني كل منهما لقذف الآخر في الهوة السحيقة التي كانا يريانها فاغرة فاها !

وقد فكّر القاتلان في الانفصال ، وحدثتهما أنفسهما أن يهربا ، ولكنهما لم يستسيغا فكرة الابتعاد الواحد عن الآخر ، فمن يعذب الواحد منهما إن لم يجد الآخر قريباً منه؟ ! فهما يكرهان الحياة البعيدة عن الكراهية ، ويمقتان العيش الخالي من المضض . . ويتراءى أن قوة سالبة وجاذبة تبعدهما الواحد عن الآخر وتدنيهما الواحد من الآخر في آن واحد .

والذي منعهما أيضاً من الانفصال ، خوفهما من انكشاف جريمتهما وانهتاك الستر عن خبيئتهما . .

وهكذا عاشا في بؤس ، تشجهما رابطة واحدة هي رابطة الجبن . .

وجرّا حياتهما البائسة في أخدود الرهبة الذي سلكاه على مضض ، وعبرا فيه والكمد في قلب الواحد آخذ بتلابيب الكمد في قلب الآخر !

والمقصلة أيضاً كانت تظهر لهما كلما فكّرا في الانعتاق من القيود ـ المقصلة الحادة التي تفصل الرؤوس !

والعجب العجاب أن تريز التي عمر قلبها بالبغضاء لم تكن تستطيع فراقاً عن زوجها ، فهي كلّما غادرها لوران ، وألفت نفسها بعد قليل في الدكان ، شعرت بفراغ عظيم وبحزن عميم ، وبوحدة قاسية شاملة ، وأخيراً طلبت من سوزان أن تأتي إليها كل يوم لتقضي معها في الدكان ساعات النهار .

قبلت سوزان عن طيبة خاطر ، وأخذت تأتي كل صباح لتجلس في مقعد مدام راكان الخالي . ومنذ ذلك الحين قلّ صعود تريز إلى البيت ، فقد شغلها شاغل آخر عن عمتها ، واستغرق وقتها أمر آخر عوضها عن تمضية ساعات في البكاء على قدميّ المشلولة !

وكانت تغادر صديقتها أحياناً لتقضي وقتاً طويلاً في الخارج ، وعند رجوعها كان يظهر على ملامحها التعب والإعياء ، ولا يكاد نظرها يقع على سوزان الراكنة إلى مقعدها ، المنكبة على تطريزها ، حتى ينفرج ثغرها عن بسمة طفيفة ، فتبادلها المرأة بسمتها وترحب بها وهي تهز رأسها مداعبة !

فتريز حملت بعد زواجها بخمسة شهور ، وقد أزعجها هذا الأمر كثيراً ، وخُيّل إليها أنها ساعة يأتيها المخاض ستلد جثة غريق ! أصبحت تشعر أن في أحشائها جثة بالية أصابها الانحلال . فصمّمت على التخلص من الجنين ، فخلقت في اليوم التالي أسباب الشجار ،

وما زالت بلوران حتى انهال عليها ضرباً ، وخرّت مغشيّاً عليها ، وما عتمت بعد وقت قليل أن أجهضت غلاماً . . .

ومرّت الأيام تباعاً ، وكان كل يوم يحمل بين طياته للوران اليأس الذي بلاه طويلاً ، والألم الذي طغى عليه طويلاً ، والذكريات التي كظته زمناً طويلاً . . . وعلم أنه لن يتغير شيء وأن أيامه ستكون متجانسة لا يفترق الأمس فيها عن اليوم ، ولا اليوم عن الغد . . ورأى الأسابيع والشهور والسنين التي كانت تطل عليه من عالم الغيب ، رآها تمر متثاقلة متباطئة لتخنقه بتثاقل وتباطؤ !

فمتى كان المستقبل بلا أمل ، أضحى الحاضر كريهاً مريراً . واستسلم لوران أخيراً لما كتب له ، ورضخ رضوخاً تامّاً للاشيئية التي تمكّنت من قلبه وعقله وحياته وكيانه ، وجعل يغادر الدار في الصباح بلا غاية ولا نهاية ، فيهيم على وجهه ، ولا يغشى الغرفة التي استأجرها لعمله ، خيفة أن يتمثل له وجه كميل في كل صورة يقوم برسمها !

وحاول أن يخفّف عن نفسه ، وأثبت بالحجج والبراهين أنه كان مخطئاً في ارتمائه في أحضان الشقاء ، وأن عليه أن يستخلص من الحياة أطايبها ، فلهذا السبب قتل «كميل» ، ولهذه الغاية استغنى عن عمله . ولكنه فشل في إقناع نفسه ، فالقتل عاقبته وخيمة ، والتبطل أثقل على صاحبه من الكد . .

وناء بحمله ، ولم يُخفف عنه وطأة همّه إلاّ التنكيل بتريز وضربها ضرباً مبرحاً . . وكان كلما انهال عليها ضرباً كلّما مدت يدها بقوة وسرعة إلى الآثار التي خلفتها عضة كميل في عنقه ، فلا يكاد يشعر بأصبعها تصيب ذلك المكان حتى يهدر كالثور ، ويصيح صياح من

طاشت سهامه . وما أكثر ما أعولت تريز بصوت عال كلما رأت ذلك الأثر الباقي ، لكي تضاعف من آلامه ، فهدفها الأول هو تعذيبه بوساطة هذه العضة التي وسمه بها الدهر إلى يوم القيامة !

أما القط فرنسوا فقد كان مصدراً آخر من مصادر شقائه ، فهو يلتجئ إلى حضن المشلولة عندما يأتي لوران ، والسبب الذي من أجله تأخر لوران عن قتله هو خوفه منه وقرفه من مسه ولمسه ، مع أن عينيه البراقتين المستديرتين كانتا تثيران جنونه وتنغصان عليه حياته ! وكثيراً ما خاطبه قائلاً : «تكلم أيها الحيوان ! اقصص على الملإ ما تعرفه ! أخبرهم بكل شيء !» .

وفي إحدى الليالي ضاق صدره بالقط ، فقبض عليه بيد من حديد وألقاه من النافذة ، فاصطدم الحيوان بالجدار الناتئ ، ثم انطرح على سقف الدهليز الزجاجي وهو يموء مواء يفتت الأكباد ، وقضى الليل بطوله وهو يئنّ ، فقد تحطم ظهره ، وجعل يموء ، ومواؤه يتردد في أذن مدام راكان كأنه ترجيع ابنها كميل .

ودهم لوران عقب ذلك همّ آخر ، وأوجس خيفة من التغيير الذي طرأ على تريز ، فقد رجعت إليها طبيعتها الأولى ، فأخلدت إلى الصمت والسكينة ، وجعلت تتغيّب عن الدكان والمنزل . فحدثته نفسه بوقوع الشر ، فمن يعلم؟ قد يفضي الندم بزوجته إلى إفشاء السر؟ وهذا معناه نهايته الرهيبة .

وكمن يوماً في مكان قريب من البيت ، فلمّا لاحت له تريز من بعيد ، رآها ترتدي ثياباً تشبه الدم باحمرارها ، وتدنيها كثيراً من بنات الهوى ، بالتصاقها بجسدها وبانحسارها عن مفاتنها ، وبإرغامها على المشي بطريقة مبتذلة تنم عن رغبة صاحبتها في أمر لا يخفى على الرجال !

وكانت ترنو إلى المارة ، وتتعمد رفع لباسها حتى يروا ما لم يروه من ساقيها ! ولـمّا اجتازت المكان الذي اختبأ فيه ، اقتفى خطاها وتتبع أثرها . ومرّت بمركز للأمن العام ، فوجب قلبه ، وخُيّل إليه الوهم أنها ستعرج على المكان لتقول للمسؤولين إن المجرم هو لوران . . . ولكنها استمرت تمشي قدماً إلى أن وصلت حانة لا يؤمها إلاّ المومسات ، فولجتها بسرعة ، وحيت الموجودات فيها تحية الألفة والصداقة !

وما كادت تأخذ لها مجلساً ، حتى دنا منها شاب ذهبي الشعر فربت كتفها وطبع على خدها قبلة ، ثم تأبط ذراعها وخرجا معاً بعد أن قدم لها قدحاً من خمر الإبسنت .

ومشى الشابان في طريق ضيق متعرج ، ولم يبطئا أن صعدا إلى الطابق الثالث من إحدى الدور . . ووقف لوران في ظل شجرة وجعل يراقب النوافذ . وأطلت عليه تريز بعد قليل ، وأرسلت طرفها يجوس الشارع ، وإذا بالشاب يدنو منها فيحوطها بذراعيه ويقبّلها . . واختفى الاثنان ، وأغلقت النافذة . . وتنفس لوران الصعداء وقد سُرّي عنه !

شعر بالهناء ، وبرغبة في الضحك والغناء ، فتريز في شغل عن كل أمر ، ولن تسول لها نفسها الإيقاع به . . فلتفعل ما تشاء ، ولتنتهب اللذّات ، ولتضاجع الرجال ، فهذا لا يهمه ولا يحزنه ولا يوغر صدره ، ما دامت المقصلة الدامية بعيدة عن عنقه ! !

في ذلك المساء طلب لوران من زوجته خمسة آلاف فرنك ، فأبت أن تلبي طلبه ، زاعمة بأن المال الذي تنازلت عنه مدام راكان أخذ يقل ، وأنهما إن لم يلزما جادة الاقتصاد فقدا المعين ، وأصبحا معوزين فقيرين !

فقال لها وهو يهز كتفه : «قد يكون ذلك ، ولكني أريد المال على التو !» .

فصرخت غاضبة : «كلاّ ، كلاّ ، لقد استقلت من عملك ، وعشت عالة عليّ ، فلا تنتظر أن أعطيك مزيداً على ما تأخذ في كل شهر ، واعلم أنك . . أنك . . .» وتلفظت بكلمة أخرى . .

فضج لوران ضاحكاً ، وقال : «أنت تتعلمين لغة جديدة من الأشخاص الذين تجتمعين معهم ، وهذا يسرني . . .» وعاد يضحك ويستغرق في الضحك . .

فرفعت رأسها ، وقالت وهي تحدجه بنظرة يتطاير منها الشرر : «على كل حال ، أنا لا أجتمع بقتلة سفاحين !» .

امتقع لون لوران وشخص إليها ببصره ، ثم قال بصوت متهدج : «أعيريني سمعك يا تريز . . إن اللجاج والحجاج والشجار المستمر لا يعود علينا إلاّ بالشقاء والتعاسة . . فهلم ، أعطيني المال» .

«لن تظفر مني بدرهم ، فاغرب عن وجهي» .

ودنا منها وانحنى عليها كأنه يروم صفعها ، ولكنه أنشأ يقول : «أنت تتعمدين تعذيبي . . أنت تصرين على مضاعفة آلامي ، فاعلمي . . اعلمي أنني سأعترف الآن بكل شيء ، سأقول لرجال الأمن إننا قتلنا «كميل» ، وسنذهب من بعد ـ أنا وأنت ـ إلى السجن ، وإلى المقصلة ، وإلى الجحيم !» .

« . . وهل تحسبني أخاف؟ لنذهب معاً !» .

ونهضت من مكانها ، فهبطت السلالم ولوران يتبعها عن كثب ، ولكنهما دلفا إلى الدكان ، ووقفا يتبادلان النظرات ، ثم جلسا ، ثم وقفا ، ثم كتبت له تريز تحويلاً بالمبلغ . . وذهبت في سبيلها ، وذهب

هو الآخر في سبيله !

أقبل لوران على الخمر يتعاطاها ، وشرع يغشى دور اللهو ، فيختلط بالنساء ، وينادم بنات حواء ، ويقضي مع الداعرات ساعات وساعات . . وهو يبحث عن الراحة بفراره من الحقيقة . . ولكن ما زاده هذا إلاَّ حزناً وضيقاً .

برم بالفجور الذي تكلّفه على مشقة ، وضاق ذرعاً بالاستهتار الذي لاذ به ، وكان رجوعه إلى البيت في خاتمة كل يوم يفتح عينيه الكليلتين على الحقيقة الرهيبة ، ساعة يبصر أمامه مدام راكان الجامدة ، وتريز الداعر ، فيصيبه الروع ويستولي عليه الفزع !

وبدأت تريز أيضاً تسأم هذه الحياة المبتذلة ، فقللت من ارتياد المقاصف والمواخير . . . لقد قضت شهراً من الزمن من لهو وعبث ودعارة ، ولكنها ضجرت بهذا الضرب من الحياة ، ولم يعد المخدر يؤثر فيها ، ولاحقها الهمّ وألحّ عليها الحزن ، وأضحى الحي اللاتيني الموبوء كريهاً لديها . . . ولم تلبث أن هجرت عشاقها ، ولزمت بيتها ، وأهملت زينتها ، وعافت النظر إلى ملابسها . . . وحاولت وسعها أن تنسى نفسها ووجودها !

ولـمّا وجد القاتلان أنفسهما وجهاً لوجه بعد استنفاد جميع الوسائل التي خيل إليهما أن فيها خلاصهما وراحتهما ، أدركا أنهما لن يقويا طويلاً على مواصلة الكفاح . .

أخذتهما ظلمة حالكة . . اكتنفهما جو خانق . . تحسّسا قيود الجريمة التي تربطهما معاً . . فوجدا حلقاتها قوية متينة لا قبل لهما على قصمها أو تحطيمها . . فأيقنا أنهما لن يتسنى لهما أن يفعلا شيئاً . . . أيقنا أن النهاية تقترب بسرعة !

وتأجّجت نيران الكراهية في قلبيهما ، ورسخت جذور الحقد في هذين القلبين المريضين ، وكأنهما أصبحا كلبين هائجين مسعورين يتمنى كل منهما أن يعقر الآخر ويحيل منه كتلة من لحم ودم !

وصبّ لوران جام غضبه على تريز مرة أخرى ، وانتقمت منه تريز بوسائلها الخاصة التي كانت تتقنها . . ثم أتاحا للشكوك مدخلاً إلى شعورهما ، فافترضا وأوّلا وظنّا . . . كل كلمة لها تفسير . . . كل حركة بادرة من بوادر الوشاية والإيقاع . . ويتبع هذا صراع عنيف ، وضرب ولطم وعويل . . ثم هدوء وركود وشرود .

الشجاعة خانتهما كل مرة . . . كان في الألم البدني شفاؤهما من الأوصاب . . كان في العقاب خلاصهما من العذاب ، ولكنهما لم يخطوا خطوة واحدة في طريق الخلاص ، فالمقصلة تدخل الهلع إلى قلبيهما كما يفعل شبح كميل ! إنهما جبانان ! يحبان الموت ويخافانه . . يكرهان الحياة ويتشبثان بها !

ما أكثر ما هرولا إلى دار الأمن . . ما أكثر ما هرعا راكضين . . وما أكثر ما كانا يعدلان في آخر لحظة عن الاعتراف بالجريمة !

وضربها . . أصبحا وحشين يتربصان الدوائر الواحد بالآخر ، ويتحينان الفرص ليفتك كل منهما بشريكه . . ولكن ريبهما وفزعهما وكراهيتهما وحدت بينهما بطريقة غامضة ، حتى أصبحا لا يقويان على فراق أو يصبران على بعاد ـ فإن هبطت تريز إلى الدكان لحق بها لوران ، وإن ذهب لوران في شأن اقتفت تريز أثره .

وطفح الكيل ، وفاض كأس العذاب ، ومثل هذه الحال من المحال ، والبخار الحبيس لا بد أن يجد متنفّساً .

وفكّرا فيما يجدر بهما صنعه ، وحلم كل منهما بالجريمة ـ بجريمة

ثانية يرتكبها هو أو ترتكبها هي ـ فهذا هو الحل الوحيد ـ يجب أن يتلاشى أحدهما . . يجب أن يموت . . أن يموت . . لينعم الآخر ببعض الراحة !

وقرر هو ، وقررت هي . . أن يرتكبا الجريمة ، فوطد لوران العزم على قتل تريز لأنها كانت عقبة في طريق حياته ! ووطنت تريز النفس على قتل لوران لأنه كان يعذبها بوجوده .

وهدأ روعهما قليلاً بعد أن فرخت فيهما فكرة الجريمة ، فجعلا يضعان الخطط ولكن دون روية أو اتزان . فالخوف من العاقبة الوخيمة كان متسلّطاً على مشاعرهما . . بيد أن القتل لا مندوحة منه ، وهو ملاذهما الأخير إن شاءا أن ينعما ببعض الراحة . . . والأسبق إلى تحقيق وطره هو الأفلح !

ومع أن المقصلة كانت تتراءى لهما صبحاً وعشيّاً ، إلاّ أنهما صمّما على المجازفة ، وعوّلا على ارتكاب الجريمة !

ومنّيا أنفسهما بالسفر إلى الخارج بعد الجريمة ، فيفوز القاتل منهما بالمال والحرية والراحة !

أما مدام راكان . . وما يصيبها . . وما يجري لها . . فلم يفكّرا فيه ، أو يعيراه التفاتاً !

وكان للوران صديق صيدلاني يحتفظ في صيدليته بمختلف السموم الفتاكة ، فشرع لوران يكثر من تردده عليه . وانتهز فرصة انشغال الرجل في أحد الأيام فسرق قارورة فيها مسحوق أبيض ، وقد كتب عليها صاحبه (سم قتال لا يستعمل إلاّ بدرهم) !

وفي الوقت نفسه ابتاعت تريز سكيناً ذات نصل حاد وأخفتها في درجها !

دوّت قهقهة الموت !

استغرق كميل ضاحكاً !

خفق قلبا الزوجين .

مرت الساعات بطيئة وانية .

وتألقت عينا مدام راكان ، وقد داخل حسها أن النهاية أمست وشيكة . . والقاتلين أصبحا على أبواب الآخرة . . وكميل لا يلبث أن يؤخذ بثأره !

- ١٣ -

امتازت ليلة الخميس التالية بما ساد جوها من حبور وانشراح ، واستمر القوم يلعبون ويمجنون ويروون فكاهاتهم التي رووها مئات المرات حتى ساعة متأخرة من الليل ، وعندما همّوا بالانصراف صرح غريفي بأنها أمتع ليلة حظي بها منذ سنين .

وأمضت سوزان أكثر وقتها مع تريز ، وهي تحدثها بآمالها ومخاوفها ، وما ترجوه من يسر الوضع في الساعة العصيبة القريبة . واستمعت إليها تريز بانتباه عظيم ، فقد أطبقت شفتيها وحدّدت في صديقتها عينيها . ولم يدع لوران فرصة تمر دون التعليق على الحديث ببعض الكلمات التي كانت تثير عاصفة من الضحك .

ولما سأل ميشو عن الجروح والخدوش التي بانت آثارها في وجه تريز ، زعمت المرأة ، وهي تبتسم ابتسامة باهتة ، بأن قدمها زلت ، وأنها وقعت فأدمتها الوقعة وخلفت هذه الآثار في وجهها .

أمّا المشلولة فقد جمدت كعادتها في مكانها ، وفي قلبها بركان من الحمم يثور ويقعد ويكاد ينفجر بما يتلظى في داخله . فليالي الخميس التي استنت قانونها ونظمتها بنفسها أمست أثقل شيء على قلبها المعذب . . ولكن المرأة المفؤودة أيقنت في المدة الأخيرة أن القدر يلعب لعبته ، وأن عليها أن تتذرع بالصبر ليتحقق حلمها فيثأر لابنها . . وكانت طيلة ساعاتها تبتهل إلى الله أن يبقيها في قيد الحياة حتى ينقع غليلها ما سوف تشاهده من خاتمة القاتلين المريعة التي بدأت تلوح لها . وكانت أمنيتها التي صورتها لها مخيلتها الحاقدة هي أن تشبع بصرها من مشهد العذاب الهائل الذي أناخ على الزوجين ،

وأطبق عليهما كما تطبق الصاعقة على شجرتين فتحرقهما وتسقط فروعهما وتسلب الحياة من جذورهما!

وفي سياق الحديث، وبينما الجميع يتبارون في إلقاء الكلام على عواهنه، انبرى غريفي يقول: «إن المرء متى دخل هذا المنزل يود لو لازمه طيلة عمره!».

فصاح ميشو: «والواقع أني لا أشعر بالميل إلى الكرى، بينما أنا ألوذ بفراشي عادة في الساعة التاسعة كل ليلة».

وفكّر أوليفيي قليلاً، وانبرى يقول: «على رسلكما يا صاحبي.. إن هذا البيت يفوح بالطهر والشرف والاستقامة، وهذا ما يجعلنا نطمئن إليه!» وضحك حتى بانت أسنانه الصفراء.

وقال غريفي: «هذه الغرفة رمز السلام!».

وفي تلك الأثناء كانت سوزان تقول لتريز بأنها ستجيء لزيارتها في اليوم التالي.

ولكن تريز ردّت عليها بسرعة فقالت كمن أخافه أمر: «كلاّ، كلاّ.. لا تأتي قبل أن يحين وقت الغداء... فقد أغادر البيت في الصباح».

وذهب الضيوف وأوصد الباب. وتنفس الزوجان الصعداء كأن عبئاً ثقيلاً انزاح عن عاتقيهما، ولكنهما تجنبا التقاء النظرات، وطفقا يتحركان كآلتين، وما لبثا أن جلسا وهما يشعران بالإعياء والتهافت..

وقال لوران أخيراً: «ألم يحن وقت النوم بعد يا تريز؟».

فانتصبت واقفة وتناولت زجاجة الماء المحلّى الذي دأبت على شربه كل ليلة.

فأخذ لوران الزجاجة من يدها وهو يقول : «دعيني الليلة أهيئ لك شرابك !» واستدار قليلاً وأزال سدادة الزجاجة وصبّ الماء في كأس ، ثم أفرغ السم فيه ، في الدقيقة التي كانت تريز تتناول السكين !

في تلك الدقيقة التفت لوران نحوها والتفتت تريز نحوه . . وتلاقى الناظران . . . فرأى ما صنعت ، ورأت ما صنع . . . وجمدا في مكانيهما ، وأحسّا بالقشعريرة الباردة تسري في جسديهما ، وفهما كل شيء ، وشدها مّما فهما !

ذهلا مّما أبصرا ـ فهو يريد قتلها وهي تريد قتله ! أفعم الأسى قلبيهما . . شعرا بالحزن والشفقة والرثاء .

وحملقت فيهما مدام راكان ، وخفق قلبها كما لم يخفق من قبل .

وانفجر الاثنان يبكيان ، وأطبقا الواحد على الآخر ونشيجهما يملأ الفضاء . . وقد أنبأهما حسهما بأن شيئاً نبيلاً أخذ يتنبّه في أعماقهما ! فانتحبا ، وذرفا الدمع ، ولم يكن بكاؤهما بكاء أهل الأرض ، ولم تكن عبراتهما عبرات إنسانين عاديين !

واستعادا إلى الذاكرة ، في لمحة عين ، تلك الحياة القذرة التي اندفعا إليها ، فأيقنا أنهما سيكونان أجبن الخلق طرّاً لو تقهقرا في آخر لحظة فنكصا فراراً من الموت !

وتبادلا نظرة أخيرة ، نظرة شكر وعرفان ، وتناولت تريز الكأس من يد لوران فتجرعت نصفه ثم أرجعته إليه فجرع الباقي !

وسقطت تريز وسقط فوقها لوران ، ولامست شفتاها عنقه واستقرتا على آثار الجرح الذي أحدثته أسنان كميل !

ومضت ساعات الليل والجثتان الهامدتان منطرحتان على الأرض ، والمصباح الباهت يعكس عليهما نوره الخافت ، وذؤابته المتذبذبة تحرك الظلال ، والموت الظافر يرنو إلى ضحيتيه ويلعق شفتيه !

وطلع النهار ، ومضت ساعات الصباح والمشلولة في مكانها جامدة ساكنة تحدق إلى الجثتين ، وتطيل التحديق ، وتهتف دون أن يخرج لها صوت :

«لبيك يا كميل . . لبيك . .

ها هما بين يديك . .

ها هي أمك تنتظر الانتقال إليك . .» .



الوحش في الإنسان



ـ ١ ـ
الغيرة القاتلة

وضع روبو الطعام على المائدة وفتح النافذة على مصراعيها دون مبالاة بالصقيع الذي خيمت أجنحته البيضاء المتجمدة على پاريس ، وشرع يتأمل المحطة الغاصة بالقاطرات والعربات من نافذة السكة الحديد ، وهو يوازن بين هذه المحطة الفسيحة المترامية ، وبين المحطة الصغيرة في الهافر ، التي يعمل فيها كمساعد ناظر .

ودقت الساعة ثلاث مرات ، فأجفل روبو كمن تنبّه من حلم ، وغادر النافذة إلى مطبخ الأم ڤكتوار الذي كان يعرفه جيداً ، وشرع يعد مائدة الطعام .

وسنحت منه التفاتة ، فوقع طرفه على سلحفاة خزفية أهدتها زوجته سيفرين إلى الأم ڤكتوار عند زفافه منها منذ ثلاث سنوات . واستعاد عند ذلك قصة زواجه ، وطافت في مخيلته الذكريات ـ فألفى نفسه حاجباً خاملاً في مصلحة السكّة الحديد . وتذكّر كيف التقى زوجته سيفرين ، وهي بصحبة برتا ابنة السيد موران ، رئيس شركة السكة الحديد .

كانت سيفرين ابنة بستاني توفاه الله وهو في خدمة موران المليونير عرابها ، فغدا العجوز بعد موت والدها وليّ أمرها ، إلاّ أنه تعدى مسؤولياته كأب ثان لها ، وطفق يغازلها ويداعبها ، ولم يعتم أن أرسلها إلى المدرسة لتتلقى العلم مع ابنته .

وأغرم روبو بالفتاة وتدلّه بحبها ، ولم يتصور قط أن يلبي الشيخ

رغبته عندما طلب يدها منه . وزال عجبه ودهشته حينما منحها ولي أمرها بائنة مغرية ، وأعقب ذلك تعيينه مساعد ناظر لمحطة الهافر .

وأضجره الانتظار ، وكاد صبره يفرغ ، ووسوس الشيطان في رأسه : «أين هي يا ترى؟ ولم هذا التأخر؟ وهَل شراء حذاء يستغرق كل هذا الوقت؟» .

لم يشك بها قط في الهافر ، أما هنا . . . في پاريس ! وصعد الدم إلى رأسه ، وجعل يذرع المكان جيئة وذهاباً .

وبينما هو يضرب أخماساً لأسداس ، دخلت سيفرين بغتة ، وابتدرته قائلة وهي تشتعل حيوية وجمالاً : «هأنذا يا روبو . فليفرخ روعك وليهدأ جأشك . .» .

وكانت سيفرين هيفاء القوام ، منسجمة الأعضاء ، كاعبة الصدر ، لم تكمل الرابعة والعشرين من عمرها بعد ، وكانت عيناها الزرقاوان المتسعتان ، وشعرها الأسود الفاحم ، تضفي على ملامحها جمالاً هو مزيج من نقيضين . . ولهذا كان في نظر الرجال أدهى من كل فتنة ، وأروع من كل جاذبية .

فلمّا وعى روبو كلامها ، أجابها وهو يحدجها بنظرة ريب صارمة مضطرمة فقال : «أين كنت؟ وماذا فعلت؟» .

فأحاطت عنقه بذراعيها ، ووضعت يدها على فمه وقالت : «أنت جلف يا روبو وأي جلف . . وإلاّ ، فكيف تسوّل لك نفسك أن تحدثني بمثل هذه اللهجة؟» .

وزالت ريبته حالما فغم رئتيه النشر العبق الذي سطع أرجه من ثنايا جسدها ، فضمّها إلى صدره بعنف ، وجعل يقبّلها بشغف وافتتان .

ووضعت يدها في جيبه وقالت وهي ترمقه بغنج : «لقد ابتعت

لك مطواة جميلة كتلك التي أضعتها منذ أسبوعين أيها الحبيب» . . ثم انفلتت منه وأخرجت من حقيبتها مطواة كبيرة ذات مقبض عاجي ونصل براق طويل .

فقبّلها ثانية وهتف يقول : «أي سيفرين . . إنها هدية ثمينة تستحقين عليها الشكر والثناء» .

فقالت وهي ترنو إليه بطرف فاتر : « . . إن كنت تحبني كما أحبك أنا ، فلن تقوى أي مدية على فصم حبنا إلى شطرين !» .

وتوقفت عن الكلام وهلة ، ثم استتلت : «خبّرني يا روبو ، كيف سوّيت الأمر مع مديرك؟» .

فهز روبو رأسه وأجاب : «أطلعته على ما حدث لي مع المسافر الذي أصر على اصطحاب كلبه ، فلم يقتنع بعذري ، إلاّ أن كتاب موران حسم الموقف وبتّ القضية» .

قالت : «كنت على حق إذاً عندما أصررت على الكتابة إليه في هذا الشأن» .

قال : « . . لا شك في ذلك ، لأن نفوذه القوي كفيل بتثميد العقبات وتسوية المشكلات» .

قالت : «أجل . . . أجل» .

ورجعت بفكرها إلى الوراء ، يوم كانت طفلة لعوباً تيتّمت وهي لم تشب عن الطوق ، فآواها موران الثري وكفلها ، وكانت آنذاك في الثالثة عشرة من عمرها .

ومنذ ذلك الحين لم يتغير في موران شيء ، بل هو هو ، بقي بحاجبيه الكثين وشاربيه الكثيفين ، وفوديه الموخوطين بالشيب !

وأعادها إلى الحقيقة صوت زوجها الأجش وهو يقول :

«بم تفكرين يا سيفرين؟ بموران؟ !» .

فأجفلت الحسناء ، وتولاّها ذعر ، بيد أنها تمالكت نفسها وأعصابها وأجابته بجأش رابط :

«لا تكن أبله يا روبو ، فقد رفضت دعوته لقضاء أسبوع في بيت شقيقته مدام بوتي في دوانفيل ، ولم أشأ أن أرافقه في عربته الخاصة التي ستلحق بالقطار السريع في الساعة السادسة والنصف من مساء هذا اليوم» .

قال : «أعجب لك كيف رفضت مثل هذه الدعوة ، لا سيما ونحن في حاجة دائمة إلى هذا الرجل !» .

وتوقّف عن الكلام هنيهة ، ثم استتلى وهو ينظر شزراً : «ولا ريب في أنك جرحت كبرياءه برفضك . . فلم أبيت؟» .

قالت : «لأني لا أرغب في ذلك» .

قال : «وما السبب؟ أصدقيني القول؟ هل تنفرين من مدام بوتي؟ أو تشمئزين من برتا وزوجها شيسني المحامي المأفون؟» .

قالت : «أنت مخطئ في حدسك ، فأرجو أن تكف عن الثرثرة التي لا طائل تحتها» .

فأردف كأنه لم يسمع قولها :

«السيد موران إذاً هو السبب ، فماذا فعل؟» .

«أف لك يا روبو ، إن موران لا يثقل عليّ أبداً بالرغم من قسوته وخشونته ، وإني على نقيض جميع لداتي وأترابي لم أخش جانبه ، أو أتوارى عنه . . . وكان عند مروره قريباً مني يربت وجنتي ملاطفاً مشجّعاً !» .

«لا بدّ لنا من الاعتراف بفضله وحدبه عليك ، لا سيما وقد

أوصى لك ، كما أخبرني ، بجانب من ثروته ، عدا البائنة التي جاء بها يوم زفافنا . . . فماذا أوصى لك يا ترى؟ هل تعرفين مقدار ما أوصى به إليك؟» .

«كتب باسمي البيت الواقع على مفرق موفرس ، وبودّي أن أرفض هذه التقدمة التافهة !» .

«هل جننت حتى ترفضي؟ إن موران موسر طائل الغنى . . . أم أنت تخافين الهمس والغمز وقالة الناس؟ فالناس كما تعلمين تتناقل أقاصيصه مع النساء ! ولا يزال ، كما يقال ، يسعى وراء الفتيات الصغيرات ! فمن يعلم؟ ربما كنت إحدى محظياته !» .

فهزت رأسها ساخطة ساخرة ، وقامت إلى النافذة فوقفت تلقاءها ، وشرعت تجيل الطرف فيما ينبسط أمامها ويكتنفها . . ودنا منها وأحاطها بذراعيه . . فانتفضت سيفرين وأفلتت من قبضته وهي تقول :

«اتركني . . . اتركني . . .» .

«إنني أحبك . . . أحبك يا سيفرين» .

«ولكننا لسنا في مقام مناغاة ولا مطارحة . . أرجوك . . لا . . لا . . نحن لسنا في بيتنا !» .

فأمسك يسراها بلطف ، وجعل يتأمل في الخاتم الذي يحلي بنصرها ، وكان على شكل حية ملتفة ترصعها أحجار ثمينة دقيقة الصنع .

وقالت ساعة رأته يتفرّس في الخاتم وكأنها في حلم :

«إنه ثعباني الصغير . . ثعباني الجميل الذي أهداه لي في عيد ميلادي السادس عشر» .

فزمجر روبو متوعّداً وقال :

«مَن أهداه لك؟ من هو ويحك؟» .

فقالت متداركة : «أواه! لقد غلط لساني . . إنما هو هدية من أمي!» .

فقبض على ذراعها ، وحدق إلى عينيها وقال :

«لا تكذبي! لا تأفكي! من أعطاك الخاتم؟» .

فارتعدت فرائصها ، ولم تلبث أن قالت وهي تلمح شرر الحقد يتطاير من عينيه :

«إنه تقدمة من موران» .

وقرأ في تلك اللمحة في عينيها الحقيقة الرهيبة . . قرأ في ناظريها ما بدّل الظن يقيناً ، فانقضّ عليها كالمجنون ، وجعل يضربها بكلتا يديه ويقول صارخاً :

«أيتها الفاجرة . . أيتها الداعر . . كنت خليلته . . أليس كذلك؟ لقد كنت خليلة له!» .

فقالت وهي تزفر : «لا . . لا . . لم أكن خليلة له!» .

قال : «أصدقيني القول ، قولي الحقيقة وإلاّ حطمت رأسك وأذقتك وبال عهرك!» .

فأفلتت سيفرين من قبضته ، وأهرعت إلى الباب تبغي الفرار . . غير أنه أمسك بتلابيبها ولكمها لكمة هائلة طوحت بها إلى الأرض . . ثم انحط عليها بثقله ، وقبض على مخنقها بيد متشنجة وقال وهو يلهث :

«اعترفي ويحك بأنه استولى عليك! ويلك . . اعترفي!» .

وبأسرع من لمح البصر انتضى المطواة التي ابتاعتها له هدية ،

وشهرها في وجهها .

وقرأت في ملامحه الشر والعزم ، فخارت قواها . . أيقنت أنه لا محالة قاتلها إن لم تعترف بالحقيقة ، فقالت وهي تجهش باكية :

«كان يلهو بي كلما شاء ، وكيفما شاء !» .

فقال وهو يصر بأسنانه : «فقد نمت إذاً في فراشه ـ في فراش هذا الخليع المتصابي؟ وغررت بي واختبلتني ، وما برحت تنسلين إلى مضجعه كلما لمست فيّ الغفلة والثقة ، غير آبهة لشرفي ، ولا حافلة باسمي ! وهو ولا غرو قد دعاك الليلة ليشبع غريزته ويطفئ نار وجده !» .

«ولكني رفضت دعوته ، فلا تعجل في إصدار حكمك» .

فأطبق عليها ثانية وهو يصيح : «وذلك البيت الذي خلعه عليك في وصيته . . ذلك البيت الكائن في مفرق موفرس . . ألم يكن عش غرامكما؟ ألم يحملك إليه في غفلة عني كلّما ألحّ عليه الشوق؟ !» .

وضرب على رأسه بكلتا يديه فجأة كمن به مسّ ، واستطرد يقول :

«ما العمل؟ ما العمل؟» .

ثم إنه انفلت يذرع الحجرة كالوحش الهائج ، وما لبث أن قال :

«إلى الموت أيها الشيخ . . إلى الموت أيها الفاسق . . سوف أقتلك !» .

والتقط المطواة فوضعها في جيبه ، ودنا من امرأته فأمسكها من كتفها بفظاظة وعنف ، ودفعها إلى المقعد دفعاً ، وقدم إليها ورقاً وقلماً وقال :

«اكتبي !» .

فتناولت القلم من يده ورنت إليه في ضراعة وتوسّل وترقّب .

ومضى يقول : «اكتبي ويحك ! اكتبي له :

«غادر باريس في قطار السادسة والنصف ، وتجنّب الظهور قبل الوصول إلى روان» .

فقالت مستفهمة ، ويدها لا تزال مرفوعة بالقلم :

«وماذا تروم فعله بربك؟ أخبرني» ! .

قال : «هذا ليس من شأنك ، فاكتبي ما أمليه عليك» .

قالت : «لن أكتب حرفاً حتى أعرف مآربك وأطلع على غايتك !» .

فعصر يدها الناعمة بيده الخشنة القوية ، حتى صرخت من كثرة ما انتباها من ألم ، وقال :

«ستشتركين معي فيما أنا مقدم عليه ، ستكونين متواطئة معي . . ستكونين شريكتي في جريمتي . . فاكتبي قبل أن يضيق صدري فأصب عليك جام غضبي» .

ولمّا فعلت ما أمرها ، اختطف الرقعة من قدامها ، ودسها في جيبه ، ثم غادرها على عجل !

ولزمت سيفرين مكانها ، وظلت تحدق بناظريها إلى الأمام في شخوص شارد كمن اختبل عقله وفقد إدراكه . . ونبّهها من شرودها أصوات جلبة وضوضاء ، فقامت إلى النافذة ، وأطلت على المحطة ، فوقع طرفها على عدد من العمال المنهمكين في إلحاق عربة خاصة بالقطار .

وفي الساعة السادسة وعشرين دقيقة ، قفل روبو راجعاً ، فاصطحبها إلى المحطة حيث أعطت مفتاح المنزل إلى صاحبته الأم

ڤكتوار ، ثم انكفأت راجعة مع زوجها ، فانتبذا ركناً خالياً قريباً من موقف القطار .

ورآهما في تلك الهنيهة هنري دوفرن مفتش البطاقات ، فأقبل عليهما ، ومدّ يده إلى روبو مصافحاً مهنئاً . . ومر بهم رجل كهل كث اللحية ، عريض المنكبين ، يرتدي معطفاً أسود ثميناً ، ويحمل حقيبة ثياب صغيرة ، فشحب وجه سيفرين وارتعدت فرائصها ، وضغط روبو على ذراعها محذّراً ، وما لبث الرجل أن غاب عن العيان ، وصعد العربة الخاصة الملحقة بالقطار .

وتابع روبو الرجل بنظرة الحاقد المتقد ، وهو يحرق على الأرم :

«ويل لك مني أيها الشيخ المستهتر ! ستلقى الليلة الجزاء الذي تستحق !» .

وتحرك القطار ببطء وهو ينفث الدخان ، ويبعث النيران ، ويملأ الدنيا صفيراً . وجعل بتصميم يضاعف من سرعته ، وما عتم أن انطلق في هدير مدوّ يسابق الريح ، كأنه وحش ثائر هاج هائجه وثار جنونه !

- ٢ -

الرغبة الجامحة

الرغبة الجامحة . . الرعناء . . هي التحوّل الخطير من حال إلى حال .

كان الخط الحديدي يمر ببيت موران الواقع على مفرق موفرس ، وكان البيت مرتج الأبواب مغلقاً لزمن مضى ، والمنطقة مقفرة موحشة لا يقطن فيها أحد سوى حارس المحطة ، وكان بيته الصغير العتيق يقع على رأس طريق يقطع الخط الحديدي ، ويبعد ثلاثة أميال عن دوانفيل .

كان هذا الطريق مهجوراً لا يمر فيه إلاّ العربات التي تنوء بأحمالها وأثقالها من الحجارة الضخمة المقتطعة من المحاجر . وفي مكان قريب من التقاء الطرق بالخط الحديدي ، كان القطار يتسرب في نفق جوفي طويل ، وينصلت منه في قرية برنتين ، وامتد على طول النفق من الخارج طريق ضيق مستقيم .

في أمسية ذلك اليوم ترجّل شاب جذاب الملامح وسيم التقاطيع من قطار محلي في قرية برنتين ، ومضى قدماً يخطر ببطء في هذا الطريق المحاذي للنفق .

كانت الشمس تميل إلى المغيب ، وضوء النهاء يتضاءل رويداً رويداً وينحسر متخاذلاً منهزماً أمام جحافل الظلام .

وفيما هو يدنو من مفرق موفرس ، وقع نظره على فتاة شقراء قوية البنية ضخمة الجسم ، تجلب الماء من المسقاة القريبة من بيت

الحارس . ونظرت إليه الفتاة ، وأنشأت تقول وهي تدنو من باب السياج :

«أي جاك . . .» .

وتلعثم لسانها ، فتوقفت .

وقال الشاب وهو يتبعها : «مرحباً بك يا فلورا» .

ولاحظت الفتاة ارتباكه ، فحدقت إلى عينيه الكبيرتين وشعره الفاحم ووجهه القسيم ، ثم فتحت الباب وخطت إلى الداخل . وسألها وهو يسير وراءها :

«أين أمك يا فلورا؟» .

قالت : «في البيت ، فهي لا تفارق فراشها في هذه الأيام» .

دخل الشاب وهو ينظر متفرّساً في كل ما يحيط به .

وارتفع صوت ثاقب يقول :

«جاك ! أهلاً بك أيها العزيز . .» .

وتقدّم جاك من فراش مرضعته ، فجلس في جوارها ، وتناول يدها المعروقة وهو يبتسم ابتسامته العذبة .

وهتفت المرأة تقول ، وقد ومض وجهها النحيل وميض السرور :

«لكم تشوفت الأبصار إلى استجلاء طلعتك البهية يا جاك ! غير أنك ، كما أرى ، تنفر من العمة فازي وتستثقل ظلها ، وتمج حديثها . . ولكن ، ما لي ولهذا الكلام ، هيا ، أخبرني عن حالك . . طمئني عن صحتك . . أما برحت تعاني من الصداع ، وتتألم من السوداء التي كانت تطبق عليك بكل قسوة في الأيام الماضية؟» .

فهزّ الشاب رأسه نفياً وقال :

«كلاّ يا عمة ، لقد شفيت من صداعي وبرئت من سودائي ، والحمد لله» .

«وماذا ساقك إلينا في هذا اليوم السعيد؟» .

«تعطّلت قاطرتي فاضطررت إلى تركها في الهافر ، وقد شخصت كما ترين لزيارتك في برنتين» .

«حظك السيء إذاً هو حظي السعيد . . أليس كذلك؟» .

واشرأبت العمة فازي بعنقها من النافذة ، فشاهدت رجلاً قميئاً مهزولاً يخرج من كشك صغير قريب من الخط الحديدي ، فاستدارت إلى جاك وتابعت حديثها وهي تحرق على الأرم :

«ويله من جلف ! ويله من مجرم ! إنه يمزج طعامي بالسمّ الناقع . . إنه يقتلني شيئاً فشيئاً ، حتى تضيع جريمته فلا يأخذه بها أحد !» .

فارتعش جاك وقال : «مَن؟ مَن يفعل هذه الكريهة؟» .

«مَن غير زوجي الثاني؟ من غير مزار يرتكب الجريمة النكراء يا جاك؟» .

«هذا وهم لا أصدّقه يا عمتاه» .

«بل صدّق كل حرف منه . . صدّق كلامي . . لكني الملومة فيما يقع لي من آلام وأحزان . فلم يكن خليقاً بي أن أرضى به زوجاً ! غير أنه الفقر ، قاتله الله ! الفقر قسرني على القبول ، حتى أجنب فلورا ولويزيت المتربة والجوع ! أجل ، أردت أن أحمي فلورا ولويزيت . . آه ! لويزيت الطيبة ، لويزيت الجميلة ، لويزيت التي لحدنا جسدها الغض منذ أربعة شهور . فتباً للقاتل !» .

«وهل هو مزار أيضاً؟» .

«كلاّ ، بل ذلك الشيخ اللعين ، موران الداهية الفاجر !» .

«أراك رجعت إلى أراجيف الناس يا عمتاه !» .

«فمن هو المجرم إذاً؟ ألم تقل لويزيت ذلك؟ ألم تسمه قبل موتها بالعار الأبدي؟» .

«هي لم تقل ذلك ، وأظن أن كابوش هو الذي زعم أنها اتهمت الشيخ ، وعزت إليه العمل المنكر» .

«كابوش ، يا جاك ، لا يعرف الكذب . وفوق ذلك ، كان يحب الأرض التي تدوسها لويزيت وتمشي فوقها !» .

«وفي كوخه ماتت لويزيت !» .

«نعم . . في كوخه ماتت . . . فقد هرولت المسكينة والدماء تنزف منها إلى كوخ الرجل الوفي الذي لم تؤمن بشخص سواه . .» .

وزفرت المرأة زفرة محرقة وأردفت تقول :

«أنا الملومة على ما حلّ بها ، فقد أرسلتها لتعمل في بيت السيدة بوني رغم تحذير الناس لي من سوء العاقبة . لقد سمعت الشيء الكثير عنها وعن شقيقها موران ، بيد أني ضربت عرض الحائط بما سمعت ، وهأنذا الآن أقع فريسة مزار الجشع الذي لا يعنيه أمر في الدنيا سوى المال ، وهو يعلم أني ورثت عن أبي مبلغاً من المال ، فحاول أن يستولي عليه ، فلمّا لم أمكّنه من تحقيق هدفه ، هدّدني وتوعّدني ، ومنذ ذلك الحين اعتلت صحتي وخارت قوتي ! وكان دائماً يفتش الأمتعة بحثاً عن المال ! ألا خاب فأله ، فهو لن يحظى به ! أجل لن يفوز بضالته !» .

وطرق سمعهما في تلك اللحظة هدير يصم الآذان بدويّه ، فعلم جاك أن مصدر الهدير قاطرة للبضائع مقبلة من بعيد ، فنهض من

مقعده ودنا من النافذة ، فوقع طرفه على فلورا القوية البنية ، الوضاءة المحيّا ، وهي منهمكة في مساعدة رجل على جر عربة محملة بالحجارة ، عبر الخط الحديدي .

فاستدار إلى المرأة وقال : «وهل هذا الرجل الذي يرافق فلورا هو المدعو كابوش؟» .

قالت : «كلاّ ، بل ابن عمه لويس» .

قال : «وهل كفّ كابوش عن ورود هذه النواحي؟» .

فأشارت المرأة بيدها وأنّت ، وما لبثت أن قالت :

«كابوش ! إنه يهيم على وجهه في الغابة كالوحش ، ولا يفتأ يبكي لويزيت ويندبها . أمّا فلورا ، فماذا أقول فيها؟ أنا أمها ، ولكني أرتاب في اتزانها . . فهي تختفي لساعات ، ثم تظهر على غير ميعاد ، وهي لا تبالي بالرجال ، وهذا ينغّص عليّ حياتي !» .

وكان جاك طوال ذلك لا يرفع عينيه عن العربة اللاصقة دواليبها بالخط الحديدي ، وكان السائق في خلال ذلك يسوط الجوادين ويلهب ظهريهما ، بينما كانت فلورا تحثّهما بصوتها الحاد على السير . والتفت جاك فجأة إلى مرضعته وقال :

«ماذا يصيب العربة يا ترى ، لو دهمها القطار؟» .

قالت : «لا يصيبها مكروه ، فمع أن فلورا تجنح أحياناً إلى الشذوذ غير أنها قديرة تمارس واجباتها كأحسن ما يكون» .

وأتبعت فازي كلامها بسرد واف لطائفة من الأعمال الخارقة التي أنجزتها فلورا ، وطفق هو ينظر مبهوتاً مشدوهاً إلى الفتاة القوية ، وهي تسند العربة بكتفها وتدفعها إلى الأمام !

وابتسمت فازي ، واختتمت حديثها قائلة :

«وعلى كل حال، فأنا مغتبطة لأنك قدمت يا جاك، وأرى في سيمائك أمائر الصحة والنشاط . . ولا عجب، فأنت في شرخ الشباب وغضارة الصّبا . . ولا أخالك مفارقنا الليلة، فالحجرة الصغيرة المجاورة لمخدع فلورا خالية تصلح لنومك» .

ودخلت فلورا في تلك الأثناء، فأشعلت المصباح، وشرعت تعد مائدة الطعام، وهي تتجنّب النظر إلى وجه جاك .

ودخل مزار، فهرع إلى جاك وصافحه . ثم جلس الجميع إلى مائدة الطعام، وشرعوا يأكلون صامتين، بينما راح جاك يختلس النظرات إلى مزار، وكأنه يحاول أن يقدح زنده، ويكتشف ما انطوت عليه نفسه .

أمّا فازي، التي اطمأنت إلى خلو الحساء من السم، فقد احتسته بنفس واثقة مطمئنة . . وصاحت بعد أن خوى وعاؤها من المرق، وكأنها فطنت إلى أمر غاب عن بالها :

«أين ملح الطعام؟ للملح يا جاك فوائد جمة في تنقية الأكل من الشوائب . . إنه مطهّر فعال، ومقاوم للسم في بعض الأحيان!» .

فنهض مزار من مكانه وجلب لها الملح، وقال وهو يحدجها شزراً :

«أوصيك بالتقليل من استعمال الملح، فمن شأنه أن يضاعف الآلام التي تشكين منها صبحاً وعشياً . . .» .

فقاطعته تقول : «أنا أعرف سبب علتي كما تعرفها أنت . . ولهذا ألجأ إلى الملح دائماً!» .

وأيقن جاك أن الأوهام تصبغ خيال فازي بصباغ الحقيقة، وأن ظنونها في زوجها باطلة لا أساس لها .

ولم تكف القاطرات عن المرور أمام البيت ، وكانت فلورا تخرج مسرعة كلّما مر قطار منها ، ثم تعود بعد قليل . ولكن غيبتها ، في آخر مرة خرجت فيها ، طالت كثيراً ، حتى قلقت أمها ، وخاف جاك عليها .

واستأذن مزار زوجته وجاك ، وغادر البيت ، ولـمّا أوت فازي إلى فراشها ، تسلل جاك خارجاً ، فأنعشه النسيم العليل الدافئ ، وخُيِّل إليه أن الدنيا في إبان الربيع . وكان القمر يضفي على المسكونة نوره اللجيني ، فيضاعف من رونق الطبيعة وجمالها ، وواجهه في الناحية الثانية من الخط الحديدي بيت الشيخ موران ، ورأى أنه ، تلقائيّاً ، يتقدم منه . ولـمّا وصل الباب الخارجي تريّث قليلاً ، ثم استدار على عقبيه يروم الرجوع ، ولكنه لمح فجأة ثغرة متسعة في السياج ، فدخل منها ، ودنا بخفة من البيت المعتم الغارق في سباته ، فكاد يتعثر بشخص منبطح على الأرض .

قفَّ شعر رأسه ، ونكص على عقبيه . ولكنه أدرك أن الشخص الذي أفزعه كان فلورا ، فصاح بها وقد هدأ جأشه وزال خوفه :

«ويلك يا فلورا ! ماذا تفعلين هنا؟» .

فأجابته ببرود : «ماذا تفعل أنت أيضاً هنا؟» .

وابتسم ولم يجب . ثم جلس قريباً منها وبادرها يقول :

«هل تحبين كابوش يا فلورا؟» .

قالت مبهوتة : «أنا أحب كابوش ! أصغ يا جاك . . أنا والحب ضدان ، ولن أحب إنساناً مهما كان هذا الإنسان !» .

«بيد أني سمعت عنك ما هو عجيب ، فما قولك بغارتك الشعواء على الفتيان الذين كانوا يسترقون النظر إليك ، وأنت عارية كما خلقك ربك؟» .

«وهل في هذا الأمر ما يثير الريب؟ كنت أغتسل في النهر عندما تسلّل الأشقياء إلى الدغل، وشرعوا ينظرون.. فما كان مني، بعد أن أحسست بوجودهم، إلاّ أن وثبت عليهم، وأمسكت باثنين منهم، فضربت رأس الواحد برأس الآخر، حتى كاد الرأسان يتحطمان!».

«وما قولك بعامل تحويل الخط؟».

«أتعني أوزيل؟».

«أجل أوزيل.. ويشاع أنك تخترقين النفق كل يوم لزيارته!».

«أتصدق هذا الهراء؟ أتظنني بلهاء حتى أجازف بحياتي، فأسير ميلاً في جوف الأرض، وأتعرّض للتمزيق من أجل أوزيل؟! واعلم أني أمج الرجل واستثقله، وقد ضربته يوماً على رأسه بهراوة كادت تشدخ هذا الرأس!».

«هناك إذاً رجل آخر!».

«لا أدري... لكني لا أظن!».

وتوقفت عن الكلام قليلاً، ثم استتلت وهي تستغرب في الضحك.

«وأنت؟ هل أنت عاشق؟ هل تحتفظ في مكان خفي بمحظية ترفّه عنك بمرحها وحسنها؟».

فتحوّل عنها وجعل يحدق إلى الليل البهيم ويفكر. ثم قال وهو شارد اللب:

«كلاّ.. كلاّ يا فلورا، وأنا وحيد، ليس لي أنيس ولا حبيب!».

«إذا صدق الناس في حدسهم، فقد أُنبئت أنك تمقت النساء وتقلوهن.. وأخالك مغرماً بقاطرتك، متيّماً بها، لا تفتأ تدللها وتداعبها!».

فرمقها الشاب بنظرة فاحصة، ورجع بذاكرته إلى الوراء ـ فرآها فتاة صغيرة تملأ أعطافها الحياة . . ورآها تثب إليه فرحة كلما دنا منها، فتقبّله بشوق، ويداخله الخوف من نظرتها الشرهة، الناطقة بالرغبة الجامحة ـ لقد أحبته من قبل أن تشب عن الطوق . . وها هي الآن تخلو به وتنتظر إشارة منه!

ووثب قلبه بين ضلوعه، وصعد الدم إلى رأسه، ونهض من مكانه، فتراجع خطوة إلى الوراء، كأنه يبغي الفرار من شيء يخيفه . .

لقد كانت رغبته، في كل مرة يختلج بها صدره، تحيل منه امرأً مسلوب الإرادة . . امرأً مجنوناً لا يتورع عن شيء!

«اجلس يا جاك وحدثني . . حدثني، فحديثك طلي يسرني ويدخل الراحة إلى قلبي . . فأمي وزوجها في خصام لا يريم . . هي تشك في نواياه، وهو لا ينفك ينقب في كل ركن عن ثروتها المزعومة التي آلت إليها من أبيها . . لقد عيل صبري وضاق صدري، ولم أعد أطيق هذه الحياة . أصبحت لا أجد راحتي إلاّ في خلوتي إلى نفسي، وانفرادي بأحلامي، ومراقبة قاطرتك في غدوها ورواحها، لأنظر إليك وأملي الطرف منك . . ومع ذلك، فأنت تتجاهلني وتعرض عني!» .

فأمسك جاك بيدها، وحاول أن يضمها إلى صدره . ولكنها دفعته عنها بقوة وهي تقول :

«لا، لا . . ابتعد عني، لا تقربني، فأنت على غرار غيرك من الرجال، لا تفكر إلاّ بهذه الأمور! لقد أخبرتني لويزيت بجميع ما حدث لها قبل أن تموت . . كما أني شهدت في هذه الدار، من دعر

موران وفجوره ، ما يندى له جبين الفضيلة حياء . . فهو يأتي بالنساء إلى هذا المكان المنعزل . . وهو كما أرجح يؤثر تلك الفتاة اليتيمة التي دبر الشيخ المتصابي أمر زواجها من شاب تعرفه حق المعرفة !» .

وغابت الدنيا في عيني جاك في تلك اللحظة ، فأطبق على الفتاة بقوة هائلة ، وعصرها بين ذراعيه ، وامتص رضاب شفتيها . . فندت من صدرها صرخة مكتومة ـ صرخة خافتة تعبر عن جزعها وفزعها ، كما تعبر عن النشوة العارمة التي طغت على قلبها في تلك الدقيقة . . بيد أنها لم تستسلم له . . ومع أنها كانت تهواه ، إلاّ أنها لم تشأ أن ترضخ ، فتغبن كما غبنت أختها من قبلها !

استمرت المعركة بين الاثنين ، بين نزوتين عارمتين . . وكانت فلورا أقوى منه وأصلب ، ولكنه كان قابضاً على عنقها بيد من حديد ـ بيد مجنون ـ وكانت يده الثانية تعبث في صدرها الريان النافر .

وخارت قوة الفتاة ، فارتمت صاغرة على ظهرها . . وأصابها الوهن والدوار ، فأطبقت جفنيها ، وخفق قلبها ، واشتعلت الشهوة الكامنة في صدرها ـ لقد قهرها جاك ، وله إن شاء ، أن يستحوذ عليها !

ولكنه بقي جاثماً فوقها ، وهو يلهث لهاث التعب والغضب . . وتقلّصت عضلاته فجأة ، وكشّر عن أنياب وحش ، وتحرّكت عيناه في محجريهما تبحثان عن سلاح ، أو عن حجر ـ عن أي شيء !

ورأى المقص الذي كانت تحمله الفتاة ، فمدّ إليه يداً مرتعشة ، وهو عازم على إغماده في الصدر الناهد !

وأحسّ بالقشعريرة تسري في ظهره ، وتفصد العرق من جبينه ، فرمى بالمقص من يده ، وانتصب واقفاً ، ثم انفلت من السياج وجعل

يعدو بأقصى سرعة ، وكأنه يهرب بنفسه من نفسه !

ودنا من النفق ، فأبصر قاطرة قادمة من بعيد . وما لبث التنين الهائل أن رمى برأسه في داخل النفق ، وهو يجر وراءه جسماً كالأفعوان المتلوّي !

وتهاوى جاك على الأرض ، وجعل ينتحب ويضرب الثرى براحته ! لقد عاده جنونه ، وها هو يشعر بالرغبة في القتل - قتل امرأة - فهو لم يكد يرى النهدين المكوّرين ، حتى فقد الحجى ، وكلبت نفسه المتعطشة إلى الدم ! أراد أن يريق الدم ويلغ فيه !

وسوّلت له نفسه المجنونة الرجوع إلى الفتاة ، ولكنه تشبّث بجذع الشجرة التي انطرح تحتها ، وارتفع صوته في نشيج وبكاء !

حاول أن يفهم سبب انقياده إلى أعصابه المسعورة ، ولكنه لم يفهم شيئاً . . وأيقن أنه وحش مفترس .

وحدّق في الظلمات الدامسة ، وفي فوهة النفق ، وخنقته العبرات . . فانكفأ ثانية على وجهه ، وهو يمرغ رأسه في التراب . واستعرض المشهد من أوله ، فعلا نحيبه ، وتضاعف وجيبه ، ولم تخمد أي فكرة نار بؤسه ويأسه . . لم يهدئ من روعه أي تعليل تذرّع به - لقد سوّلت له نفسه ارتكاب جريمة قتل ، ولم يرتدع إلاّ بأعجوبة !

واستعاد ذكرى الأيام الخالية ، وكان لا يتجاوز عامه السادس عشر . . ورأى نفسه بعين مخيّلته ، يهجم على فتاة تصغره بسنتين ، ويحاول الفتك بها . . وفي السنة التالية شحذ مطواة أطول نصلاً ، ليغيبها في عنق فتاة أخرى كانت تمرّ به كل صباح ، وهي في طريقها إلى المدرسة .

وتبع ذلك عدد من الحوادث ، فر في أثنائها من المسرح حذر الوقوع في الجريمة ، حين مالأته نفسه على الشر ، وزيّنت له إخماد أنفاس المرأة الجالسة في جواره .

وجعل يتساءل عن هذا الإيحاء المريع ، وهل رغبته الملحة في القتل هي أثر من آثار ثأر قديم؟ كان يتحرّق إلى حمل الفتاة التي يصرعها على كتفه ، كأنها فريسة انتزعها من براثن الرجال!

طاش تفكيره في تلك اللحظة ، وظلّلت عينيه سحابة كثيفة . . وتساءل وهو يزفر عن السبب . ولـمّا رسمت له الدنيا علامة سؤال ، ضرب رأسه بقبضة يده وصاح :

«يا ويلتاه! أما لهذا الليل من آخر؟ أما لشقائي وعذابي من نهاية؟» .

ومر قطار آخر في النفق ، فتذكّر قاطرته الحبيبة ، فأيقن أنه لا يجد السلام إلاّ في جوفها . والتفت إلى القطار الذي اخترق النفق ، فأدرك أنه القطار السريع الذي يغادر پاريس في الساعة السادسة والنصف .

وكومضة برق لمح ما جمد الدم في عروقه ـ رأى رجلاً يغمد مدية في عنق رجل آخر ، ورأى شخصاً ثالثاً يمسك بساقي الضحية!

غاب القطار عن الأنظار وتلاشى المشهد المريع . وأغمض عينيه ـ هل هو في أضغاث؟ أهي الحقيقة الهائلة؟ أهو لا يزال صريع ذلك المسّ من الجنون؟

طأطأ رأسه ومشى إلى الأمام في طريقه إلى منزل العمة فازي ، فلمّا وصل وهمّ بالدخول ، أبصر مزار يتحسس أسفل الحائط . وما كاد الرجل يشعر بوجوده ، حتى قال له دون أن يظهر القلق والارتباك :

«إنني أبحث عن علبة ثقاب سقطت مني !» .

ثم نهض واقفاً واستتلى : «كما أني أتيت لأحضر المصباح ، فقد تعثّرت برجل ملقى داخل النفق ، وأخاله ميتاً إن لم يكن ثملاً !» .

فارتعدت فرائص جاك ، وحملق كمن لا يصدق سمعه ، وقال :

«سأذهب معك . . هيا بنا !» .

ومشى مزار صوب النفق ، وجاك أتبع له من ظله . وما إن توغّلا قليلاً حتى تريّث مزار ، وأدنى المصباح من الأرض ، وقال :

«ها هو الرجل ، انظر . . أظنه جثة بلا روح !» .

ثم ناوله المصباح وتابع يقول :

«لا تقربه أو تمسه ، بل انتظر أوبتي» .

إنه قتيل القطار ـ هذا ما تبادر إلى ذهن جاك ، إنه القتيل الذي اشترك اثنان في قتله . وحدّثته نفسه بفحص عنق الرجل ، ولكنه أحجم خيفة أن يكتشف رجال الأمن عبثه بالجثة . . ولكنه مدّ يده إلى الرأس الجامد ، ولم يكد يفعل حتى قفز من مكانه مذعوراً ، فقد أحس بحركة خافتة قريبة من مكانه . فلمّا التفت إلى مصدر الحركة ، رأى أمامه فلورا .

وتقدّمت الفتاة فأخذت المصباح من يده ، وانحنت على الرجل وحرّكت رأسه باليد الأخرى . . فرأى جاك وجه القتيل وعينيه الجاحظتين ، رأى أمامه شيخاً مذبوحاً !

وصاحت فلورا : «انظر . . انظر . . إنه موران العجوز !» .

ولاحظت من بعيد أضواء خافتة خافقة ، فما كان من فلورا إلاّ أن أعادت المصباح إلى جاك ، وتسلّلت راجعة دون أن تنبس ببنت شفة .

ووصل مزار مع ناظر المحطة وحاجبين من حجابها .

*

في تلك الليلة فرضت الحراسة المشددة على الجثة الدامية ، فمنع الاقتراب منها ريثما يصل رجال الأمن والتحقيق في صبيحة اليوم التالي من روان !

- ٣ -

العربة الدامية

كانت ساعات الهاڤر تدق دقاتها الخمس عندما غادر روبو شقته .

وكان الطابق الثاني في مبنى المحطة مخصّصاً لسكن الموظفين ، والحجرات التي يشغلونها مع عائلاتهم تمتد في صفين متقابلين ، يفصل بينها ، من أولها إلى آخرها ، دهليز طويل .

نظر روبو حواليه ، ثم التفت خلفه ونظر إلى سيفرين التي لزمت مقعدها منذ رجوعهما من باريس في الساعة الحادية عشرة مساء ، وهي ساهمة الطرف ، شاردة اللب ، موزعة التفكير ، لا تبدي حراكاً ، ولا تردّ على كلام .

وتأمّل في الغرف المجاورة لغرفته ، فلم يقع طرفه على ما يثير الشبهات . . فمدام ليبلو ، زوجة محاسب المحطة ، تسترق النظر كعادتها إلى شقة الآنسة غيشون مديرة المكتب ، لترى فيما إذا كانت الفتاة مضطجعة في فراش واحد مع السيد ديدييه ناظر المحطة كما يشاع عن الاثنين !

ومع أنها لم توفق حتى الآن إلى دليل قاطع يدمغ الفتاة إلاّ أنها واظبت على فرض الرقابة اليومية ، دون أن تفتر لها همة ، أو تثبط عزيمة !

كما كانت هذه العجوز الشمطاء المتوغرة الصدر تضمر لروبو وامرأته أسوأ الشر ، لأنها كانت تعتقد أنهما جارا عليها واغتصبا منها شقة هي أحق بها منهما .

وكان مولان المراقب الليلي منهمكاً في إعداد قطار الصباح ، ساعة

نزل روبو إلى المحطة ليباشر أعماله . فسارا معاً على الرصيف ، وجعل مولان يسرد على مسامع رفيقه حوادث الليل .

وتوقف الاثنان قرب العربة رقم ٢٩٣ ، والتفت مولان إلى رفيقه قائلاً :

«أوامـر الصـبـاح تقـضي بفـصل هـذه العـربة من قطار پاريس السريع» .

فسأله روبو ، وقلبه يثب بعنف بين ضلوعه :

«وما السبب يا ترى؟ هل تعلم؟» .

قال : «لا أدري ما الموجب لهذا الإجراء» .

وغادر الرجل روبو ومضى في سبيله . وأقبل روبو على عمله ، وشرع يصدر التعليمات اللازمة لإعداد قطار الصباح الباكر ، وقطار پاريس السريع . . وحرص على تنبيه الرجال بأن يتركوا العربة رقم ٢٩٣ في مكانها نزولاً على الأوامر الصادرة من الرئاسة .

ووصل بريد الصباح ، فاستلمه روبو كعادته ، وحمله إلى مكتب رئيسه ديدييه . فرحب الناظر بمساعده ودعاه إلى الجلوس ، وتناول من يده الرسائل ونظر فيها ، ثم اختار من بينها برقية ، جعل يلوّح بها وهو يخاطب روبو . . ثم فضّها ، ولكنه لم يقرأها ، بل لبث يحدج روبو بنظرة تعبر عن برمه وضجره ، وكأنه يقول له :

«ما لك اليوم متكاسلاً تؤثر الجلوس على العمل؟» .

ودخل أحد السعاة ، فناول ديدييه برقية أخرى ، فأخذها من يده ، وألقى على روبو نظرة غيظ . فقام الأخير من مكانه ، وخرج وهو ينظر بوجه شاحب وعينين جامدتين إلى البرقية في يد رئيسه ، وكأنه يتلهّف إلى معرفة مضمونها قبل أن يقرأها !

والتقى بيكيه واقد النار، وكان كهلاً في الثالثة والأربعين من عمره، وكان يعمل مع جاك على خط الهافر پاريس. فلما رآه روبو قال له وهو يبتسم ابتسامة مغتصبة:

«هنيئاً لك يا بيكيه، فقد أنبئت أن قاطرتك تحتاج إلى ترميم، وأن في وسعك الاستراحة من عناء العمل مدة أربع وعشرين ساعة..».

فهز الرجل رأسه وأجاب: «وهل رأيت زوجتي في پاريس؟».

قال: «أجل، رأيت الأم ڤكتوار، وتناولنا أنا وزوجتي الطعام في بيتها. إن ڤكتوار امرأة طيبة، وألومك على معاملتك الشائنة لها!».

قال: «أنت أبله يا روبو، فڤكتوار ملمة بعلاقتي الغرامية، ولا تعارض فيها، بل تباركها بما تسقطه في جيبي من نقود، كلما صفرت يدي!».

وخرجت في تلك الدقيقة، من أحد الأكواخ القريبة، امرأة مديدة عجفاء، عرف فيها روبو فيلومين شقيقة مراقب الآلات التي اشتهرت لسنة مضت بأنها عشيقة بيكيه، وكانت لا تطيق العيش صاحية، بل تقضي سحابة يومها في احتساء الخمر.

وقد نال منها وطراً كل رجل من رجال السكة الحديد، وما أكثر ما سمعها الناس تصرخ صراخ الألم والاستغاثة، عندما كان أخوها ينهال عليها ضرباً، كلّما اكتشف ناحية جديدة من استهتارها وعبثها. ولكنها، كما يبدو ارتاحت نفسها لبيكيه، فانقطعت عن معاشرة سواه. كما أن بيكيه جاهر بأنّه يجد بين ذراعيها خلاصه من ذراعي امرأته البدينة!

ودنت المرأة من الرجلين وقالت تخاطب عشيقها وتمض بعينها:

«أنا ذاهبة إلى مدام ليبلو لأسمع منها آخر الأخبار عن جيرانها!».

ونظر روبو إلى ساعته فوجد أنها تشير إلى التاسعة والعشر دقائق ، فغادر الرجل وقفل راجعاً إلى مسكنه . ولـمّا وصل رأى جارته مدام ليبلو تتهامس مع فيلومين . وفتح الباب فالتفتت الاثنتان في آن واحد ، فوقع بصرهما على سيفرين التي ما برحت ملازمة مكانها .

ولم يبطئ روبو أن نزل إلى المحطة ، فهرع إليه ديدييه وناوله برقية وصلته قبل قليل ، وهو يصيح بصوت متهدج :

«خبر مزعج . . مأساة مروعة . . رئيسنا موران قتل في مكان يقع بين الهافر وروان . . أسمعت؟ الرئيس موران قتل ، ولا أدري ما الحافز إلى هذه الجريمة !» .

قرأ روبو البرقية وهو يشعر أن دمه غاض في شرايينه . وأعاد تلاوة البرقية وهو يرتعد فرقاً .

وأنقذه من اضطرابه قدوم الكولونيل غوش رئيس شرطة السكة الحديد السرية ، وكان جندياً متقاعداً ، يمضي نهاره في لعب الورق في المقهى ، ولا يقصد مكان عمله في المحطة قبل العاشرة صباحاً !

ولما دنا من الناظر ومساعده روبو ، سألهما عن العربة التي وقعت فيها الجريمة ، فانبرى روبو يقول :

«إنها العربة رقم ٢٩٣ ، وقد استبقيتها بمقتضى الأوامر الصادرة بهذا الشأن» .

وهرول الثلاثة إلى العربة رقم ٢٩٣ ، فصعد إليها الكولونيل ، وتبعه روبو وديدييه . وصاح الكولونيل وهو لا يقوى على كتم عجبه واشمئزازه :

«رباه ! ما هذه المذبحة المروعة التي وقعت هنا؟ !» .

وسرت همهمة خافتة بين الواقفين قرب المقطورة ، وشرع كل

واحد منهم يمد رأسه من الباب مستطلعاً .

وقال الناظر موجّهاً الحديث إلى روبو :

«كنت البارحة في پاريس يا روبو ، وقدمت في القطار ذاته ، فماذا رأيت ، وماذا سمعت؟» .

لم تطرف لروبو عين ، بل أجاب رئيسه بجأش رابط ، فقال :

«كنت مع زوجتي في پاريس ، وأتينا معاً في هذا القطار ، وأرى أن أستقدمها ، حتى تسمع كلامي وكلامها !» .

فقال الكولونيل : «أصبت . . قمين بنا أن ندعوها إلى هنا !» .

وتطوّع بيكيه واقد النار للذهاب ، واندفع بسرعة البرق إلى مسكن روبو ، بينما أخذت فيلومين تلاحقه بنظرات الغيرة والحقد !

ما هي إلاّ دقائق معدودة ، حتى ظهر بيكيه ومعه سيفرين . فتحوّلت إليها الأنظار ، وحدجتها العيون ، وهتفت فيلومين تقول بصوت مشرب تهكّماً :

«إنها تبكي ، وأظنها على حق ، فقد ذهب من كان يعينها ويدفع زوجها في عجلة التقدُّم والنجاح !» .

استقبلها روبو والكولونيل ، فعاجلها الأول بسؤال طرحه عليها ، قال :

«ألم نلمّ ببيت السيد موران زائرين في صباح أمس البارحة؟» .

قالت : «أجل ، وكان ذلك في الساعة الحادية عشرة وربعاً» .

وأردف روبو : «وبعد أن تباحثنا في بعض الأمور ، قال إنه يزمع الرجوع في اليوم التالي ، وأظنه أعرب عن رغبته في زيارة شقيقته في دوانفيل . . ألم يقل هذا يا عزيزتي سيفرين؟ ألم يعرب عن تصميمه؟» .

قالت : «أجل في اليوم التالي» .

قال الكولونيل غوش : «ماذا تقولين؟ في اليوم التالي؟ وكيف ، وقد رجع في اليوم نفسه؟» .

فسارع روبو يقول : «حينما أعلمناه أننا لا ننوي الرجوع في ذلك اليوم ، قال إنه ميال هو الآخر إلى ركوب القطار السريع . . ثم دعا زوجتي إلى قضاء عدة أيام في ضيافة شقيقته في دوانفيل . . إلاّ أن زوجتي لم تلب الدعوة . . أليس كذلك يا عزيزتي؟» .

قالت وهي تشرق بدمعها : «أجل . . أجل . . دعاني فرفضت !» .

قال روبو : «ووعدني بمدي بالمساعدة ، ثم رافقنا إلى الباب مودّعاً ، أليس كذلك يا عزيزتي؟» .

فولولت سيفرين قائلة : «نعم سار معنا حتى الباب» .

قال : «وقبل أن نركب القطار تبادلنا الحديث مع هنري دوفرن . وفي روان رأينا موران يقف على عتبة عربته ، فقصدت إليه وكلمته قائلاً :

ـ عجباً يا سيد موران ، كنت أظنك ماكثاً في پاريس؟

«فأجابني باسماً : ـ وصلتني برقية مستعجلة تلحّ عليّ . ولما ارتفع صفير القاطرة مؤذناً بالسفر ، انقلبت راجعاً . . أليس كذلك يا عزيزتي؟» .

فقال : «أجل . . أجل . .» .

وسأله الكولونيل وهو يتأمل في أساريره : «ألم تلحظ معه أحداً في العربة؟» .

قال : «لم أر أحداً» .

ثم تفرّس في الوجوه الصامتة ، واستطرد : «وفي برنتين تقابلت

وجهاً لوجه مع بازييه ، وتجاذبنا أطراف الحديث» !

ووصل في أثناء ذلك قطار الساعة التاسعة والثامنة والثلاثين ، ونظر جاك متفرّساً في وجوه الجمهور الغفير المحتشد قريباً من العربة الدامية ، ثم نزل من قاطرته ، ووقف في مكان قريب ينصت إلى ما يقال .

واسترعى انتباهه روبو وزوجته سيفرين ، وكان يعرفهما معرفة سطحية ، ولكنه رأى الآن في وجه سيفرين ما لم يره من قبل ـ رأى عينيها الزرقاوين ، وشعرها الفاحم ، وقدها الممشوق ، والجاذبية المتناهية التي كانت تنضح من ثناياها ، فتشع من عينيها ووجنتيها وفمها !

وطفق بيكيه واقد النار يصف لجاك ما حدث . بيد أن الأخير قاطعه بصوت جهير قائلاً :

«إنني أعرف كل شيء ، فقد شاهدت الجريمة بعيني !» .

فاستدار نحوه المجتمعون وهم بين مصدّق ومكذّب ، واجتاحتهم عاصفة من التساؤل والترقب . . والتقت عيناه بعيني سيفرين المستعبرتين .

وأقبل عليه الكولونيل يقول :

«ماذا رأيت؟ حدّثنا ، ماذا رأيت؟» .

واختلس جاك النظر إلى سيفرين ، ثم أجاب رجل الأمن فقال :

«بينما كنت أقف في مكان مشرف على مدخل النفق ، إذ بقطار باريس السريع يمر بي ، فرأيت شخصاً في داخله يذبح شخصاً آخر . . .» .

وقاطعه الكولونيل قائلاً :

«أفي وسعك التعرّف على الجاني؟» .

«كلاّ . . لا يتسنى لي ذلك ، فالمشهد مرّ كومضة برق ، ولم يستغرق جزءاً من ثانية !» .

وتبادل روبو وسيفرين النظرات .

وتفرّق الجميع ، فتقدم روبو من جاك ، فشد على يده مصافحاً ، ثم غادره ومضى .

وبقيت سيفرين معه ، وكانت عيناها النجلاوان تنظران إليه في ضراعة وتوسّل !

فخفق قلبه ، وتصاعد الدم إلى رأسه ـ فهي جميلة فاتنة ، فهل يصحبها إلى بيتها؟ هل يمشي معها؟ هل يطلب إليها ذلك؟ وماذا يحدث إن فعل؟ ماذا يحدث إن وافقت؟ !

- ٤ -
التحقيق الجنائي

بعد ثلاثة أسابيع استدعى دنيزيي المدعي العام شهود الحادث إلى مكتبه في روان .

وكانت الضجة التي أحدثتها الجريمة تفوق الوصف في وحشيتها ، فقد امتلأت بأخبارها أعمدة الجرائد الپاريسية والإقليمية ، وحاولت الصحافة المناوئة أن تجعل منها جريمة سياسية ذات مغزى خاص ، وروّج المغرضون لمختلف الشائعات المثيرة عن تهتك المجني عليه وعن مغامراته الغرامية .

كما ساد الأوساط الاجتماعية الاعتقاد بأن الحزب ، الذي ينتمي إليه موران ، يحاول أن يلقي على الجريمة البشعة ستاراً كثيفاً من النسيان ، درءاً لما قد ينجم عن التحقيقات من فضائح ومثالب تضير بمصلحة الحزب وكيانه !

أيقن دنيزيي أن مستقبله ، كمدع عام معروف بالنزاهة والاستقامة ، يتوقّف إلى حد بعيد على تصرفه المنزه في التحقيق بحكمة ، لهذا فقد حرص كل الحرص على معالجة القضية بحكمة وكياسة . فقصد پاريس ، حيث اجتمع مع كامي لاموت رئيس دائرة العدل ، ورجع من هذه المقابلة ، وهو فريسة للهم والغم واختلاط الرأي . . فكامي لاموت كان ترب المجني عليه إبان الدراسة ، وصديقه الحميم المقرّب ، المطلع على دفائن أسراره . وقد شدّد النكير على دنيزيي ، وطالبه ببذل أقصى الجهد حتى ينجح في الكشف عن المجرم المجهول .

وعاد بعد أيام ، فأوصاه بالصبر والتريّث في إجراءات التحقيق !

أيقن الرجل أن رئيسه يعمل في طيّ الكتمان، يبث العيون والآذان، ويتسقّط الأخبار، ويجمع المعلومات، حتى إذا ما جمع في يده خيوط الجريمة، عمد إلى التمويه، وجنح إلى تضليل الرأي العام لحاجة في نفسه اقتضتها الظروف السياسية الراهنة!

غير أن المدعي العام الكهل، الذي قضى سنين عديدة وهو يتعقب الجريمة ويحارب المجرمين، ضرب بهذا الأمر عرض الحائط، وآلى على نفسه أن ينشط في عمله، ويقوم بواجبه على أفضل وجه، فزجّ بعدد من المشبوهين في السجن، وأرسل في طلب عدد من الشهود.

وجاء روبو وزوجته سيفرين في الساعة الواحدة والنصف إلى مكتبه، وكان المكتب الفسيح يحتوي مقعدين كبيرين وأربعة مقاعد صغيرة، ومكتبة المدعي العام.

ويقع وراء المكتبة باب صغير يفضي إلى غرفة يلوذ بها شهود المباغتة متى اقتضت الظروف، أمّا الباب الآخر فقد كان يقود إلى غرفة الانتظار!

جلس روبو وزوجته في غرفة الانتظار، وكانت سيفرين متشحة بالسواد، وقد انطبع القلق جلياً على محياها. وكان الزوجان يتبادلان النظرات خلسة، وكلما التقت عيونهما، حام حول وجهيهما شبح من الجريمة الرهيبة التي تعاونا على ارتكابها.

ودخل جاك في الساعة الثانية، فهب روبو من مكانه، وهرول نحوه، فصافحه بحرارة، وضغط على يده، وكأنه يرحب بأخ غاب عنه زمناً! ولم يلبث أن قال متبرّماً:

«تباً لهم! متى ينتهون من إعناتنا في كل يوم بهذه القضية؟».

والتفت جاك إلى سيفرين ، ودار في خلده خاطر عجيب ـ ماذا أصاب روبو وامرأته حتى جعلا يتودّدان إليه ويحوطانه بصنوف من المحبة ، وعهده بهما عزوفين صدوفين ، لا يكترثان به ولا يقيمان لشخصه وزناً؟

فما من يوم يصل فيه إلى الهافر دون أن يلاحقه روبو بعبارات الملق ، ويضفي عليه ألواناً زاهية من حدبه وتودده ، حتى إنه لم ير بدّاً في أحد الأيام من مرافقته إلى مسكنه ، ومشاركته طعامه ! فماذا أصاب الزوجين حتى بدّلا الجفاء محبة ، والنأي قرباً؟

ودفعه روبو وهو يقول : «هلم بنا إلى زوجتي ، فهي متشوقة إلى رؤيتك ومحادثتك !» .

فاقترب جاك من سيفرين فحيّاها بابتسامة عريضة ، ولم تغب عنه في تلك اللحظة النظرة الخاطفة التي تبادلها الزوجان خلسة !

في تلك الهنيهة ، دلفت برتا وزوجها شيسني إلى الغرفة ، فلمّا رأيا سيفرين وروبو أشاحا وجهيهما عنهما ، وأعرضا متجهّمين وهما يدنوان من مكتب المدعي العام ، ويفتحان الباب ويدخلان دون استئذان .

وهز روبو رأسه وهو يجلس إلى يمين زوجته ، وأومأ إلى جاك أن يحذو حذوه ، فيتخذ له مجلساً في المكان الخالي عن يسارها . فتردّد الشاب قليلاً ، ولكنه جلس أخيراً إلى جانب سيفرين ، عندما رنت إليه بطرف كسير ، فيه ضراعة وتوسل وإغراء طاغ !

أمّا في حجرة المدعي العام ، فإن دنيزيي ما كاد يبصر شيسني وقرينته مقبلين نحوه ، حتى نهض واقفاً وهو يرحب ببرتا ، ثم قدّم لها مقعداً دون أن يعبأ بشيسني ، أو يلتفت إليه ، أو يبادله عبارات المجاملة !

وقال دنيزيي بعد أن استتب بهما المقام : «أستميحك عذراً يا سيدتي لاضطراري إلى تعكير صفوك والرجوع بك إلى تفاصيل الفاجعة الأليمة ، بيد أنك لن تدخري وسعاً في مساعدتنا ، حتى يتسنى لنا العثور على قاتل أبيك . . .» .

فقاطعه شيسني وهو يصر بأسنانه : «ما هذا الهراء الذي لا طائل تحته يا دنيزيي؟ انظر وصيته إن شئت التعرف على القاتل . . راجع الأبحاث الواردة في هذه الوصية . . أسماء نساء وفتيات لم يسمع بهن أحد . واعلم أني لن أصبر على هذا الضيم . . لن أكون حليماً . . بل سأسارع إلى إقامة الدعوى حالما تنتهي من التحقيق !» .

فأجابه المدعي العام وهو لا يخفي امتعاضه : «نصيحتي التي أمحضك إياها ، يا سيدي ، هي أن تربأ بنفسك ، فلا تعارض في وصية صحيحة شرعية ، لا لبس فيها أو غموض !» .

قال : «لا أقيم وزناً للنصائح ، وثق أني لن أدع روبو وزوجته يفوزان بالمنزل الواقع على مفرق موفرس . . ومن يعلم؟ ربما كان لهذه الخادمة وزوجها ضلع في الجريمة !» .

«أتظن ذلك؟ هل ترتاب فيهما؟» .

قال : «إنهما مطّلعان على الوصية ، ملمّان بكل ما جاء فيها . . وعلى ذلك فموت الشيخ جاء لمصلحتهما . . وهما أيضاً الشخصان الوحيدان اللذان كلّماه قبل مصرعه !» .

واستدار المدعي العام إلى برتا ، وقال كأنه يستطلع رأيها :

«وأنت يا سيدتي ، ماذا تقولين في عشيرة الصبا؟ أتظنين أنها أهل لاقتراف الجريمة النكراء؟» .

ونظرت برتا إلى زوجها في ارتياح ، وقالت :

«هذه المرأة . . هذه المرأة . . لقد عرفتها منذ الصغر ، ولمست فيها غريزة الشر !» .

فقال المدعي العام : «ماذا؟ أتتهمينها بسوء الخلق؟ وبالنزوع إلى الأذى؟ هل كانت إبان إقامتها بينكم تجنح إلى الأعمال المضرة؟» .

«كلاّ ، كلاّ . . بيد أنها كانت تبطن ما لا تظهر ، وإلاّ لما استبقاها أبي في منزله دقيقة واحدة !» .

فلاحت أمائر الضجر على محيا دنيزيي ، وقال وهو يلوّح بيده : «لقد انحرفنا عن صلب الموضوع . . إن روبو وزوجته في اعتقادي بريئان لا يرتكبان جريمة القتل ، فضلاً عن أنهما لا يستبيحان القتل لمجرد التعجيل بوضع اليد على ما أوصى به لهما ، والاستيلاء على هذا البيت . لنبدأ القصة من أولها ، فما من إنسان أفاد أنه شاهد روبو وزوجته يلجان عربة القتيل ، كما أن موظّفاً أقسم أنه رآهما يهرعان إلى عربتهما في محطة برنتين ، وكان من المفروض ، لو شاءا أن يصلا خفية إلى عربة القتيل ، أن يخاطرا بحياتيهما ، فيتسلقا ظهر القطار ، وهو منطلق ، ويزحفا فوق ثلاث عربات حتى يصلا . . وهذه مخاطرة يحجم عنها أشجع الشجعان !» .

وفتح الباب ، فتوقف المدعي العام عن الكلام . ودخلت امرأة أنيقة متلفعة بالحداد ، فلما رآها دنيزيي انتصب واقفاً ووجهه يتألق بشراً ، وقال :

«قدمت أهلاً يا مدام بوني ، عسى أن تكوني بخير بعد النائبة التي ألمت بك؟» .

فتألق وجه المرأة سروراً وقالت :

«لقد قويت على المحنة ، وتغلبت على الكارثة» .

والتفتت إلى برتا وزوجها ، فبشّت لهما وحيتهما بلطف وإيناس .

وابتدرها المدعي العام قائلاً : «زعم أحد الشهود أن أخاك استلم برقية تطالبه بالحضور ، فهل كنت مرسلتها؟» .

قالت : «كلاّ ، لم أرسل له البرقية ، بيد أني كنت أتوقع مجيئه نظراً لحاجتي إلى المال ، ولا بد أنه كان يحمل معه مقداراً كبيراً منه ، لذا تراني أعزو الجريمة إلى السرقة !» .

فصعّد المدعي فيها نظره ، وتأمل مليّاً في وجهها ، ثم قال بغتة : «ما رأيك بسيفرين؟» .

فأجابته محتجة : «عزيزي دنيزيي ، كيف تبيح لنفسك إرهاق هذين الزوجين الطيبين بظنونك وريبك؟ من يا ترى يوغر صدرك عليهما؟ لقد صادفتهما في الحجرة المجاورة ، وأخالك تبيّت لهما الشر . . ألا فاعلم أن سيفرين امرأة فاضلة حسنة الخلق ، وأن ذنبها الوحيد ولا مراء هو جمالها وحسنها !» .

والتفتت المرأة إلى ابنة أخيها الدميمة ، وإلى زوج ابنة أخيها القبيح ، وتابعت تقول :

«واعلم أن سيفرين وزوجها بريئان من هذه الجريمة ، براءة الذئب من دم يوسف . .» .

فانبرى شيسني يقول : «غير أن روبو هو الشخص الذي تكلم عن البرقية ، فلو كان هذا محض اختلاق ، فما سبب نزوعه إلى الكذب؟» .

وتساءل المدعي العام : «ولم تشكك في صدقه؟ ألا يجوز أن يكون موران قد عمد إلى ابتداع قصة البرقية ، حتى يكون لسفره المفاجئ ما يسوّغه؟» .

وصمت الرجل لحظة ، ثم استتلى موجّهاً الحديث إلى مدام بوني :

«ثقي يا سيدتي أني أجلّ ذكرى أخيك الراحل ، بيد أني لا أجد مندوحة من سؤالك عن صحة ما أشيع عن غرامياته !» .

فافتر ثغر المرأة عن ابتسامة مشرقة وقالت :

«فقد أخي زوجته وهو في أوج قوته ورجولته ، لهذا لم أتتبع تصرفاته الشخصية ، فقد كان له مطلق الحرية والحق في التمتع بمباهج الحياة !» .

«وماذا تظنين بالفتاة الصغيرة التي قضت نحبها ، وراجت الأقاويل عن سبب موتها؟» .

«إن كان قصدك لويزيت ، فاعلم أنها كانت فتاة خليعة مستهترة ، لا تقيم للشرف والكرامة وزناً ، وقد أحبّت بالرغم من حداثتها مجرماً قضى السنين في السجن ، فأعطته من جسدها ، وأعطته من عفتها ما شاء ! أما ما أرجف عن أخي وعلاقته بها ، فهو تخرص أدحضه . . فكّر يا سيدي ، فكّر . . فتاة في الرابعة عشرة تلازم مجرماً عريقاً في الإجرام ، يدعى كابوش ، فتقضي معه الأيام الطويلة في الغابات المهجورة . وقد رآهما الناس معاً وتكلموا عنهما ، وعندما تكفّلت بالفتاة ، أخفى ذووها عني أنهم كانوا يعذبونها حتى تقلع عن اتصالها بهذا الشرير . . ثم راجت تلك الشائعة المغرضة عن اعتداء أخي على عفافها ، ما أدى إلى انهيار صحتها وموتها ! ألست ترى في هذه الأسطورة سخفاً لا معتمد عليه؟ ومكيدة كان المراد منها تشويه اسم أخي وسمعته؟ وهل يعقل أن يعمد أخي إلى هذه الوحشية ، فيفترس فتاة لم تشب عن الطوق؟» .

وتنفّست المرأة الصعداء واستتلت :

«لا أنكر أن أخي الراحل داعبها ، فقد كان ميّالاً بطبيعته إلى الفتيات الصغيرات . . ولكن . . .» .

فقاطعتها برتا بصوت تخنقه العبرات :

«لا . . لا . . ما أقسى قلبك يا عمتاه ! لا . . لا . . لا تخدشي سمعة أبي ، فقد كان يربأ بنفسه عن المنكر !» .

فهزت مدام بوني كتفيها غير مبالية وقالت :

«الصراحة في القول والفعل ديدن في طبعي يا عزيزتي ، واعلمي أن الفتاة المستهترة زعمت أمام عشيقها أن أخي اعتدى عليها وحاول النيل منها . . فلما تخرّمها الموت ، جن جنون المجرم ، فراح يهدد أخي ويجهر أمام الناس أنه لن يبطئ أن يذبحه كما تذبح النعاج !» .

فقال المدعي العام : «أمتأكدة أنت من ذلك؟ وهل لديك الشهود الذين يؤيّدون كلامك؟» .

قالت : «لا شك في ذلك ، والشهود على قدم الاستعداد للإدلاء بما يعرفون» .

اكتفى النائب العام من أقوالهم ، فصرفهم من لدنه ، واستقدم جاك ، فعكف على استنطاقه واستجوابه . سأله عن الجريمة كما شاهدها . . وسأله عن أوصاف المجرم وثيابه وشكله . . غير أن جاك لاذ بالصمت ، وكأنّ لسانه ألجمته الحيرة !

فانتاب المدعي العام غضب شديد وصاح به متأجّماً :

«أنت تسعى إلى حتفك بظلفك أيها الشاب ، أنت تترامى في النار بمحض اختيارك . . أيها الحاجب ، استدع السيد روبو وزوجته !» .

دخل الزوجـان وهمـا يقـدمـان رجلاً ويؤخـران أخـرى ، وجلسـا صامتين ساكنين ، يرمقان جاك بنظرات الخوف والتوجّس .

وقال المدعي العام وهو يحدج سيفرين بنظرة يتطاير منها الشرر :

«كنت قد أعربت للكولونيل غوش عن احتمال تسلل المجرم إلى عربة المغدور في مدينة روان ، فماذا حفزك إلى هذا القول؟» .

فتململت سيفرين في مجلسها ، وعلا الشحوب وجهها ، وأجابته مترددة متلعثمة :

«أواه يا سيدي ! إنه مجرد افتراض أملته عليّ الفاجعة !» .

«فأنت لم تبصري إذاً أحداً في عربة موران؟» .

«كلاّ . . كلاّ . .» .

«وأنت يا روبو ، ماذا تقول؟» .

فقال روبو وهو يرتعد فزعاً :

«أنا . . أنا . . لا أجد ما أضيفه إلى أقوالي السابقة ، ولكني موقن أني رأيت الرجل ، فقد مرّ بي !» .

«وهل هو مديد القامة ، عريض المنكبين ، هرقلي الجسم؟» .

«أصبت ، فهو مارد قلّما تجد له مثيلاً !» .

فتحول المدعي العام إلى جاك وقال :

«وأنت يا جـاك . . هل كـان القـاتل طويلاً عـريضاً ضخـماً؟ أو . . في مثل قامة روبو؟» .

فتلدّد جاك وتلوّى ، ثم قال :

«لا أخاله يزيد ارتفاعاً عن روبو !» .

فـصاح روبو مـحتـجاً : «أنت مـخطئ يا جـاك ، فـهـو أضـخـم مني وأكثر طولاً !» .

فاتسعت حدقتا جاك ونظر إلى وجه المدعي العام .

وانكمش روبو على نفسه ، وقد أدرك خطأه . . ونظر إلى جاك . . نظر إلى الرجل الذي يستطيع بكلمة واحدة أن يورده موارد الهلكات !

والتقى النظران ، ففهما كل شيء . . لقد تهاوت السجف التي فصلت بينهما . . رأى كل منهما الآخر . . وفهم كل منهما ما يخامر ذهن الآخر !

وأطرق المدعي العام يفكّر ويستنتج ، وما لبث أن حولهم إلى حجرة صغيرة ، ثم أومأ إلى الحاجب ، فغاب قليلاً ، ولـمّا عاد أدراجه كان وراءه جنديان مدجّجان ، ورجل عظيم الهامة ، كبير الجسم ، متين البنية !

ووقف المارد في مكانه كالمأخوذ ، وتفرّس فيه المدعي العام مصعداً عينيه في وجهه ، ثم أشار عليه أن يجلس ، وأنشأ يطرح عليه الأسئلة المتتابعة ، ويصغي بانتباه إلى أجوبته وردود الفعل المختلفة ، قال :

«أتعرف التهمة المنسوبة إليك؟» .

«لا يا سيدي !» .

«أكان لك سابق معرفة بموران؟» .

«أجل» .

«ولويزيت ، محظيتك؟» .

فقفز كابوش من مكانه وصاح وهو يرتجف حنقاً :

«إياك والشطط ! إياك والهذر ! لا تظلم لويزيت . . لقد كانت طاهرة الذيل ساذجة ! فأقلع عن هذا التجني ! يا إلـهي ! إني أقتل

من يتجرأ على وصم اسمها !» .

«أنت إذاً تنكر أنها كانت عشيقتك؟» .

«يخلق بك أن تستوعب كلامي . . كانت لويزيت في عمر الزهرة عندما غادرت السجن ، كانت ترتاح إليّ ، وتثق بي ، وتبثني همومها وشجونها . ما أكثر الساعات التي كنا نطويها معاً في الغابة . لا أنكر أني أحببتها ، ولكنهم حرموني منها ، فأرسلوها إلى المرأة العابثة القاطنة في دوانفيل . وفي مساء أحد الأيام ، وجدتها على عتبة مسكني وهي فاقدة الرشد . . وماتت بعد أن باحت لي بكل شيء عن موران القذر ، موران المجرم الجلاّد !» .

«هل تنكر أنك توعدت موران بالقتل؟» .

«كلاّ . . وكنت عاقداً العزم على قتله عقاباً على ما جره على لويزيت من ويلات أفضت إلى هلاكها !» .

«أين كنت ليلة الجريمة؟» .

«في فراشي . . فقد شعرت بصداع أليم فلذت بالفراش» .

«دعك من الكذب يا كابوش ، فقد شوهدت في قطار باريس السريع ، ولا شك أنك تسلّلت إلى عربة موران وذبحته بوحشية !» .

فقهقه كابوش ملياً وقال :

«هذا سخف من القول ، واعلم أني لو كنت قاتله لفاخرت !» .

ونهض المدعي العام ، ففتح باب الحجرة الصغيرة واستدعى جاك وقال :

«أتعرف هذا الرجل؟ هل رأيته من قبل؟» .

«أجل ، في بيت مزار» .

«ألا يساورك الظن في أنه الشخص الذين قضى على موران؟» .

فتردّد جاك هنيهة ثم قال : «لا أظن ذلك ، أو بالأحرى ، لست متأكّداً» .

واستدعى دنيزيي جاك روبو وزوجته ، فما كادا يلجان القاعة حتى نظر إليهما كابوش مبتسماً ، وأخذ يومئ برأسه .

وقال المدعي العام : «أهذا هو الشخص الذي مرّ بكما في محطة روان؟» .

فابتلع روبو ريقه وقال : «يا سيدي . . أتذكّر رجلاً في مثل طوله وسمته وشكله !» .

فصاح المدعي العام : «هذا هو الرجل إذاً !» .

فقال روبو : «لا أستطيع أن أقطع برأي ، غير أن الشبه عظيم بين الاثنين» .

فصرّ كابوش على أسنانه وقال : «أيها الآفك المنافق ! أيها الكاذب !» .

وتقدّم منه متهدّداً ، غير أن المدعي العام لم يمهله ، بل أهاب بالجنديين ، فهرعا إليه واقتاداه عنوة إلى الخارج .

وعاد دنيزيي إلى مقعده وهو يتنفس بارتياح وقال : «إنه بلا ريب الرجل الذي نبحث عنه . . إنه الرجل . . ألم تروا نظرته المتوحشة ، وتستدلوا منها على أنه مجرم يستبيح القتل؟» .

ودخل الحاجب فناول رئيسه مظروفاً كبيراً ، ما كاد يفضه حتى تبدّلت ملامحه ، وعلا وجهه التقطيب ، واسترسل في التفكير . ثم رفع رأسه ، ونظر إليهم جميعاً .

وخفق قلبا الزوجين ، واستحوذ عليهما الهلع ، لقد اتجه تفكيرهما في آن واحد إلى الرقعة الصغيرة التي كتبتها سيفرين رغم أنفها إلى

موران . . فهل عثر عليها كامي لاموت رئيس دائرة العدل يا ترى؟

وألقى المدعي العام المظروف من يده وقال :

«اذهبوا الآن ، وسأرسل في طلبكم متى احتجت إليكم» .

وخرجوا ، وفي صدر كل منهم أفكار تجيش متصارعة ـ فجاك يفكر في الشخصين اللذين تعاونا على قتل موران . . وروبو وسيفرين يفكران في الطريقة التي يأمنا جانب جاك بها !

وما كادوا يجدون أنفسهم في الطريق ، حتى قال روبو وهو يربت كتف جاك بتودّد :

«إن زوجتي ذاهبة إلى پاريس في شأن من شؤونها الخاصّة ، فأرجو منك أن تبذل لها كل مساعدة . . فهل تفعل؟» .

ودون أن ينتظر الجواب ، صافحه وقفل راجعاً مع زوجته !

ـ ٥ ـ

سحر امرأة

دخل قطار الهافر السريع محطة باريس في الساعة الحادية عشرة ، فنزلت سيفرين وشقّت طريقها في الزحمة حتى دنت من القاطرة ، فرأت جاك واقفاً في مكانه ، وبيكيه الواقد وراءه ، وصاحت بأعلى صوتها :

«هنا . . في الثالثة ، في الساعة الثالثة . . انتظرني هنا» .

وذكّرها مرورها بأحد المقاهي أن ساعة تناول طعام الغداء قد حانت ، فعرجت على المقهى ، وجلست في ركن منعزل ، وجعلت تأكل ، وتفكّر بما آل إليه أمرها من الذل والهوان ، كما أنها فكّرت بما قرره روبو من إرسالها إلى كامي لاموت على إثر الشائعة التي أطلقتها مدام ليبلو ، وروجت لها فيلومين عشيقة بيكيه ، من أنه ـ أي روبو ـ سيطرد من عمله ، لأن الشبهة حامت حوله . . .

فالسؤال باق بلا جواب عن التهمة ومدى قوتها . .

فلو عثر كامي لاموت على الرقعة التي كتبتها إلى موران ، لانكشف أمرها ، وبان ما خفي من جريمتهما ، وعلى ذلك فهي مضطرة إلى المجازفة بكل شيء ، ومقابلة كامي . . فإمّا أن تخسر كل شيء ، وإمّا أن تكسب حياتها ، وتصون مستقبلها !

وشعرت بالألم في فمها ، وبالغصّة ممتزجة بكل لقمة تلوكها .

نظرت إلى الساعة ، فإذا بها تشير إلى الواحدة ، فغادرت المقهى مهرولة متجهة إلى مسكن كامي لاموت ، ولمحت دنيزيي المدعي العام في منعطف من الطريق ، فنكصت على أعقابها حتى لا يفطن إلى

وجودها ، ثم تابعت سيرها حتى وصلت ، فطرقت الباب .

فتح الخادم لها الباب ، فقادها ، بعد أن استوضحها عن أمرها ، إلى قاعة الانتظار حيث وافاها لاموت بعد قليل .

ما كادت تراه مقبلاً ، حتى قالت بصوت خفيض : «دعني أعتذر على تطفّلي يا سيدي ، لقد حفزتني ثقتي بك إلى اللجوء إليك ، وأملي عظيم في إهراعك إلى نصرة المظلوم ، فأنا أعتبرك بطلي وملاكي الحارس !» .

تكلمت سيفرين بعذوبة لا أثر للتكلّف فيها ، حتى داخل روع كامي لاموت أنها صادقة كل الصدق ، وأنها لا تموّه ولا تكذب !

واستتلت تقول : «ولا أنسى تلك الأيام الميمونة التي كنت تزورنا إبانها في مسكن مدام بوني في دوانفيل ، فأنظر إليك نظرتي إلى الرجل القوي . . آه ! لو قدّر لي أن أكنه الغيب في تلك الأيام ، لما ترددت في اللجوء إليك لتدرأ عني المحن والرزايا ! فهل بعد هذا كله أكون مخطئة لو توسّلت إليك أن تكلأني وتحميني؟ لقد كان موران صديقك وليّ أمري ، كان يمحضك الحب والإخلاص ، ويتوقع أن تنجز ما بدأه من مشروعات عظيمة . . أفلا تغتبط روحه متى علم أنك بسطت عليّ جناح حمايتك؟» .

صمتت سيفرين . وتنحنح كامي وقال : «أذكرك صغيرة ترتعين مع لداتك ، وتمرحين مع صويحباتك . . وإنني حقّاً كنت صديق موران الحميم . . ولكن هذا لا يمنعك من الإفصاح عما يجيش في صدرك» .

«ساعدني يا سيدي . . أقل عثرة زوجي ، فهو رجل طيب ، وموظف مخلص . . ولكنه قد يفقد مركزه بسبب الحسد الذي ينهش قلوب زملائه !» .

«لماذا تظنين أن شركة السكة الحديد قررت فصله؟» .

«هل تصدق بربك؟ لقد حامت حولنا الظنون ، وجعل الناس يمضغون الشائعات ويلوكون الأراجيف ، ويهمسون فيما بينهم بأننا ذبحنا موران ، وليّ أمري ، لأنه أوصى لي بشيء من تركته . . ومع أننا بدّدنا سحابة الشك التي انعقدت فوق رأسينا ، إلاّ أن الشركة تخشى الانتقاد ، كما أظن ، وتتجنب الظهور كفريق ثالث في فضيحة يسعى إليها بعض ذوي الضمائر النخرة !» .

تأمل لاموت الأنيق في ملامحها ، فراعه ما شاهده من حسنها ، وعلّق يناجي نفسه فيقول :

«تبّاً لموران العجوز ! كان يكبرني بعشر سنين ، ومع ذلك كان لا يبخل على نفسه بما يشتهيه من ضروب المتعة . . بينما أنا ، أنا الشاب بالنسبة إليه ، لا أجد ما أفرج به عن قلبي ، وأنفس عن عاطفتي المكبوتة !» .

وتراقصت على شفتيه بسمة من بسمات الصبا البائد ، وشعر بنسمة من الدفء تسري في دمه ، وتتغلغل في جسده . . وتاق وحنّ !

لم يفت سيفرين ما اعتمل في صدر الرجل ، فعجلت تقول : «أناس مثلنا يا سيدي لا يرتكبون جريمة القتل لمجرد الطمع في مال ، بل هم إن قتلوا فلسبب أخطر !» .

فتقلّصت عضلات وجهه ، وحدّق إليها . . وانهتك الستر ، فرآها على حقيقتها . . وانجلى الضباب الكثيف ، فوضح الغامض ، وأيقن أنها مجرمة ، شاركت زوجها في قتل وليّ نعمتها !

فطنت سيفرين إلى ما خامر فكر كامي ، ففر الدم من محياها ،

ونقمت على نفسها لما أبدته من خرق، ولما ثرثرت به من هراء! ولعنت لسانها، لأنه وشى بها، وبيّن لرجل القانون الحقيقة الخفية!

وتكلم لاموت، وكأنّ كلامه خرج من مكان عميق سحيق.. قال:

«يا سيدتي، لن أبخل على زوجك بالمساعدة، ولكني في حاجة إلى المعلومات، فأرجو أن تكتبي لي اسمه وكنيته وسنه».

وأمسكت سيفرين بالقلم الذي قدّمه.. وطاف بخلدها فكر مريع - إنه يريد عينة من خطي ليقارنها بالكلمة التي كتبتها إلى موران، ولكنه يعلم يقيناً أني كاتبة الرقعة، فما نفع المماطلة والمكابرة؟ ولم أعمل على تأريث نار الريبة في صدره؟

وكتبت ما طلبه.. ولـمّا انتصبت واقفة، دنت منه حتى لمس نهداها صدره. ثم قالت وهي تتنهّد:

«آه يا سيدي! فكّر بنا، وارث لحالنا.. كن لنا ظهرياً على أعدائنا!».

ورافقها كامي إلى الباب، ولـمّا صافحها، أبقت يدها في يده، وجعلت تضغط، وتنظر إلى عينيه في ضراعة وتوسّل، ودعوة صريحة فاضحة! فانبهرت أنفاسه، وتولته رعدة خفيفة.. وسرت تلك الموجة التي شعر بها قبلاً في جسده ثانية، وسمع صوته يقول:

«عودي في الخامسة مساء، فربما جدّ ما يستحق الذكر!».

ولما آب إلى مكتبه راجعاً، كان يمشي بخطى متثاقلة، وبرأس مطاطئ.. ثم لم يعتم، وقد احتوته الحجرة المزدانة بكتب القانون، أن غاص في الفكر...

رأى نفسه بين المطرقة والسندان! فماذا أولى به أن يفعل

والانتخابات باتت على الأبواب؟ ماذا يفعل والصحف تشهر سلاحها وتشن حملاتها ، وتلصق المثالب بالحزب؟ هل يترك للعدالة حريتها لتقتص من المجرم؟ هل يلقي القبض على روبو وسيفرين ، فيحكم على حزبه حكم الإعدام؟ كلاّ ، ثم كلاّ . . لن يقدم على هذا الخطب ، وليذهب دم موران هدراً ، فمصلحة الحزب تقتضي ذلك !

عند ذلك دنا من زاوية تحجبها ستارة كثيفة ، فحسرها وفتح الباب ، فخرج دنيزيي المدعي العام الذي اختفى في الغرفة عند قدوم سيفرين ، وقال وعلامات الفوز مرتسمة على محياه :

«ألم أؤكد لك براءة روبو وزوجته؟ ألم أؤكد لك أن كابوش هو القاتل؟ إنه في قبضتي ، ولن يبطئ القضاء أن يدينه !» .

فهز كامي رأسه وقال : «تريّث يا دنيزيي ، واعلم أننا مخيرون بين أمرين لا ثالث لهما ـ معاقبة المجرم والقضاء على الحزب ، أو إطلاق سراح المجرم وإنقاذ الحزب ممّا ينتظره . . ولك بعد ذلك أن تبقى راسباً حيث أنت الآن ، أو أن تنتقل إلى منصب رفيع يدر عليك الخير العميم !» .

فأطرق دنيزيي يفكر ، ثم رفع رأسه وحدج رئيسه بنظرة متطامنة وقال :

«فهمت . . . وسأقوم باللازم ، فأطلق سراح كابوش !» .

أشرق وجه لاموت ، وتألق البشر في عينيه ، ولم يلبث أن قال وهو يصافحه مودعاً :

«سقياً لك ! إنك لداهية أريب !» .

*

في الساعة الثالثة التقت سيفرين جاك ، فتأبطت ذراعه ، ومشت

معه وهي ملتصقة به ، متكئة عليه . . ترمقه بنظرات نهمة متقدة ، وتحاول جاهدة أن يلتقي النظران فيتحدثا ، ويتناجى القلبان من طريقهما !

ومع أنها لا تهواه بالمعنى الصحيح ، إلاّ أنها كانت مضطرة إلى اجتذابه وإيقاعه في حبائلها ، حتى تأمن جانبه وتركن إلى صمته !

وولجا حديقة مزهرة تبسط الأشجار الباسقة ظلالها على ما يقع تحتها ، فانتبذا ناحية خالية ، وجلسا على مقعد خشبي ، وقد اقتربت منه سيفرين حتى احتكت ساقها بساقه ، فشعر الشاب بحرارة الساق الغضة ، وبطراوتها . . وشعر بالدم يفور ويغلي في عروقه !

شخص الاثنان إلى الأشجار وفي قلب كل منهما من المآرب والأهواء الشيء الكثير . ومدّت سيفرين يدها فجأة ، فأمسكت بيد جاك ، ثم حدّدت طرفها الفاتك في عينيه ، وقالت بصوت حالم ناعم :

«أي جاك ! هل تظنني مذنبة؟» .

فأجفل كمن لدغته أفعى ، واستدار مبهوتاً وأجاب : «أجل ، هذا ما أعتقده يا سيفرين» .

فضغطت يده وقربت وجهها من وجهه ، حتى شعر بأنفاسها العطرة تهب عليه كنفح الطيب ، وقالت : «أنت مخطئ يا جاك ، فأنا بريئة !» .

ولكنها علمت أنه لم ينخدع ، بل ازداد شكّاً ، فلم تلن لها قناة ، ومضت تقول : «أنا بريئة ، فهل تواصل إيذائي بظنونك؟» .

وتعلّقت عيناها بعينيه ، فتفاهم البصران ، وامتزجت وجهة الرأيين ، واندمجت الروحان في مؤامرة واحدة . . وأيقنت سيفرين ،

والنشوة تطغى على فؤادها ، أنها ملكته واستمالته . . فانبرت تقول وقلبها يرقص طرباً :

«لا أخالك ترغب في إذلالي ، فأنت ولا غرو تصدق مقالي . . ألا تصدق يا جاك؟» .

فأجاب مبتسماً : «أجل ، إني أصدقك وأؤمن بك !» .

وارتجف من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ـ فهل يستطيع أن يعشق هذه المرأة المتلعجة ، المتسربلة أبهى حلل الجمال ، دون أن تراوده نفسه على قتلها؟

وأحاط خصرها بذراعه ، وقرّب فاه من فيها . . ولكنها نأت نافرة وقالت ضاحكة : «اتئد أيها المتسرّع . . فقد يرانا الناس فيسخرون بنا !» .

ثم حيّته بابتسامة عذبة ، وابتعدت وهي تلتفت وتقول : «لديّ مهمة أود قضاءها قبل أن يأزف ميعاد الرجوع . . فإلى اللقاء في القطار !» .

وسلكت الطريق نفسه الذي سلكته ظهراً . ولـمّا دلفت إلى قاعة الاستقبال في بيت كامي لاموت ، استقبلها الرجل ببرود وهو يتصنّع الجمود :

«ليفرخ روعك يا سيدة ، فقد بذلت جهدي وأقنعت المسؤولين في الشركة بضرورة العدول عن رأيهم في إقصاء زوجك !» .

فدمعت عينا سيفرين ، لم تفه بكلمة ، بل افتر ثغرها عن عقد نضيد ، ورنت إلى لاموت بنظرة شكر وتقدير ، فخفق قلبه وشعر بالانفعال والتوتّر ، وكاد يرضخ لهذه الغانية ، فينقاد صاغراً لإغرائها . . ولكنه هزّ رأسه في محاولة يائسة ، وقال :

«ما عليك الآن إلاّ الرجوع من حيث أتيت . . وتذكّري أني أحتفظ بملف موران ، ويمكنني أن أقدمه للجهات المختصة في كل حين . . فخذي حذرك ، وانصحي زوجك بتجنّب كل ما يتنافى مع المصلحة !» .

قالت : «فهمت مرادك يا سيدي ، وسنكون عند حسن ظنك ، فنفعل ما تمليه علينا . . وأفعل ما تطلبه !» .

فتصاعد الدم إلى رأسه وأجاب :

«لا مطمع لي فيك يا سيدة ، ولن تسوّل لي نفسي بلوغ وطري من هذا الطريق الوعر ، فاطمئني !» .

وغادرته سيفرين إلى المحطة ، وهي لا تكاد تطأ الأرض عجباً وخيلاء . . . لقد نجت ، وها هو سيف النقمة يختفي . . لقد نجت ، ولكنها ستذيق روبو الأمرّين . . ستعذبه لأنه عذّبها . . ستزيده ألماً فوق الألم . . لقد جحد بنعمة ربه ، وآمن بالباطل ، فليذق وبال جوره ، وليترمض على نار طغيانه !

ـ ٦ ـ

ميلاد غرام

مضى شهر آخر تغيّرت في أثنائه الحال في مساكن الموظفين والعمال، فسادها الهدوء، وتخلص روبو وزوجته من المضايقات.. وخفتت الضجة التي أثارتها حادثة موران، وأفرج المدعي العام عن كابوش وسواه من المشبوهين.

وهكذا خيّم السلام على رأسي الزوجين القاتلين، وبدا أن آلامهما قد انتهت، عندما أرغم شيسني على سحب اعتراضه الذي طعن فيه في وصية الراحل، فتمكّنا من وضع اليد على الدار في مفرق موفرس، وإن لم يجسرا على قضاء ليلة واحدة فيها.

ولم يلبثا طويلاً حتى أعلنا رغبتهما في بيعها بجميع ما فيها من فراش ورياش.. بيد أن أحداً لم يتقدم لشرائها - فكيف يفكر إنسان في شراء دار موقعها موحش لا يأنس إليه إنس أو جن؟

غير أن الزوجين لم يداخل حسهما يأس، فهما واثقان من أن الدار سوف تباع، وأنهما في نهاية المطاف سيفوزان بالأرب، ويستعينان بالثمن على إصلاح شؤونهما، واستثمار ما يتبقى فيما يدر عليهما الربح!

عاش الزوجان في شقتهما المؤلفة من ثلاث غرف. ومع أنهما أمنا جانب جاك، وركنا إلى صمت لاموت، إلاّ أن خوفهما لم يكن يقر إلاّ ليهيج، وعذابهما لم يكن يخفت إلاّ ليستعر!

واظب روبو على عمله ونشط في تأديته ـ ففي العمل مهرب مؤكد لأفكاره المدلهمة الممضة!

أما سيفرين ، فإنها انطوت على نفسها ، وأصبحت لا ترى زوجها إلاّ لماماً . فهو يغيب النهار بطوله وجانباً من الليل ، وهو في أكثر الأحيان يحمل طعامه معه . . ولذا فقد انكبت سيفرين على أعمالها المنزلية .

أما موران ، فقد تجنّبا ذكر اسمه ـ فهو رجل غيّبه الثرى . . ومقتله حادثة درجت في كفن الزمان . . والنسيان !

ولكنّ أمراً واحداً ما برح يذكرهما بالجريمة ، ففي قاعة الطعام ، وتحت لوح من خشب أرضيتها ، أخفى روبو ساعة القتيل وماله . . وكان قد تعمّد انتزاع الساعة ونهب المال ، تمويهاً على رجال الأمن ، وإيهاماً لهم أن الجريمة كانت غايتها السرقة !

أمّا الآن فهو كلّما فكر في المال والساعة ، يشعر بكراهيته تتضاعف ، ويود لو تسنّى له إخماد أنفاسه كرة أخرى !

حدّثته نفسه مراراً أن يحرق المال ويرمي الساعة في البحر ، ولكن قلبه لم يطاوعه ، فهو يقدر الغنى إلى درجة لا يستطيع معها أن يدمر الغنى ! فكيف يحرق المال؟ كيف؟ !

لم يهمل الزوجان القانطان الآملان أمر جاك ، بل ثابرا على دعوته إلى بيتهما ، كلما سنحت الفرصة . وحرصا على أن يرغماه على مشاركتهما في طعامهما وشرابهما .

وما مضت أسابيع معدودة حتى درج جاك على عادة قضاء السهرة معهما في أيام الاثنين والخميس والسبت .

وبالرغم من نشاط روبو ، فقد ذبلت نضرته ، وسهمت نظرته ، وأصابه وجوم وشرود ، ولم يعد يفتر له ثغر إلاّ متى التقى صديقه الجديد . . وهكذا غدا الشاب المرهوب الجانب ، الذي أدخل الفزع

إلى قلب روبو ، مصدراً لشعوره بالراحة والهناء . . ومجرد وقوف جاك على الحقيقة ، وكتمانه هذه الحقيقة ، كان كافياً لربط الرجلين برباط وثيق من الألفة .

وما أكثر ما كان روبو يشدّ على يد صديقه ، وكأنه يقول له : «نحن صديقان ودودان ، والسر المشترك نكتمه . . . وهو سر أروع من صداقتنا ، وأعظم مغزى من علاقتنا» .

وكانت سيفرين ، أسوة بزوجها ، ترحّب بجاك ، ويطفح وجهها بشراً كلّما رأته يدخل البيت . وكانت تعد له الألوان الأثيرة لديه .

كان لتوثّق عرى الود بين جاك وسيفرين أثره في اتساع الهوة بين الزوجين . . فتجنّبت سيفرين النوم في سرير واحد مع روبو . . وطوى هو كشحه عن جفائها . . وتعجّب من غيرته التي صيّرته قاتلاً
ـ هذه الغيرة التي انطفأت جذوتها الآن إلى الأبد!

طلب جاك أخيراً إلى سيفرين أن تلقاه في منتصف الليل ، فسحبت يدها من يده ، وأعرضت عنه ، ولم تكلمه . ولكنها رضخت في النهاية ، وتسلّلت في جنح الليل ، وكان الظلام دامساً ، فما كاد يتبيّن شبحها ، حتى أهرع إليها فاحتواها بين ذراعيه ، وضمّها إلى صدره . .

غير أنها لم تعطه إلاّ القبل . .

وكان روبو قابعاً في مكتبه ، وهو يغط ، وكانت الشركة ، منذ اقتحم اللصوص قطار باريس ، قد أعطته مسدساً .

وكثر خروج سيفرين في الليالي التي يقضيها روبو خارج بيته ، وقد أخبرت عشيقها في إحدى الليالي أن زوجها يحمل مسدساً . فلمّا التقته في ليلة تالية ، دفنت وجهها في صدره وتساءلت عمّا

يفعله زوجها لو اكتشف أمرهما، وفاجأهما في خلوتهما! ولم يكن هذا التوجس إلاّ ليزيد النار اشتعالاً.

وهطلت الأمطار مرة فلاذا بالكوخ القريب، فأوسعها تقبيلاً، ولكنه عندما تاق إلى المزيد، دفعته عنها وقالت وهي تنشج:

«لا تضيرني يا جاك.. لا تهدم اللذة المستمدة من القليل الذي تناله!».

فهي تحب لأول مرة، ومتى منحت جاك من جسدها، ما منحته لموران وروبو، هدمت بذلك قصور أحلامها، وسفت ثانية إلى الحضيض، لتقاسي من جديد الشقاء الذي بلته مع الاثنين! لقد كانت تتوق إلى ممارسة تلك الحياة الساذجة، التي تذوقت حلاوتها مع صديق طفولتها، وهي بعد في الخامسة عشرة.

جاراها جاك في نزعتها، يحدوه إلى ذلك تمنُّعها، وشيء آخر طالما قض مضجعه وعكر حياته ـ وهذا الشيء هو خوفه من أن توقظ شهوته الجنسية المرهفة، ذلك المارد الرهيب الجاثم في روحه، المتحفز للقتل والولوغ في الدم!

ولكنه أيقن، بعد أيام، أن النفس الشريرة التي تحضه على القتل، كلما خلا بالمرأة، فارقته إلى الأبد! فقد ضم سيفرين إلى صدره مراراً، وقبّلها تكراراً، وشعر بالهياج مراراً وتكراراً، ولكن نفسه لم تراوده على قتلها وإزهاق روحها.. ومع ذلك لم يجسر على الاستيلاء عليها.. وآلى أن ينتظر.. وعزم على أن يرخي للحب حبل عنانه، ليأخذ مجراه، ويوصله إلى أربه!

وفي ليلة همى مزنها، وهبت عاصفة هوجاء، ذهب جاك إلى مكان اللقاء وهو واجف القلب طائر اللب، خائف من تخلف

سيفرين بسبب المطر ، إذ تعلقت بعنقه يدان ، والتصقت بفمه شفتان!

وانطرحا ، وهي لا تزال متشبثة بعنقه . . ونال وطره ، واستحوذ عليها !

وحينما أشبع غريزته ، نهض والفرح يغمر فؤاده ، فقد انتصر على شذوذه القتال . . انتصر على وحشيته ، وقهر الروح الخبيثة التي أحالته إلى إنسان وحش ! لقد أنقذته ، فسقياً لها !

واضطجع في جوارها مرة أخرى ، وأمضيا ساعات نسيا في خلالها الدنيا بأسرها ، وغرقا في لجة من الصبابة !

أعطته نفسها راغبة . . أشركته في جسدها . . وشعرت أنها لا ترغب في شيء مقدار رغبتها في الاندماج مع هذا الرجل قلباً وروحاً وجسداً .

وانقطع صيب السماء ، ولاحت في الأفق نقطة باهتة من الفجر . . ومع ذلك لزما مكانهما !

ومزق الفضاء ، على حين غرة ، صوت عيار ناري ، فارتعد العاشقان ووثبا .

وهتفت سيفرين بفزع : «أواه ! إنه روبو» .

ودفعها جاك وهو يقول : «أسرعي . . عودي إلى بيتك . . فقد اشتبه بتسلل اللصوص وسيصل عن قريب!» .

فقبّلته سيفرين وانطلقت تعدو . . وقبع جاك وحبس أنفاسه .

ولما هدأت الضجة ، سار بخفة إلى مسكنه ، والتقى بيكيه ، فهتف : «تباً لك يا بيكيه ! ماذا تفعل هنا؟» .

قال : «سحقاً لروبو فقد جرّ مسدسه ووهمه الوبال عليّ في هذه الليلة المنحوسة ، لأن شقيق فيلومين هب من رقاده على دوي ، فلما

نزل من غرفته ، رآني مع شقيقته في فراش واحد ، ولولا حسن الحظ لما نجوت بجلدي ! لقد فررت من النافذة ، وملابسي تحت إبطي ! اسمع . . اسمع . . ها هو يضربها ! ولكن هذا شأنه ، فهو شقيقها ووليّ أمرها !» .

*

بعد تلك الليلة تذوّق جاك وسيفرين أصنافاً من الحب ، وجرعا كأسه حتى الثمالة . ومضى شهران ، عاشا في خلالهما في حياة الأحلام .

واتفق ذات ليلة أن غادرهما روبو في البيت وذهب إلى عمله ، فحملها جاك وأضجعها في فراش الزوجية !

وضحك الاثنان ما شاء لهما أن يضحكا ، ونهضا بعد ساعة قضياها في دنيا الصبابة ، وهما يشعران بالعناء ممزوجاً بالهناء !

بعد تلك الليلة أخذ جاك يأتي إليها كلّما ذهب روبو إلى عمله ، فيقضي معها ساعات طويلة ممتعة .

هكذا عاش الاثنان زهاء أربعة شهور بين أحضان اللذة ، وكان كل يوم يمرّ بهما يزيد من تقاربهما ، ويوشج بين عاطفتيهما ، ويجعلها تفنى فيه ، ويجعله يفنى فيها !

وانتصر جاك على غريزة الإنسان الوحش ، وعادت إليه طبيعة الإنسان الإنسان ، فسعد وقرّت عينه !

كل ذلك والزوج لاه ساه ، يرحب به ، ويعنّفه كلّما تخلف . . فإن أتى لا يلبث روبو أن يغادرهما ويذهب متعلّلاً بالعمل !

بيد أنه كان في الحقيقة قد علق بالميسر ، وأخذ يواصل اللعب مع الكولونيل غوش في المقهى الصغير ، حتى أصبح لا يرجع إلى

مسكنه قبل أن يأذن الليل بزوال!

لم تتذمّر سيفرين من هذه الحياة، أو تعترض على تعلقه بالقمار . . . ليفعل ما يشاء وليتركها وشأنها!

وشجر أول خلاف بينهما بسبب حذاء أرادت ابتياعه، فقد حجب عنها المال وأخبرها صراحة أنه لا يملكه، فلمّا أشارت بيدها إلى اللوح الخشبي، شحب وجهه، وقال: «أصيخي السمع يا امرأة، لن يمس إنسان هذا المال، واعلمي أني قاتلك لا محالة إن فعلت!».

وتلا ذلك منازعات عديدة بسبب البيت الآيل لها من موران، فقد تلاحيا لأنّ أحداً لم يبتعه . .

وهكذا استحال بيتهما الصغير قطعة من الجحيم.

وانتحلت سيفرين الأعذار لتذهب إلى باريس، ثم زعمت أن في ساقها ألماً يقتضي استشارة الطبيب . . وهكذا شرعت تبرح الهافر في صباح الجمعة من كل أسبوع، وتعود في المساء!

في خلال ذلك، كانت تتبع حركات زوجها، وتتساءل متعجبة مندهشة عن غيرته التي ساقته إلى الجريمة . . فأين هي؟ لقد ولّت دون رجعة!

وحدث في إحدى الليالي أن لاذت بالفراش في منتصف الليل، وتنبّهت بغتة على حركة منبعثة من الغرفة الأخرى، فأرهفت السمع، ثم غادرت فراشها واسترقت النظر، فشاهدت روبو مضطجعاً على وجهه، منهمكاً في استخراج النقود من الحفرة. ووقع طرفها على وجهه، فرأت أمامها وجه قاتل! فارتعدت فريصتها، وصاحت مذعورة:

«ماذا تفعل؟ ويحك ماذا تفعل؟!».

فأجابها بصوت مشتعل بالغضب : «عودي إلى فراشك !» .

فقالت : «أنت تبخل عليّ بثمن حذاء وتسخو بالمال على مائدة القمار !» .

فوثب واقفاً ، واندفع نحوها وهو يقول :

«أقلعي . . أقلعي . . أيتها المتسوّلة الحقيرة ! هل سألتك عما تفعلينه في باريس؟» .

وعادت سيفرين إلى فراشها ـ إنه مطلع على سرها ، ملمّ بما في صدرها ، فما العمل؟ ما العمل؟ !

- ٧ -

قطار تعرقله الثلوج

نهض المسافرون إلى پاريس، على متن القطار السريع في صباح الجمعة، مذعورين، فقد تساقط الثلج ساعات طوال، ولم ينقطع انهماره طوال الليل، حتى تراكم في الشوارع، وكسا البيوت بحلة بيضاء.

وبكّر جاك وبيكيه في الحضور، فهتف جاك وهو يرمق قاطرته بإعجاب وحب:

«هذا مريع يا بيكيه! فكيف أتبيّن طريقي؟ وكيف أرى العلامات والإشارات؟».

وغادر روبو المقهى في تلك الليلة بعد أن خسر نقوده، واقترب من جاك وهو زائغ الطرف، فحيّاه كعادته، وتبادل معه بعض العبارات. ثم قدمت سيفرين، فقادها زوجها إلى عربة الدرجة الأولى، ولم تفته النظرة الخاطفة التي تبادلتها مع جاك! بيد أنه لم يقم للأمر وزناً.

ولم يكد القطار يغادر المحطة، حتى التحم في صراع هائل مع الطبيعة. ولكنّ القاطرة كانت قوية، فلم تجد عناء كبيراً في شق طريقها وسط الثلوج، والضباب، والإعصار.

لم يبخل الرجلان على قاطرتهما المدللة بالوقود، بل ألقماها منها ما يزيد عن حاجتها، وزوّداها بالزيت كلّما تباطأت في سرعتها!

وتضاعف عنفوان العاصفة، وغشي الضباب كل شيء من الأرض الفضاء، وأحاط بالرجلين اليقظين كأنه غلالة بيضاء، حتى خُيّل

إليهما أنهما يضربان على غير هدى في دنيا متشحة بالبياض، أو يطيران في حلم لا نهاية لليلته.. وأن هذه البقاع المترامية، والأشجار والرياض والبيوت، قد استحالت بحراً لا لون له من شدة بياضه!

وصل القطار إلى برنتين، فحذّرهما ناظر المحطة من الثلوج في مفرق موفرس.. كما أن هنري دوفرن، مفتش التذاكر، ترجّل من القطار وقال:

«تبّاً لهذا اليوم المشؤوم، إني لأكاد أقضي دنقاً، وبصري لا يميز بين إشارات السكة الحديد وأعمدة البرق!».

خاف المسافرون، فجعلوا يفتحون النوافذ ويطلّون برؤوسهم مستطلعين.. وحانت من جاك التفاتة، فرأى وجه سيفرين الحبيب وهي ترمقه بعطف ومحبة، فناجى نفسه قائلاً:

«إنها خائفة، وبودي أن أحملها بين ذراعيّ وأطير بها إلى باريس!».

واستأنف القطار سيره، وأخذ يصعد في بقاع من الأرض وهو ينفخ وينفث الدخان. وجمّد البرد أطراف جاك، فارتاع، ودار في خلده أنه يوشك أن يفقد رشده.

والتفت إلى بيكيه فألقاه مستلقياً على ظهره، وهو شاحب الوجه منقلب العينين.. فتوغّر صدره، وصاح وشتم.. وكان لاضطراب نار غضبه أثر عظيم في تدفّق الدماء في شرايينه، فلم يلبث أن شعر بالدفء.

ولكن مقاومة القاطرة كانت تضعف شيئاً فشيئاً. وما كادت تصل إلى بقعة تكاثفت ثلوجها حتى اهتزت، كأنها جسم حي يرتعش رعشة الموت، ثم توقّفت مشلولة!

وبذل جاك جهده لإعادة الحياة إلى قاطرته ، فباء مسعاه بالفشل .

أنزعج المسافرون وألمّ بهم خوف عظيم ، فترجّل الكثيرون منهم وأقبلوا على جاك يسألونه ويستوضحونه .

وأقبل جاك وبيكيه ومراقب التذاكر على الثلوج يزيلونها عن القضبان ، ثم عادوا بالقطار إلى الوراء مسافة نصف ميل ، ودفعوا به إلى الأمام في محاولة لتخطي العقبات .

غير أنه ما كاد يصل إلى منعطف قريب من مفرق موفرس حتى استقبلته تلال الثلوج فتوقف ، وتصادمت العربات وأحدثت دوياً عظيماً .

وأرسل جاك يطلب النجدة من برنتين ، وضغط صمام الصفير ، فتصاعد الصوت الحاد يمزق الفضاء ، وكأنه يدعو بالويل !

سمعت فلورا الصوت فجاءت تعدو وفي إثرها مزار زوج أمها ، ورجلان آخران هما كابوش وأوزيل ، الذي تيّمه حبها !

ولمحت فلورا وجه سيفرين فعرفت فيها غريمتها ومزاحمتها . . فتقلّصت عضلات وجهها ، وودت لو انقضت عليها . . غير أن مزار تقدم من سيفرين وقال :

«هلمّي معي يا سيدتي إلى البيت» .

ومشت سيفرين مع فلورا يتبعهما عشرون نفراً من المسافرين ، أمّا رجال النجدة الذين وصلوا من برنتين ، فقد تعاونوا مع جاك وسواه في إزالة الثلوج ، واستغرق عملهم ساعات النهار برمتها ، حتى أصاب المسافرين اللغوب بسبب البرد والجوع والخوف .

ولكن العراقيل أزيلت في النهاية ، وتقدم القطار ببطء ، ليقف قريباً من بيت مزار ، فيصعد إليه من رافق فلورا في الصباح ،

وخرجت سيفرين مسرعة ، واقتربت من القاطرة ، ورنت إلى عشيقها بعينين تنطقان بالحب ، ثم انثنت إلى العربة التي كانت تجلس فيها .

لم يفت فلورا تلك النظرة التي تخاطفتها عيون المحبين ، فأيقنت أنها أخطأت عندما تمنّعت عن جاك ، فلم تستسلم له . . فلو أنها وهبته جسدها ، لظلّ وفيّاً لها . . هذا ما صوّره لها الوهم وهي تشاهد صروح آمالها تنهار تباعاً !

واقتربت الفتاة المقهورة من أوزيل ، وقد رأت فيه الآن ملاذها الوحيد !

- ٨ -

الحب في مخالب الخوف

وصل القطار إلى پاريس في الساعة العاشرة ليلاً ، بعد أن قطع المسافرون الرجاء ، وأيسوا من النجاة . وكانت سيفرين قد بعثت إلى زوجها برقية من روان تنبئه فيها بتعذر الرجوع إلى الهافر في اليوم التالي .

والتفت بيكيه إلى جاك ، والقطار يدرج ببطء في محطة پاريس ، وقال : «أنت تعرف أن زوجتي في المستشفى ، فلم لا تقدم مفتاح البيت إلى سيفرين؟ فهي ولا غرو تفضل النوم في بيت على النوم في فندق!» .

فأنس جاك لهذا الرأي . ولما التقى سيفرين أعطاها المفتاح ، وقال هامساً : «انتظريني . . فلن أتأخر عن الحضور!» .

واسترقت سيفرين الخطو إلى البيت ، ولما دخلته أشعلت الموقد ، ثم استبدلت ملاءات الفراش ، وجلست تنتظر جاك .

وتناهى إليها صوت خطاه ، ففتحت له الباب ، وتناولت ما حمله من طعام وشراب ، فوضعته على المائدة ، وارتدّت فأحاطت عنقه بيديها ، وقبّلته ملتهبة ، ثم أقبلت على الطعام والشراب تجهز أوانيه .

بعد قليل جلسا متقاربين يأكلان ويشربان ، ويقتطفان بين اللقمة واللقمة قبلة أشهى مذاقاً من جرعة الخمر!

واهتزت مشاعرهما كاهتزازة الآنية التي يغلي في جوفها ماء . . وثارت شهوتهما ، فانساقا إليها ، وقاما إلى الفراش فنضوا ثيابهما واضطجعا متعانقين متضامين .

وحدّثتها نفسها في غمرة النشوة أن تعترف له بما اقترفته هي وزوجها . . وشرعت تقول : «أتدري يا جاك . .؟» .

فقاطعها قائلاً : «أجل ، أنا أدري يا حبيبتي !» .

ولكنها استرسلت وكأنها لم تسمع ما نبس به لسانه : «جرى كل شيء في هذا البيت ، فاكتشف روبو علاقتي بموران . . هنا بدأ الصراع بين عقله وغيرته . . هنا تغلبت غيرته على عقله ، فأرغمني على الاشتراك معه في ذبح موران !» .

وتنهّدت من كبد مفطور وذرفت عيناها الدموع وأردفت : «وفي روان تسللنا إلى عربة موران حيث تبادل روبو الحديث معه ، وهو يظهر من الانشراح ما لا يدع سبيلاً للشك . . إلاّ أنه كان يرميني بين الفينة والفينة بنظرة ذات معنى !

«ولا أدري كيف لم يخطر على بالي تنبيه موران إلى ما ينتظره ! لا أدري لِمَ لم أشدّ حبل الخطر ليقف القطار !

«ووثب روبو على الشيخ فجأة فأمسك بعنقه وضغط ، واستمد الشيخ من الضعف قوة فأبدى من ضروب العناد في المقاومة ما ملأ قلبي دهشة ورعباً . ودون وعي تقدّمت منه فأمسكته من ساقيه . . ولم أر ماذا تلا ذلك ، ولكني أيقنت من اهتزاز الساقين أن الأمر انتهى !» .

في تلك الدقيقة تنبّهت الروح الشريرة في قلب جاك ، فسألها قائلاً : «أحسست به يموت إذاً ! وشعرت برعشة ساقيه وهو يسلم الروح . . فهل تألّمت؟ هل شعرت باللذة والنشوة؟ !» .

فقالت متعجبة : «كلاّ . . كلاّ . . لم أشعر بشيء من هذا القبيل» .

قال : «كيف لم تشعري؟ الموت ! الموت ! كيف لم تشعري؟» .

وأطبق عليها بوحشية، وغاب الاثنان للمرة الثالثة عن الصواب . .
العاشقان وجدا الغرام في أعماق الموت . . وجدا الحب في مخالب الحتوف!

استسلمت سيفرين للوسن في الثالثة صباحاً، أمّا جاك فقد جفا عينيه الكرى ـ كان مضعضع القوة مما صادفه في نهاره، ومما صادفه في ليله! غير أن شبح الموت مثل أمام ناظريه . . شبح القتل . . لذة القتل . . الطعنة النجلاء في العنق . . الدم المنبثق من الثغرة القانئة . . رعشة الجسد . . السكين تقطر دماً . .

خاف من يديه، فشبك الواحدة بالأخرى، ثم وضعهما تحت ظهره، ثم أرخاها إلى جانبيه!

ودقت الساعة ست مرات، وحانت منه التفاتة، فرأى سكيناً، فاستدار إلى ناحية سيفرين، فرآها نائمة كطفلة . . وتشنّجت يداه، فرمى بنفسه على الأرض، ثم قفز كالمخبول فاشتمل بملابسه .

وكان ضوء النهار قد تسرّب إلى الغرفة، ولكنه لم ير سوى غلالة بيضاء تحيط به، ورأى من خلالها وجه سيفرين وعنقها، فأهابت به وحشيته بشراسة :

«ويحك يا جاك! اقتل . . خذ السكين واقتل!» .

واختطف السكين وانقضّ . . ولكنه ارتد على أعقابه وفرّ من البيت .

والتقى فتاة فتبعها، ولـمّا عرّجت على دكان قريب، استمر يضرب في الطريق على غير هدى . . ومرّت به امرأتان، فهرول وراءهما . . وصادف امرأة ترتدي أسمالاً، فاقتفى أثرها . . ثم تركها ليلزم ظل فتاة جميلة أنيقة، وقادته الفتاة إلى المحطة، حيث ابتاعت

تذكرة سفر، فاقتدى بها وجلس قريباً منها .

وانطلق القطار، وطفق جاك يختلس النظر إلى الصبية ويناجي نفسه :

«يجب أن أقتلها ! سأقتلها في النفق ! سأذبحها ! آه . . لكم أتوق إلى رؤيتها تتلوّى بين يديّ !» .

واختلط عليه الأمر، وغابت المرئيات، فلم ير الفتاة وهي تغادر القطار، ولكنه تذكر أنه مشى ساعات، ثم رمى السكين في النهر .

لدى رجوعه إلى سيفرين كانت الساعة تشير إلى الرابعة، فارتمت على صدره مستعبرة وقالت : «أخفتني يا جاك . . ظننت أنك نأيت عني بعد اعترافي ! لكم أحبك يا جاك !» .

وغمر قلبه الحزن، فشرع يبكي ويسبل الدمع، ويقول في خلال ذلك : «وأنت . . يجب أن تخلصي، لأنني في مسيس الحاجة إليك . . ولا يمكن أن أطلعك على ما يكربني ويحيل حياتي إلى سعير من نار الجحيم !» .

وبكى بكاء مرّاً !

وقالت وهي تترشف مدامعه : «أريدك يا جاك، فأنت رجلي . . أنت رجائي . . أنقذني، خذني إلى أقصى المعمورة . .» .

فأجاب : «كيف؟ كيف؟ هل أقتل روبو؟ لا . . لا أستطيع !» .

وخامرته فكرة . . لم لا يقتل رجلاً؟

وهزّ رأسه وأغمض جفنيه .

وتحرّكت وحشيته . . فتمتم : «لم لا أقتله؟» .

وهتفت وحشيّته : «لا تتردد . . . افعل . . اقتل روبو !» .

- ٩ -

بين الإقدام والإحجام

خامر العاشقين الظن بأن روبو يتعمّد قضاء أكثر أيامه خارج بيته ليفاجئهما متلبّسين ، بيد أنهما كانا مخطئين ، فروبو لم يفكّر فيهما ، فهو يقضي كل دقيقة في المقهى ، يلعب ويخسر .

وقد زاد وزنه ، وتهدّل لحمه ، وشحب لونه ، حتى بدا ميتاً بالنسبة إلى الأحياء ، ونسياً منسياً بالنسبة إلى الدنيا .

عندما أخذ المال ، لأول مرة ، كان مراده تسديد ما تراكم عليه من ديون القمار للكولونيل غوش . . ولكن بعد أسبوعين أصبح مديناً لغوش بمبلغ طائل ، فانتهز فرصة غياب سيفرين ، وأخذ من الحفرة ورقة نقدية عظيمة القيمة .

وتذكّر قسمه بأن لا يمس هذه النقود الملوثة بالدم ، حتى ولو لم يجد في بيته لقمة يسد بها رمقه . . وشعر كما يشعر رجل يحث خطاه قدماً إلى لحده !

ومع ذلك ، وبعد أن احتسى قدحاً من الخمر ، داخل قلبه إحساس بالدعة ، وابتسم ابتسامة عريضة ـ فهذه الورقة كفيلة بإنقاذه من ضائقته ، فلا يحتاج إلى رجاء وإرجاء !

بيد أنه شعر بالحرج عندما حاول استبدالها بأوراق القطع الصغيرة . . فلم يجسر على إبرازها .

ولكنه في الليلة الخامسة تناولها وهو جالس إلى مائدة القمار واستبدلها . . فتعلّقت به الأنظار ، وشرع الرجال يعلقون متفكهين على جدتها وقيمتها ، وحسن طالع صاحبها !

وبعد شهر ، لم يجد مندوحة من مد يده إلى ورقة أخرى . . وبكى في هذه المرة ، فهو يشعر بأنه لن يحول بينه وبين المال حائل بعد اليوم ، وأنه لن يلبث أن يأتي على البقية الباقية !

وأنّبته سيفرين في اليوم التالي بكلام مشوب بالحقد والكراهية ، فصاح بها متوعّداً : «اصمتي يا سيفرين ، ولا تنكئي النار بعصا الشجار !» .

فقالت هائجة مائجة : «أنت تتقرّب من الشرف ، وما اقترفته يداك له ما يسوّغه . . أمّا هذا المال فهو ملعون يحمل طابع الشؤم !» .

لم يدرك روبو ما حوّله وقوّض حياته ، وسلبه راحته وبلهنيته . . فالتفت إلى سيفرين بعينين ينبعث منهما الشرر وأجاب : «أنت تمقتينني وتتمنين موتي !» .

قالت : «صدقت . . فأنا بعيدة عنك بقلبي وشعوري ، لا أفكّر فيك ولا أحبك» .

فزأر قائلاً : «اتركيني وشأني إذاً . . أقلعي عن تتبّع حركاتي وسكناتي . . فأنا ما حاولت أن أعيّرك بمثالبك ، وألومك على عبثك ، وعلى ما تأخذين به نفسك من لهو ومتعة !» .

فما زادها كلامه إلاّ غيظاً ، فابتدرته متهددة : «لا تمس هذا المال . . تجنبه . . ابتعد عنه . .» .

فنهض من مكانه وأجاب : «إذا كان في وجود هذا المال ما يثير شجونك ، فلنقتسمه بيننا !» .

فصاحت لاهثة : «كلاّ . . كلاّ . . لن أقدم على مثل هذا الأمر الكريه !» .

بعد عودتها من تلك الليلة ، وكان زوجها يؤدي وظيفته الليلية ،

أرتجت باب غرفتها ولاذت بفراشها . غير أنها لم تجد إلى النوم سبيلاً ، ولم تنفك تفكر بالمال الملطّخ بالدم ، وتتساءل عن السبب الذي جعلها تأبى اقتسامه مع زوجها ـ فلماذا قبلت بالذي أوصى به القتيل ، ورفضت هذا العرض؟ !» .

ونهضت من الفراش ففتحت الباب ودلفت إلى المكان الذي أخفى فيه زوجها المال ، وبحركة آلية رفعت اللوح الخشبي من موضعه ، وأدنت المصباح من الحفرة ، فلم تر شيئاً . . لقد اختفت النقود ولم تجد إلاّ الساعة وسلسلتها الذهبية ، فتمتمت بصوت كالفحيح :

«تبّاً له من لص !» .

ثم أخذت الساعة وعادت إلى الفراش بعد أن أرجعت اللوح إلى مكانه .

وتفحّصت الساعة ، وقرأت الأحرف الأولى من اسم موران ، ورقمها ، فبهتت وارتعدت . . إنه الإثبات الدامغ على جريمتها . . ولكنها شعرت بهدوء البال لزوال المال ، فهي على الأقل تستطيع الآن أن تسير بحرية وراحة فكر !

في ظهيرة اليوم التالي جاء جاك بعد ذهاب روبو إلى المقهى ، فلمّا جلس الاثنان إلى مائدة الطعام سردت على مسمعه ما فعله روبو بالمال ، ووصفت زوجها بالخسة ، ثم قدمت له الساعة راجية أن يقبلها هدية ! فلما رفض أخذت تبكي وتتضرّع إليه أن لا يرفض ، وأخيراً تناولها ووضعها في جيبه .

طابت نفس سيفرين وتألّق وجهها ، فاحتضنته وقبّلته ، وجلست على ركبته ، وغابت عن الوجود في قبلة متأججة طبعها جاك على شفتيها .

وفتح الباب فارتعبا . . وبرز منه روبو ، فقفزت العابثة مستطارة اللب ، وجمد روبو في وقفته ، وسمر جاك حيث كان يجلس .

وصرخت سيفرين : «أيها اللص . . أيها اللص . .» .

فتردّد روبو هنيهة ، ولكنه رجع من حيث أتى وهو يقول :

«دعيني . . دعيني . . اتركيني ولا تقتربي مني !» .

وعندما غاب شبحه ، التفتت إلى حبيبها وقالت : «أتصدق ما رأته عيناك ! أهذا روبو؟ روبو الذي أخمد أنفاس شيخ متهافت انسياقاً مع غيرته؟ !» .

*

منذ ذلك اليوم تلاشى خوفهما ، ولم يقلق بالهما سوى مدام ليبلو جارتهما المتطفلة المتشوقة إلى معرفة أسرار جيرانها . . وكانت لا تبرح تشق الباب كلما تناهى إلى سمعها وقع خطى !

بيد أن فيلومين ، التي شجر الخلاف بينها وبين مدام ليبلو ، انقلبت عليها ، وجعلت تساعد جاك وسيفرين ، فتسر إليها ما يريد جاك أن تعرفه ، أو تدعوها إلى لقائه في ساعة غير الساعة التي سبق أن اتفقا عليها . . ولا تحجم عن زجر مدام ليبلو وقذعها بكل لسان وبكل بذيء من الكلام !

وكان جاك يرافق بيكيه أحياناً إلى بيت عشيقته فيلومين ، فيمكث معهما الساعات ، أو يختلي بها متى انطلق بيكيه ليبتلع كأساً يطفىء به نار ظمئه !

وأفضت المرأة في ليلة بذات صدرها إلى جاك ، فأخبرته أن عشيقها بيكيه جلف يفعل ما تشمئز له نفس حبيبته ! وجعل جاك شيئاً فشيئاً يستلطف المرأة ، ويعجب بجسدها وبعينيها . . وتحيّن

الفرص ليختلي بها دون أن يثير ريب بيكيه .

وانتحل الأعذار ليتخلّف عن ميعاد مضروب مع سيفرين ، وأمضى وقته مع فيلومين ، ولم يكن مرد نأيه عن سيفرين إلى فتور في العاطفة ، بل لأن وحشيته كانت تثور على أشدها كلّما طارحها الغرام ، وبثها ما في الجوانح من هيام ، فلا يجد مناصاً من انتزاع نفسه منها والفرار من بيتها خيفة أن يقع المحظور ، ويقترف ما يعود عليه بالويل والثبور !

كان يناجي نفسه كلّما اشتاق إليها : «ما نفع الحب إن كانت نتيجته إخماد أنفاس شخص المحبوب؟» .

ومرّ شهر شباط البارد ، وكان جاك طوال الشتاء لا يقابل سيفرين خارج البيت ، فإذا خلت به وأرغمته على مضاجعتها ، اشترط أن يفعل في ظلام دامس ، حتى لا يقع بصره على جسدها العاري فتراوده نفسه على قتلها !

وكان كلما اجتمع إليها بمسكن بيكيه في پاريس يرخي سجف النوافذ ، حتى يسود الظلام الغرفة . . زاعماً أن ضوء النهار يسلبه من لذته ونشوته !

أمّا فلورا فقدر ثابرت ، رغم معرفتها بسرّ جاك ، على الوقوف في مكانها كلّما مرّ قطار پاريس السريع ، فتحدج جاك بنظرها ، ثم تتحوّل إلى عربة الدرجة الأولى ، فتلتقي عيناها بعيني سيفرين !

والشخص الآخر الذي كان يعكّر على سيفرين صفوها ، كان هنري دوفرن مراقب التذاكر . . فقد اطلع على العلاقة بينها وبين جاك ، ومنّى نفسه أن ينال منها وطراً . . وكان في حركاته وكلماته مصدر همّ لجاك .

زادتها رحلاتها شغفاً بجاك ، فلم تعد تطيق عنه بعداً ، بينما تضاعف مقتها لزوجها ، فكان مجرد وقوع بصرها عليه يدخل النفور إلى قلبها ، وتثيرها كلمة ينبس بها ، فتصمه بالفاحشة ، وتعيره بما جناه عليها !

وحنّت إلى الانعتاق من روبو والهرب مع جاك إلى أقاصي المعمورة . . ولكن الأهوال تحول بينها وبين رغبتها !

ومع مضي الأيام صوّر لها خيالها ، المحلّق في آفاق الخيال ، زوجها صريعاً على الأرض ، وهي على متن باخرة تمخر بها العباب في طريقها إلى أميركا مع جاك الحبيب !

وجاء جاك ذات ليلة وقال وهو يلتهب حمية : «لي صديق مسافر اليوم إلى أميركا لينشئ فيها مصنعاً بماله الخاص ، وقد عرض عليّ أن أرافقه ، فرفضت على مضض ، لأن المستقبل هناك مجاله واسع ، وكل جد مآله إلى النجاح ، وكل نشاط يفضي إلى اطراد النجاح !» .

فقالت وكأنها في حلم : «سوف نقتدي به فنذهب . . هذا خير لك وأفضل لي» .

قال : «ماذا تقصدين؟ وكيف نذهب؟» .

قالت : «إذا مات روبو !» .

وفهم جاك مقصدها ، فشحب وجهه ثم تضرج ، وما لبث أن طأطأ رأسه .

واستتلت هي : «سوف نرحل ، فنحيا حياة مفعمة بالهناء إذا قضى روبو . . إذا مات !» .

فاغتصب ابتسامة باهتة وقال : «أتتوقعين أن أعجل بموته؟» .

قالت : «كلاّ ، فلست إلى هذا أرمي !» .

ولكن عينيها نطقتا بغير هذا الكلام ، فقالت : «أجل ، أجل! أريدك أن تورده موارد الحتوف!» .

وقال بعد وهلة : «إن شئت أن أقتله فأعطيني هذه السكين! أنا أملك الساعة ، وإن أضفت السكين أكون قادراً على تأسيس متحف للقتل ، يجمع بين المدى والساعات وما إليها!» .

وتناول السكين وقال : «إني ذاهب إلى صديقي لأعرب له عن موافقتي ، فإلى الملتقى يوم السبت!» .

وقصد الفندق ، وطلب إلى صديقه أن لا يتخذ له شريكاً حتى يرده كتاب بهذا الصدد . وسار بعد ذلك في الطريق وهو يفكّر بروبو ولا يرى ما يعوقه عن قتله!

لم يعرف للنوم طعماً في تلك الليلة ، فقد ألحّ عليه خاطر القتل ، هذه الفكرة نكأت جرحه القديم ، وأنعشت وحشيته الكامنة في قلبه ، فلم لا يشبع هذه الغريزة المتوثبة؟ وليكن روبو الضحية ، ففي قتله شفاء له وإشباع لغريزته!

غير أنه تردّد في اليوم التالي ، فلم يغمد مديته في صدر روبو . فلمّا رأى سيفرين في المساء ، أطرق برأسه خجلاً . . ولدى ذهابه نظر إليها بطرف فيه وعد قاطع!

وما كادت تراه بعد يوم حتى استخرطت تبكي ، فأيقن أنها تبكي لأنه ضعيف واهن . . . فوطّد العزم على قتل روبو مهما كلّفه الأمر .

وعكف على وضع خطوط الجريمة ، فرأى أن يطعنه في إحدى الليالي المظلمة ، وأن يغرّر بالمحققين فيوهمهم أن لصّاً سطا عليه وسلبه ماله وحياته .

مرت أيام لم ير سيفرين في غضونها ، ولما زارها ، راعه منظر

عينيها ، فقد قرأ فيهما عبارات اللوم والتبكيت ! فحزّ ذلك في نفسه وآلى أن ينفّذ ما تردّد في تنفيذه .

ورجع بعد يومين ، فاستغرقت تبكي ، فنقم على نفسه ، وعقد العزم على أن يضرب ضربته القاضية مهما كانت النتائج .

سار معها في تلك الليلة وهما صامتان ، وقد اتجهت أفكارهما ناحية واحدة . ولـمّا سمعا الدقة الأولى بعد منتصف الليل ، قالت سيفرين : «لقد أتى روبو قبيل مجيئك ، فأخذ مسدسه ، وأظنه يزمع أن يتجول بين المستودعات» .

أدرك ما رمت إليه ، فقال وهو يقبّلها : «قرّي عيناً ، ستظفرين بحريتك الليلة !» .

وسمعا ركزاً ، وسمعا صوت خطى تقترب ، فقالت هامسة : «ها هو . . إنه قادم !» .

ومرّ روبو . . وكان من الهيّن على جاك أن يطعنه . . ولكنه لم يفعل ، بل شعر بالدم يتحول إلى ماء في عروقه !

وابتعد روبو ، فتنهّد جاك وقال وهو يبكي : «أواه ! لا أستطيع !» .

وأراد أن يضمها إلى صدره ويوسعها تقبيلاً ، غير أنها رمته بسهم من لحظها يحمل الغضب والاحتقار ، ثم ولّت معرضة . .

لقد احتقرته لضعفه وخوره ، وتركته دون أن تنطق بكلمة واحدة .

كرّت الأيام ، وزاد إقبال فيلومين على جاك ، حتى شك عاشقها وارتاب . . ثم هدّدها بالقتل ، كما أنذرها بقتل جاك إن اشتم منه رائحة الخيانة !

واتسعت شقة الخلاف بين سيفرين وجاك ، فأيقن هو أنّ إحجامه عن قتل روبو قد أقام جداراً من الجفاء بينهما .

وحدث في ليلة أن وثبت سيفرين عليه، فأحاطت عنقه بذراعيها وهي تذرف الدمع . .

فأخذ وجهها بين يديه وقال : «اصفحي عني . . انتظري . . وأقسم لك أني محقق عن قريب أربك !» .

وطبعت على فمه قبلة جائعة ـ وكانت القبلة بمثابة الختم يمهر به القسم !

- ١٠ -

الانتقام المريع

ماتت العمة فازي حتف أنفها في الساعة التاسعة من مساء الخميس ، فحاول زوجها أن يغمض عينيها ، ولكنَّ الجفنين ظلاَّ مفتوحين ، وكأن صاحبتهما تؤثر أن ترى ما يجري في غرفتها !

وأرسل الرجل فلورا إلى البلدة لتنعى أمها . ولمّا ذهبت أقبل على الأمتعة يبحث فيها ، وانتابه سعال حاد ، فاهتز من عنفه جسده الهزيل .

وأخرج من تحت السرير وعاء الحقنة المملوءة بالماء ، وكان قد انقطع عن إضافة السم إلى الملح بعدما شاهدته فازي يفعل هذا ، وأخذ يمزجه بماء الحقنة ، وفعل السم فعله بالمرأة هذه المرة فقصف عمرها وقضى عليها .

غسل الوعاء ، وأزال البقع الصفراء المنتشرة على الأرض حتى لا يبقى أي أثر لفعلته ، ولما اطمأن إلى كل شيء نظر إلى الميتة ، فالتقت العيون ، وخُيّل إليه أنها تتابعه بنظرها ، وأنها تخاطبه بتهكّم ، فتقول :

«ابحث . . ابحث . . أيها المخبول ! ابحث . . ابحث . .» .

وبحث ، وبحث . . ولم يجد شيئاً . . وظلّ الوجه الجامد بعينيه الجاحظتين يسخر منه ويتهكّم عليه .

وولجت فلورا الغرفة في تلك الدقيقة ، فنظرت إليه بازدراء وقالت وهي تمط بشفيتها :

«لا تشق على نفسك يا زوج أمي ، فالمال ليس موجوداً هنا . . إنه مغيّب مدفون . . في الحديقة إن شئت !» .

وجلست الفتاة الفارعة في جوار أمها . لقد أحبّت هذه الأم ، وارتابت بنوايا الزوج ، وداخلها الشك ، كما داخل أمها بمحاله وسوء فعاله . . .

ومرّ قطار في تلك اللحظة ، فتذكرت جاك وسيفرين ، وشعرت بالغيرة تنهش مهجتها ، وخاطبت نفسها بصوت مشرب بالحقد :

«لم لا أقتلهما؟ لم لا أضع كتلة هائلة من الخشب على الخط ، فأهشّم القطار ، وأدمر حياة هذين الشخصين اللذين قوّضا أملي وغيّضا رجائي؟ أمّا ما يصيب المسافرين فلا يهمني في شيء . . فلم أبالي بغيري . . أنا المهدمة المبعثرة الآمال؟ !» .

كانت هذه الأفكار قد خامرتها من قبل ، فوضعت الخطط القمينة بتحقيقها .

وأعادها إلى الواقع صوت متتابع ، فأطلت من النافذة لترى مزار منكبّاً على الأرض يقلب عاليها سافلها ! لقد جنّ الرجل ، ولن يترك بقعة من الحديقة دون أن ينبشها !

زفرت الفتاة من قلب مكلوم ، وسحت من عينيها دمعة محرقة ـ بعد خمس ساعات يمر القطار ، بعد خمس ساعات يمر جاك وسيفرين ، فليمت جاك ، ولتمت سيفرين ، ليمت كل إنسان ، وليلحق الجميع بأمها . . . فماذا يهمها؟ وماذا يحزنها ويغمها؟ فإلى الجحيم يا جاك ! وإلى الجحيم يا سيفرين ! وإلى الجحيم أيها الناس !

ودخل مزار المنبوش الشعر المغبر السحنة ، وجعل يضرب الحائط بقبضته ، والتفت إلى الميتة ، فصاحت عيناها :؟ «ابحث . . ابحث . . ابحث» .

وأجابهما بصوت متحشرج : «سأجد المال . . سأجد المال . . ولو

قلبت الأرض ، وقوّضت البناء ، وأزلت معالم المحطة !» .

واستدار على عقبيه ، وعدا سريعاً ، كأنه مجنون يهرول بلا غاية ويهيم على وجهه بلا نهاية !

ونامت فلورا في غرفة أمها . فلما شرقت الشمس ، فتحت النافذة وخرجت وهي تقول : «بعد ساعتين ينتهي الأمر !» .

وجلست تتابع مزار بنظرها ، حتى داعب النوم عينيها فأغمضتهما . . ورأت ، وهي في شبه غيبوبة ، جاك وسيفرين منطرحين أرضاً ، والدماء تنزف من جراحهما ، فصدر من فمها صيحة ظفر ، وفتحت عينيها وتلفّتت وقد داخل إحساسها شعور بالخوف والوجل .

وفجأها صوت ، فوثبت واستدارت ، فوقع نظرها على كابوش يحث الجوادين ويستعجلهما ، وكانت عربته محملة بقطع كبيرة من الصخور .

وقال عندما وقف قربها : «ما خطبك اليوم يا فلورا؟ أراك حزينة منغصة العيش !» .

قالت : «أصبت يا كابوش ، فقد ماتت أمي !» .

فصاح وهو يشرق بدمعه : «وأسفاه ! واحسرتاه ! أمك الطيبة ماتت؟ أمك المظلومة؟ سألقي عليها نظرة ، وأصلي من أجلها !» .

ودخل الغرفة فجثا قرب السرير ، ودفن رأسه بين راحتيه ، وصلى بصدق وإيمان . ونسي الميتة . . نسي كل شيء ، ولم يفكر إلاّ بلويزيت الحبيبة التي طواها الردى ، فتأوّه وذرف الدمع !

دوّى صوت القطار ، فأنصتت فلورا للهدير ، وخفق قلبها ، فاتجهت ببصرها إلى بيتها ، فلم تر كابوش . . ونظرت إلى الحديقة ،

فرأت مزار المنهمك في التنقيب!

تضاعف الهدير، وبانت من بعيد مقدمة القاطرة المزمجرة المقتربة بسرعة. وقاست فلورا المسافة بعين الخبير العارف، ولم تبطئ أن أهرعت إلى العربة، فأمسكت بلجام الجواد الأول وجعلت تشدّه... وانقاد الجوادان وسارا وراءها، وعبرت بهما الخط الحديدي، ثم أوقفتهما جاعلة العربة بحملها الثقيل تعلو الخط الحديدي.

واقترب القطار، وأيقنت فلورا أن الكارثة واقعة لا محالة. وحانت من مزار التفاتة فرأى العربة الهائلة، وحدس ما ينتظر القطار.. فأفلتت من فمه صرخة مريعة، وجعل يلوّح بيديه محذراً جاك.

وتنبّه كابوش لما يوشك أن يقع، فانطلق يعدو، ولكن فلورا اعترضت سبيله فسقط على الأرض وهو يئن بصوت مرتفع.

ورأى جاك من بعيد ما ينتظره، فاختلطت عليه المرئيات، ورمق فلورا في ذهول، وحاول أن يوقف القطار، فلم يطاوعه الحديد والنار.. وضغط صمام الصفير، فانطلق الزعيق في عويل حيوان يحتضره الموت!

وأغمض جاك عينيه وهو يصيح: «انتهى كل شيء.. ضاعت القاطرة.. ضاع القطار.. ضاع من في القطار..».

ورأى مزار وكابوش العربات الضخمة تتلاطم في عنف، ثم تعلو بعضها بعضاً، ولا تلبث أن تتساقط على الجانبين، ملتوية محطمة مهشمة!

وانشقّت القاطرة الفولاذية إلى نصفين، وانفجر مرجلها، وانتثر وقودها الملتهب.

وتصاعد إلى عنان السماء الصراخ والعويل.. وخرج من العربات

من استطاع الخروج من المسافرين ، وهم يصيحون ويأتون من الحركات ما هو أتعس من حركات الجنون . . وهام المساكين على وجوههم ، فكانوا أشبه بحيوانات حاق بها الويل ، ودهمها نفير الصيد ، فباتت لا تدري إلى أين تذهب ، لتسلم من الموت !

انتشر المساكين في كل ناحية ، وكأن الخطر يلاحقهم ويتعقبهم !

وهكذا ابتلعت الغابة عشرات من الناجين . . وكانت سيفرين من جملة من نجا ، ففزعت إلى بيكيه دون أن تحفل بثوبها الممزق ووجهها الملوث ، وصاحت به بصوت واله : «أين جاك؟ بربك ، أين جاك؟ !» .

فنظر إليها مشدوهاً وأجاب وكأنه نائم يتكلم : «لا أدري أين هو ، لا أدري . .» .

واتجه الاثنان إلى القاطرة الصريعة ، فالتقيا فلورا . . وشدهت الأخيرة . . فها هي سيفرين حية ترزق !

حملقت فلورا بعينين متسعتين تنفثان الحقد ـ لقد أفلتت سيفرين من الموت ، فماذا استفادت؟ ها هي غريمتها حية تشعر وتحس !

وهزت الفتاة الفاشلة كتفيها وقالت وهي تشير بيدها : «رأيته يسقط مع الحطام . . . هناك ، بين الركام والرغام . . فهلم إليه ، هلم نرفع عنه الأنقاض !» .

أسرع الثلاثة إلى القاطرة ، وأقبلوا على الأنقاض يرفعونها ، وكانوا يعثرون بين الحين والحين على الجثث والأشلاء . . وكذلك على الجرحى الذين ما زال فيهم رمق من الحياة .

وأخذ المسافرون الذين هاموا على وجوههم يعودون ، ليعينوا غيرهم في رفع الأنقاض واستخراج الأحياء والأموات .

ودأبت فلورا على عملها بقوة ونشاط ، وتمزق ثوبها فانحسر عن جزء كبير من جسدها . . بيد أنها لم تأبه لشيء ، بل استرسلت في عملها حتى تضرج وجهها ، وتصبب العرق من صدرها وذراعيها !

ومع ذلك استمرت تتحرك كالآلة ، ترفع الأثقال ، وتحطم بيديها الأخشاب ، وتغترف الفحم والجمر !

حتى إذا ما انكشف لها جسد جاك ، حملته كما تحمل الطفل ، وأنشأت تقول ودموعها تهمل من عينيها :

«إنه حي ! هو يتنفس ! شكراً لله» .

سارت به قليلاً ، ثم وضعته برفق على الأرض ، وانحنت عليه ترمقه بمحبة وولاء .

ولما اقتربت سيفرين ، أخذت العدوتان تراقبان خلجات وجهه ، وتبتهلان إلى الله في صمت وخشوع أن يدرأ عنه الموت .

واختلجت أهدابه أخيراً ، ففتح عينيه وتفرس في الوجهين ، ثم نظر إلى بقايا القاطرة ، فاتسعت حدقتاه ، وانبجس دمع عينيه ، فاختلط بالوحل والتراب .

ودنا بيكيه من زميله وهو ينتحب ، فقد تحطمت قاطرته الحبيبة ، وتحطم زميله الحبيب . . وبدت له هذه الرحلة خاتمة المطاف بالنسبة إلى حياته ، فأعول وضرب على صدغيه !

وفقدت سيفرين وفلورا أيضاً أملهما في نجاة جاك ، عندما خفت نفسه وغاب عن وعيه .

ووصلت فرقة الإنقاذ ، فنشط الجنود والأطباء والمحققون ـ أولئك يرفعون الأنقاض ، ويحملون القتلى والمصابين . . وهؤلاء يضمدون الجراح ، والأخيرون يبحثون في أسباب النكبة .

وتبيّن أن عدد المقتولين ينيف على العشرين ، وعدد المصابين بجراح ثخينة ينيف على الثلاثين ، وعدد المفقودين لا يتجاوز العشرة .

احتار الطبيب في أمر جاك ، ولم يعرف سبب النزف الخفيف من فمه ، ولمّا أشار بضرورة نقله إلى فراش يرتاح فيه ، أعربت سيفرين عن رغبتها في حمله إلى بيتها القريب ، كما أنها أبدت استعدادها لنقل هنري دوفرن مراقب التذاكر إلى المنزل ذاته .

فتح جاك عينيه في تلك الفينة ، فوقع طرفه الكليل على وجه فلورا الجميل ، فشاعت في محياه نظرة حقد يشوبها الخوف والهلع . . وصاح يهيب بسيفرين :

«سيفرين . . خذيني بربك بعيداً عن هذا المكان الملعون ! احمليني إلى أقصى المعمورة . . أواه ! أواه» .

فجمدت حركة فلورا . . فقد هالها ما أشرب جاك كلماته من الغضب والنقمة . . ولاحت لها صروح آمالها تتهاوى . . فكّرت في ما جنته يداها ، فأيقنت أنها ما كسبت من جريمتها البشعة إلاّ الكراهية ، وأنها ما أبعدت بين العاشقين ، بل قربت قلبيهما الواحد من الآخر ! هذا ما ظفرت به ، وبئس الظفر ظفرها . . ويا ليتها لم تظفر إلاّ بالموت يريحها من تعاستها ! ارتكبت الجريمة الرهيبة ، فماذا استفادت؟ وهتف صوت من أعماقها يقول بصوت عميق فظيع :

«لا شيء . . لا شيء . . .» .

وجاء مزار برجلين ومحفة ، فتعاونوا على رفع جاك .

وقبل أن يحملوه إلى البيت الكائن في مفرق موفرس ، انحنت سيفرين فقبّلته وهي تقول بصوت مهموس : «اطمئن يا جاك ، فأنا معك !» .

رأت فلورا القبلة التي طبعتها غريمتها على جبين جاك، وسمعت الكلمات التي نبست بها فخثرت نفسها، وانقطع آخر خيط من خيوط أملها.. ولم تطق صبراً، بل أطلقت ساقيها للريح، حتى إذا ما وصلت إلى بيتها، اقتحمت على أمها الميتة غرفتها، فألقت عليها نظرة والهة، ثم انطلقت كالسهم، فطوتها الغابة في أحشائها.

وجاست فلورا في خلال الغابة، وجالت في أنحائها، وقادتها خطاها إلى مكان قريب من النفق لا يعرفه إنس ولا جن، فلاذت به.. وكان الوقت ظهراً.. والشمس في كبد السماء.

وقدحت زند الفكر، ولكنها لم تفز بطائل.. وأدخل الوهم في روعها أنها ميتة.. ولكنها تأكّدت من أن جاك شاهدها وهي تضع العربة فوق الخط،، وإلاّ لما أجفل حينما رآها منتصبة أمامه ورماها بنظرة الحقد!

وفكّرت في الموت، واصطرعت في قلبها المشاعر.. ولكنها استسلمت للنعاس، فنامت ساعات طويلة.

تنبّهت من رقادها في التاسعة، فرأت شبح الموت ماثلاً... إنه منقذها الوحيد، فقد زال معنى الحياة بعد الجريمة المروعة.

ونهضت بقامتها الفارعة وجمالها القوي، وانسابت إلى النفق المظلم.. وتوقفت هنيهة تنظر إلى الأرض الحبيبة، وتمسح عبرة انتثرت من عينيها.. ثم تغلغلت في جوف الأرض، حيث ينتظرها العدم!

*

سارت فلورا ببطء، ثم أسرعت... واعتملت الأفكار في رأسها

ـ هل تستلقي على الخط حتى يدهمها القطار ، أو تستمر فتلقاه وهي على قدميها؟

واختارت أخيراً الموت وهي تمشي . . فالكسل لم تعرفه أبداً ، وقد قضت أيامها في حركة ونشاط يقصر عنهما أقوى الرجال . . فلتمت إذاً كما عاشت ، ولترقد رقدتها الأخيرة بعد أن يتمزق جسدها الغض ويتفتت !

وبان لها من الفجوة بصيص خافت ، فصاحت صيحة الظفر والخلاص .

واقترب البصيص ، فخُيّل إليها أن نجماً بعيداً أخذ يهوي . . واستمرت تمشي بسرعة وثبات ، كأنها تهرع لملاقاة حبيب !

واقترب القطار المندفع كوحش ، واستحالت البصوة الضئيلة شمساً مشعة . . وصم الدوي أذنيها ، ولكنها لم تجبن . . بل مشت قدماً ، إلى أن تلاقت مع حبيبها في عناق الموت . . فتهشّمت جمجمتها ، وتقطّع وجهها . . إلاّ أن جسدها الرائع الجميل لم يصب بخدش يشوه من كماله ، بل بقي على حاله جميلاً سليماً لا تشوبه شائبة !

بعد ساعة ، كانت فلورا مسجاة في جوار أمها ، وكان مزار منهمكاً في البحث عن الثروة ، وكان الموت يلعق شفتيه ويمتص النجيع الحار في زهو . . . فقد فتك بالعشرات ، وها هو يظفر بأجمل فتاة - بالفتاة التي طالما هزأت به ، وتحدته ، وقهرته !

لقد ظفر الموت بفلورا في نهاية المطاف .

- ١١ -

جنون الجسد

كان مخدع النوم في بيت سيفرين، الواقع على مفرق موفرس، مصنوعاً من الحرير الموشى. إلى هذه الحجرة الجميلة حمل جاك الغائب عن الوعي، وفي غرفة أخرى في الطابق الأول، وضع هنري دوفرن، واختارت سيفرين لنفسها غرفة ثالثة تواجه مخدع النوم.

ولحق بهم كابوش بعد حين، فأعان سيفرين على تنظيم المنزل وترتيبه.. حتى إذا أتمّا ما بدآه، بعثت به إلى مركز البريد ببرقية تنبئ فيها زوجها بما حصل للقطار، وتقول في نهايتها:

«ولكني نجوت ولم أصب بأذى.. سأمكث هنا بضعة أيام، لأن الأطباء أشاروا عليّ بذلك، ورجوا مني أن أعنى ببعض الجرحى والمصابين!».

وكان الطبيب قد طمأنها، وأكّد لها أن جاك قد نجا هو الآخر من الموت، وأوصاها بالعناية به وتوفير جميع وسائل الراحة له.. فلمّا استعاد جاك وعيه، أخبرته سيفرين أنه لن يلبث طويلاً حتى يسترد عافيته وقوته، وتوسلت إليه أن يحتاط ويحترس، وأن لا يبذل أي مجهود مهما كان نوعه.

لم يقو جاك على الرد عليها، ولكنه أحنى رأسه، ثم تأمل في الحجرة الحمراء، فعرفها... فقد طالما وصفتها له سيفرين، في سياق حديثها عما وقع لها فيها، وعما فعله موران.. فعلى هذا الفراش سلبها الكهل عفافها! وشعر بالحزن يطبق عليه.. وحدثته نفسه المكروبة بأنه لا بد ملاق حتفه عاجلاً فيها!

وأخبرته سيفرين أيضاً أنها أخذت ساعة موران من جيبه بعد الحادثة ، حتى لا يعثروا عليها معه فتسوء العاقبة . فشدّ على يدها شاكراً . . واسترعى انتباهه في تلك اللحظة السكين التي أخذها منها فيما سبق من الأيام ملقاة على الخوان القريب منه !

وتماثل جاك للشفاء شيئاً فشيئاً ، ففارقه ذلك اليأس الذي أناخ على صدره يوم جيء به إلى المخدع . . وزال خوفه من الموت فيه !

ولزم كابوش سيفرين ، وكان يخدمها ويصدع بأمرها . . وكانت عيناه تلاحقانها ، وتتبعان حركاتها . . ولم يكن لينكس طرفه المنهوم إلاّ متى التقت العيون مصادفة .

لم تذكر سيفرين شيئاً عن هنري ، ووجوده في الغرفة السفلى ، إلاّ أن إحساسه المرهف جعله يشك في أمرها ويعجب من تغيبها . فلما سألها مستوضحاً ، زعمت أن الطبيب أوصاها بأن توفّر له قسطاً من الهدوء والوحدة . . وعندما استفهم منها عما إذا كان أحد غيرهما يقيم في البيت ، نفت ذلك نفياً قاطعاً ! غير أنها لم تنقطع عن التسلل إلى الخارج ، وقضاء الساعات بعيدة عنه .

وتناهى إلى سمعه لغط في أحد الأيام ، وقرقرة ناعمة . . فلما آبت راجعة بعد ساعة ، قال مقطّباً : «أصدقيني القول يا سيفرين ، من يا ترى يحتل الغرفة في الأسفل؟ فقد سمعت صوت رجل وضحكة امرأة !» .

قالت : «لا تحنق ، لقد اضطررت إلى الكذب ، فهنري دوفرن يحتل تلك الغرفة . . وما جئت به إلاّ مرغمة ، بعد أن أصيب هو الآخر بما جعله في حاجة إلى العلاج والعناية» .

وكتم جاك ما خامر صدره من ريبة وغيرة ، ولكنه أيقن أن

سيفرين منافقة ، وأن هنري نال أخيراً ما صبا إليه ، ولا يزال يبلغ وطره منها كلما شاء ! كما رأى من حركات كابوش ، ما أدخل في روعه أن هذا المارد الساذج ، وقع أيضاً في غرام سيفرين !

وصارحها بهواجسه ، وبالذي لحظه ، فترددت ثم أجابته بلا ارتباك ، فقالت :

«لا يسعني إنكار الحقائق يا جاك ، فقد أظهر هنري من الود ما حبّبني به ، وجعلني أرضخ إليه ، وألبي نداء العاطفة المشبوبة . . أما كابوش ، فهو متيّم بحبي ، كما رأيت أنت ، ولكنّي أخافه وأخشاه ، وأفزع من جسده . . بيد أني أرثي له وأشفق عليه ، وأعطيه قليلاً من كثير . . فهو يقبّل أطراف أناملي ، وينظر إلى ساقيّ ، فلا أزجره . . وهو يأخذ بعض أدوات زينتي ، فأغضي ، ولا أرى بأساً عليّ ما دام هو يكتفي ولا يستزيد !» .

ودنت منه ، وانحنت حتى لامس صدرها وجهه ، وتابعت والأرج الطيب الذي سطع من نهديها يفعم أنفه : «ومهما كان الأمر ، فأنا لك ما حييت . . أنت الحبيب الأثير الذي ملأ حبه شغافي !» .

واضطجعت وراءه والتصقت به ، فأحس بالنار تندلع من جسده ، وأحس برغبة القتل ترجع إليه عنيفة مسعورة ، فوثب إلى المصباح فأطفأه ، حتى لا يرى الجسد الجميل ، ولا يبصر السكين !

وغرقا في لجة شهوتهما ، وقطفا من ثمار اللذة ما طاب وحلا لهما ! ولم يناما ، بل استرسلت سيفرين في الحديث ، فقصّت عليه أخبارها ، وأنبأته بمخاوفها وهواجسها .

لم تشعر بالأمن والسلام في تلك الليلة أو بالدعة والرضا ، فقد حدثتها نفسها المرهفة بوقوع الشر ، فحرصت على تزجية ساعات

الليل في حديث ومناجاة . . بينما دأب جاك على تقبيل شفتيها ، ولثم جيدها . . ثم الانحدار بفمه المتلمظ إلى صدرها لامتصاص البرعمين النافرين .

تحدثت عن أمانيها التي بدّدتها الرياح ، وآمالها التي طالما داعبتها في الليل والنهار ، ثم ولت إلى غير رجعة ، وروبو ، وإحجام جاك عن قتله . . وتمنّت لو تسنى له أن يسلكه في زمرة الغابرين ، ليريحها منه ، ويصحبها من بعد إلى أميركا ، حيث الهناء عميم ، والسعادة دائمة لا تريم !

وعنت لجاك فكرة ، فقاطعها قائلاً : «لم لا تستدرجينه إلى هذا المنزل ، فيسهل علينا قتله بطريقة مأمونة نتنصل بها من الفعلة؟» .

فأجابت متلهفة : «أجل ، أجل ، لم لا تفعل ذلك؟ وعليك في هذه الحالة أن تغادر البيت بالقطار على مرأى من مزار وكابوش ، وتنزل خفية في روان ، ثم تقفل راجعاً بعد أن يجن الليل ! سأرسل له في الصباح برقية عن شخص يروم شراء البيت . . ومتى استلم البرقية ، واشتم رائحة المال ، هرع إهراعاً إلى هذا المكان !» .

وأرسلت سيفرين البرقية إلى زوجها ، وركب جاك القطار في أصيل ذلك اليوم ، فنزل في روان ، ثم عاد أدراجه ، فوصل في التاسعة ليلاً ، فألفى سيفرين مشتملة بقميص النوم ، فصاح بغضب وانفعال :

«ارتدي ملابسك ويحك !» .

فنظرت مبهوتة ، ثم ابتسمت وقالت : «إن كنت تخشى عليّ من البرد ، فسأنام في الفراش وألتحف الغطاء !» .

ولما فعلت ما قالت ، وغيبت جسدها تحت الغطاء ، هدأت

ثائرته . . ولكنه لم ينس أنه منذ الدقيقة التي رآها فيها مشتملة بملاءتها ، غاب عن باله أنه قادم ليصرع روبو ، وود من صميم فؤاده أن يطعنها بالسكين المطروحة على الخوان !

غريزة القتل اهتاجت في قلبه ومشاعره ! بيد أن اتزانه عاد إليه بعد أن حجبت مفاتنها ، ففكر ثانية بروبو ، بأنجع الوسائل التي تنيله وطره !

وكانت سيفرين إبان ذلك تنظر إلى وجهه ، وتتأمل في حركاته . . وتعجب للتقلص الشاذ الذي أصاب محياه ، حتى صيّره أدنى إلى ذئب منه إلى إنسان !

ورمت عنها اللحاف فجأة ، فارتعدت فرائصه وأصابته قشعريرة . .

ووثبت واقفة ، فرأى جسدها . . ورفعت المصباح ، فعكس عليها ضوءه فضاعف من روائها . . فصاح مزمجراً :

«ضعيه ! ضعي المصباح ! أبعديه ! أسرعي . . تبّاً لك !» .

فاستجابت ذاهلة ، ووضعته على الأرض ، ثم تقدمت منه وهي تبتسم ابتسامة الواثقة من سلطانها . . . فنكص إلى الوراء مكفهراً ، حتى التصق ظهره بالخوان !

وألقت سيفرين عنها الملاءة ، فتجلت له عارية كما خلقها ربها . . ودنت منه . . وما زالت تدنو رويداً . . رويداً . . رويداً . .

وصاح متوسّلاً : «أرجوك ! ابتعدي !» .

فقالت في غنج : «أواه ! قبّلني . . ضمّني إليك . . احتوني بين ذراعيك !» .

ودارت الدنيا في عينيه ، وطنّ صوت هائل في جمجمته ، واشتعلت النيران في رأسه ، ثم امتدت إلى سائر أعضائه ، كأن

الوحش الرابض في قرارته نفث الأجيج!

وأحس بصدرها العالي يلامس صدره، وبجسدها الرخص يميل على كتفه، ولمح هذا الجسد الغض البض!

وهمست في نشوة السكران: «قبّلني يا حبيبي، قبل أن يصل روبو».

واصطدمت أصابع جاك بالسكين، فالتقطها.. وهتفت هي: «جاك.... حبيبي!».

ورفع السكين، ولكنها لمحت النصل اللامع، فرمت بنفسها إلى الوراء وهي تقول:

«ما بالك يا جاك؟ ماذا دهاك؟؟».

فأطبق عليها، فتشبثت بيده، ولكنه حملها إلى الفراش وطعنها، فصرخت من الألم:

«حرام عليك، لا تستمر! أنا أحبك!».

وطعنها في عنقها، ولف المدية، فانبثق الدم متدفّقاً.. وجمدت الكلمة الأخيرة على شفتيها!

وتصاعد صوت القطار، فنظر جاك إلى الجثة الهامدة، فروعته الدماء، وأفزعته العينان الجاحظتان المتسائلتان: «لماذا..؟».

وسمع زئير وحش، فتلفّت يمنة ويسرة، وسرعان ما أدرك أن الوحش كامن في قرارته، وأن زئيره هو زئير الرضا!

شعر بالراحة والسرور، لقد نال ما اشتهاه، فرمى بالسكين، وانطلق لا يلوي!

*

جاء كابوش، كعادته في كل ليلة، يسترق النظر إلى سيفرين من

النافذة ، فما كاد يدنو من البيت ، حتى مرق بالقرب منه مروق السهم شخص لم يتبيّن ملامحه ، فأجفل وتردّد ، ثم ولج البيت من الباب الموارب .

وتقدم من المخدع ، ونظر في وجل ، فرأى سيفرين المجندلة الغارقة في الدماء ، فاندفع نحوها وهو ينشج ويبكي . . ولم يلبث أن رفعها بين يديه ، ولكنه ألقاها بسرعة على الفراش بعد أن أيقن من موتها .

ودخل روبو في تلك الدقيقة ومعه مزار ، فجمدا ولم ينطقا . . ونظرا في بله وكأنهما لا يصدقان ، وكأنهما لا يريان كابوش القاتل الملطخ بالدماء .

واقترب مزار من الجثة فتأمل فيها هنيهة ، ثم قال : «انظر . . انظر . . ماتت كما مات موران ، مطعونة في عنقها !» .

فهزّ روبو رأسه ونظر إلى وجه امرأته المتجسم فيه الهلع ، الناطق برعب وفزع ، وقال وفي حلقه غصة : «لماذا؟» .

- ١٢ -

أنا بريء أيها القضاة

في إحدى ليالي الربيع الدافئة ، وبعد أن مرت شهور ثلاثة على حادثة القطار ، كان جاك يقود قاطرته الجديدة إلى الهافر ، وكان النسيم العليل يهب على وجهه في دفقات متوالية فينعش روحه ، ويشرح صدره ، ويدخل المرح والسرور إلى قلبه . . حتى إنه لم ير بأساً من المزاح مع بيكيه المتجهم المقطب الحاجبين . . . وقال وهو يضحك :

«ما لي أراك ساهماً مسترسلاً في الفكر يا بيكيه؟ هل كنت تشرب الماء القراح عوضاً عن الخمر والراح؟» .

فأجابه بيكيه بصوت كئيب مغموم :

«على المرء أن يبقى مفتوح العينين إن شاء أن يرى ما يجري حوله ، ويقع وراء ظهره !» .

فحدجه جاك بنظرة مفعمة بازدراء الرجل الذي خدع صديقه وغرّر به ـ فمنذ أسبوع لان لإغراء فيلومين ، فاستولى عليها وامتلك جسدها ، ولم يرضخ لمراودتها إلاّ أملاً في عجم عود نفسه ، وقدح زند وحشيته ، حتى يعلم إن كان قد شفي من دائه ، فزالت نزوته المريعة ، وفارقته رغبته في التقتيل كلّما خلا بالمرأة ، ووقع نظره على مفاتن جسدها !

وأيقن بعد أن اجتمع بها ، في ليلتين متواليتين ، أنه بريئ من الجنون الذي يستولي عليه . . . فلمّا فكّر في انعتاقه من عبودية القتل ، إبان عودته بقاطرته في تلك الليلة الدافئة ، غمره السرور ،

ـجنّب قدر طاقته جميع أسباب المشاحنة التي كثر ما شجرت بينه
بين مساعده في الآونة الأخيرة . . وآلى على نفسه أن يلزم جانب
لحذر في علاقته بفيلومين ، حتى لا يقع في ما لا تحمد عقباه ـ
بيكيه رجل شرس غيور ، يرتكب الشطط إذا ما ألهبت رأسه سورة
لخمر . . .

ولـمّا وصلا المحطة وترجّلا من القاطرة ، فتحت لهما فيلومين باب
لمطبخ ، وألحّت عليهما أن يشركاها في كأس معتقة من النبيذ ،
تمنّع جاك وانتحل الأعذار ، ورجا منها أن تعفيه الليلة ، لأنه مكدود
حوج ما يكون إلى النوم .

إلاّ أن بيكيه دفعه إلى الداخل كأنه يقسره ، وهو يرجو أن يكنه
سره .

وجاءت فيلومين بالخمر ، فجلس الثلاثة يحتسونها ويتجاذبون من
الحديث ألواناً . . بينما راح بيكيه يختلس النظر إلى عشيقته بعين
متيقظة والغيرة تنهش أحشاءه ـ فهو لا يجد خليلته في هذه الحالة
من المرح والحيوية ، إلاّ متى كان جاك موجوداً !

وهتفت فيلومين بغتة : «أحقاً ما سمعته من أن محاكمة روبو تبدأ
الأسبوع القادم؟» .

فأجاب جاك بهدوء من لا يعنيه الأمر : «أجل ، وقد استلمت
إشعاراً بذلك وتبليغاً للمثول في دار القضاء كشاهد اتهام . .» .

فدنت منه فيلومين ، وأمسكته من يده ، ونظرت إلى عينيه نظرة
محبة وولاء ، وقالت :

«حقّق معي المدعي العام واستجوبني ، وسألني عنك ، وسألني
عن علاقتك بسيفرين ، فقلت له إنك كنت تعشق هذه المرأة ، وما

كان ليخطر لك على بال أن تنالها بالأذى !» .

فقال جاك بقلة اكتراث : «إنني مرتاح الضمير ، واثق من مقدرتي على إثبات وجودي في مكان آخر عند وقوع الجريمة . .» .

قالت : «أمّا ذلك الوحش كابوش ، فأنا أشعر بالرعدة تسري في بدني كلما فكّرت فيه وفي جريمته البشعة . . والشيء الذي لن يغرب عن بالي ، هو إقدام الكولونيل غوش على احتجاز صديقه الحميم روبو !» .

وضرب بيكيه على المنضدة بقبضته ضربة أطاحت بما عليها ، وصاح بصوت جهير : «تبّاً للعدالة ! تبّاً للعدالة التي تفعل ما لا تعرف ، وتتصرف بخرق وغباوة . . يقبضون على روبو ويلقون به في غيابة السجن ، لأن جاك كان يضاجع امرأته ، ولأن شخصاً آخر ذبحها . . ولا يكتفون بذلك ، بل يقدمونه للمحاكمة بتهمة قتلها . . فهل سمعتما بمثل هذا الشذوذ؟ !» .

فقالت فيلومين وهي تحرق على الأرم : «لا تكن عجولاً أيها الأبله ، فقد قبضوا على كابوش وفي حوزته ساعة موران ، ولا جرم أن روبو أغراه بالمال كي يقتل امرأته ، فكانت الجريمة الثانية مفتاح الجريمة الأولى . . وهكذا قبض على المجرم المجنون الذي عاث فساداً في هذه الناحية ، وأراق دماء زكية طاهرة !» .

وقال جاك ، وهو يتصنّع قلة الاهتمام : «ليأخذ العدل مجراه ، فهذا لا يعنيني في شيء . . أمّا الأمر الذي حزّ في قلبي حتى فرى حشاشته ، فهو مقتل سيفرين !» .

وقال بيكيه بحدة وغيظ : «أما أنا ، فلن أتردد عن قتل عشيقتي وإلحاق الأذى بالرجل الذي يخونني ويخدعني بها !» .

وألقى على جاك وفيلومين نظرة ضارية، ثم نهض من مكانه وجعل يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً ويتمتم : «نعم . . سوف أقتل من يخونني معك يا فيلومين، وأقتلك أنت أيضاً، لو تجرأت على خفر عهدي !» .

*

كانت المحاكمة، المحدد لها يوم الاثنين، للنظر فيها في مدينة روان، بمثابة النصر المبين لدنيزيي المدعي العام . . فجميع الصحف أشادت بموقفه، وبالطريقة الذكية التي عالج بها القضية .

فقد وضع الحبل مقدّماً حول عنق كابوش المارد المخيف، الذي أقدم على قتل سيفرين بعد أن ضنّت بجسدها عليه، لكي يستولي على هذا الجسد الفاتن بعد موتها . .

ولـمّا ذهب المدعي العام إلى كوخ الرجل، وعثر فيه على ساعة موران، وبعض أدوات الزينة والتجميل التي كانت من مقتنيات سيفرين، انقلب الشك يقيناً، فأثار ضجة عظيمة حول هذه القضية، وحرّك قضية موران من جديد !

وفي ساعة من ساعات الوحي، أمر دنيزيي بإلقاء القبض على روبو بصفته شريكاً ومحرضاً في الجريمتين معاً، وزعم أن الحافز على هاتين الجريمتين كان الطمع !

ولـمّا ضيّق عليه الخناق بأسئلته، لم يجد مندوحة عن الاعتراف بجريمته، فقص عليه ما جرى، وأخبره كيف أرغم سيفرين على كتابة الرقعة . . وكيف تمّ بعد ذلك انتقاله إلى عربة موران وقتله للرجل بمساعدة زوجته .

إلاّ أن المدعي العام لم يصدق قصته، وخُيِّل إليه أن روبو داهية

ماكر ، اختلق هذه القصة لكي يثبت للمحلفين أنه قضى على موران وهو في سورة من الغيرة الرعناء الهوجاء ، فيعطفوا عليه ويرأفوا به !

تسرّبت القصة إلى صحف المعارضة في پاريس ، فأرسل كامي لاموت وزير العدل في طلب دنيزيي . . فلما مثل المدعي العام بين يديه ، سأله مستوضحاً : «ما رأيك في قصة روبو واعترافه بأنه قتل موران بدافع من الغيرة يا دنيزيي؟» .

فقال المدعي العام وهو يمط شفتيه : «الغيرة ! هذا ابتداع أدنى إلى التهريج ، فروبو منافق لا يقيم وزناً للشرف ، فقد بذل جهده ليجمع بين زوجته وعاشقها جاك . . فأين الغيرة التي يتبجّح بها ويتغنى باسمها؟ لقد ادعى أنه قسر امرأته على كتابة رقعة صغيرة إلى موران ، فأين هذه الورقة يا ترى؟ هل عثرتم عليها في أثناء تفتيش بيت موران؟ هل وجدتم هذا الدليل الذي يتسنى لروبو به أن يدعم قصة الغيرة؟» .

فـفكّر الوزير هنيهة وأجاب وهو يحدج المدعي العام بنظرة صارمة : «كلاّ ، لم نعثر على شيء من هذا القبيل . .» .

وسرعان ما تبدّلت نظرته القاسية إلى نظرة لينة وادعة ، فشرع يمتدح دنيزيي ، ويشيد بكفاءته وحصافته .

ولـمّا غادره دنيزيي ، تناول الرقعة الصغيرة من درج صغير ، فأعاد تلاوتها ، ولم يلبث أن أشعل شمعة فأحرقها عن آخرها !

*

افتتحت هيئة المحكمة جلستها الأولى ، فغصّت القاعة الكبيرة بالصفوة من كلا الجنسين ، وجلس المحلفون المتشحون بالسواد في مقاعدهم ، وتبوأ القاضي منصته ، وقبع الكتبة وراء مكاتبهم ، على

مقاعدهم المتواضعة ، ووقف الحجاب والمباشرون قرب المداخل والمخارج .

شرع في استجواب كابوش ، فكان يجيب على الأسئلة المتثالة بقوله :

«لا أعلم . . لا أعلم . .» .

ولـمّا سئل عن الساعة التي وجدت في كوخه ، نفى علمه بها وبوجودها . ولـمّا سئل عمّا صنعه بجسد ضحيته استعر نار غضبه ، فهاج وماج ، ولم يرجع إليه هدوؤه إلاّ بعد أن تعلق بجسده الهرقلي أربعة من الجنود الأشداء !

وتمسّك روبو بموقفه ، وأصر على صحة ما قاله ، ولم يضف إليه حرفاً .

وأدلى غوش بشهادته . . ثم تبعه هنري دوفرن ، فزعم أنه سمع روبو وكابوش يتآمران في خلوة على حياة سيفرين !

وساعة علا جاك منصة الشهود ، حكى ما وقع له ، مثبتاً بصورة قاطعة أنه قضى ليلته في روان ، ثم استخرط في البكاء وذرف الدمع السخين ! فتصاعدت أنّات النساء ، وأوشك المحلفون ، لولا قليل من التجلد ، أن يشاركوه في أساه ، فيسفكوا دموع اللوعة والرثاء !

وقبل جنوح الشمس إلى المغيب ، نطق القاضي بحكمه ، فكان السجن المؤبد لكلا المتهمين !

ضج جميع الحاضرين . . ولغطوا وهم يغادرون القاعة ، ينعون على المحلفين لينهم ، واستخذاءهم ، وضعف قلوبهم !

وبينما كان جاك في طريقه إلى الخارج ، اعترضت فيلومين سبيله ، وقالت وهي تتأبط ذراعه :

«ما قولك بقضاء الليل معاً في روان يا جاك؟» .

قال : «هذا ما أشتهيه ، بيد أني مضطر للذهاب إلى باريس !» .

قالت : «فلنطعم معاً إذاً» .

قال : «حباً وكرامة . . هيا بنا» .

ومشى الاثنان إلى مطعم صغير ، وأخذت المرأة تلتفت وتقول :

«أتعلم يا جاك أني شاهدت شخصاً يشبه بيكيه كل الشبه؟» .

فارتعش جاك ، غير أنه تجلّد ولم يجب .

دلف الاثنان إلى المطعم ، فانتبذا ناحية منه ، وأقبلا على الطعام والشراب بشهية . . ولـمّا اكتفيا ، خرجا إلى الضواحي يتنزهان ، واعترضتهما شجرة باسقة وارفة الظل ، وهما يتجوّلان ، فاستلقيا تحتها يستريحان .

يا للهول ! لقد رأى الدم المنبثق ، والعنق المنشق ! وفتش عن مدية . . تحسّس الأرض بقدمه ويده ، علّه يجد أداة صالحة ! ها هي وحشيته المسعورة تعود إليه في أعنف حالات هياجها ! فليهرب . . ليهرب قبل أن ينغمس في جريمة أخرى .

ووثب من مكانه كمن به مس !

فتشبثت به فيلومين . . غير أنه انتزع نفسه من قبضتها بفظاظة وولى هارباً لا يلوي .

ما كاد يبتعد ، حتى تناهى إلى سمعه صوت رجل يصخب ويصيح . . فتريث وأصاخ . . وسمع الرجل يهدّد قائلاً :

«أيها الداعرة ! أيها المومس ! يا فاسقة ! لقد انتظرت طويلاً وضبطتك أخيراً . . ضبطتك متلبسة بالخيانة ! أنا أعرفه ، وسأصفّي حسابي معه قريباً ! أما أنت ، فخذيها . . خذيها . .» .

وسمع جاك صوت لطمتين شديدتين ، فأطلق ساقيه للريح !

لم يفر جاك خوفاً من بيكيه . . بل من الوحش المفترس الكامن في قرارته !

فجريمة قتل واحدة لم تنقع غليل هذه الروح الضارية ! جريمة قتل واحدة لم ترو ظمأ الوحشية المتمردة ! جريمة واحدة لم تكف !

ولا ريب أن جريمة ثانية لن تكفي أيضاً . . فستجوع هذه الروح الشريرة ، وستظمأ . . وسيكون مكرهاً على إشباع جوعه ، وإطفاء ظمئه !

إنه رجل هالك . . مقضي عليه . . إنه رجل ميت الأمل ، ميت الرجاء . . إنه رجل لم يبق له في هذه الدنيا إلاّ اليأس والبؤس والشقاء !

وكان بيكيه ، عقب تلك الليلة التي اطلع فيها على خيانة فيلومين ، قد تبدّل تبدلاً كاملاً ، فأعرض عن جاك ، وقلّل من حديثه معه . . وإذا ما كلمه ، كان يشيح بوجهه احتقاراً وازدراء ! كما أنه تمرد على أوامره ، وضرب بها عرض الحائط .

وجاء إلى عمله في ليلة يتمايل ويترنح . . كان مخموراً يكاد يتهاوى على الأرض من شدة سكره ، فاضطرب جاك ، وأوجس خيفة . . فهو يعلم أن بيكيه لا يستسيغ الشجار إلاّ متى استولت على لبه سورة الخمر !

فلمّا غادر القطار المحطة ، واندفع يخترق سجف الليل البهيم ، التفت جاك إلى مساعده ، فرآه يقذف بالوقود إلى بيت النار . . فنهاه عن ذلك . . فلمّا لم يمتثل ، زجره بعنف وقسوة .

وتظاهر بيكيه أنه لم يسمع ما تفوّه به جاك ، واستمر يقذف

الفحم إلى بيت النار ، فما كان من جاك إلاّ أن دنا منه وأمسك به من يده . . فاستدار بيكيه متجهّماً وأخذ على الفور يتهجم عليه . . لقد حانت الساعة التي انتظرها بفارغ الصبر !

وصاح كالمجنون : «ابتعد أيها القذر وإلاّ حطمت وجهك !» .

فأجابه جاك وهو يكتم غيظه ، ويكبح ما يختلج صدره :

«لا تلق في النار بمزيد من الفحم يا بيكيه !» .

وضحك بيكيه ضحكة مجلجلة ، ثم انقضّ وهو يرغي على جاك ، وهمّ به ليلقيه من القاطرة !

فتمسّك به جاك ، ودارت بين الاثنين معركة حامية الوطيس . . واقترب الجسدان الملتحمان من باب القاطرة .

ووصل القطار إلى مفرق موفرس ، وما عتم أن اخترق النفق ، ثم اندفع خارجاً من الناحية الأخرى ، والرجلان يتعاركان عراك الموت !

حاول جاك أن يوقف القطار ، غير أن قوته المنهارة المضعضعة لم تمكّنه من رفع يده . . واشتباكه مع بيكيه حال بينه وبين ما توخاه !

وتمكّن منه بيكيه فجأة ، فحمله بين ساعديه ، ورمى به على سلم القاطرة ، ولكن جاك تشبّث بعنقه قبل أن يقع من القاطرة المنطلقة بأقصى سرعة .

وتدحرج الاثنان !

ودوّت صرختان مريعتان مزقتا السكون وترددتا في الظلمات .

ومرت العجلات الحديدية على جسدي الرجلين فشطرتهما نصفيْن . . ولكن نصفيهما الأعليين لبثا متعانقين متضامين !

لقد عاشا متلازمين ، وها هما يموتان متلازمين ، بل متعانقين . . يحتضن الواحد منهما الآخر .

واستمرت القاطرة تنطلق بأقصى سرعة . . واستمرت تهدر وتضج . .

وتضاعفت سرعتها ، فلم تقف في محطة ، ولم تحفل بإشارة . . وضحكت من أصوات الخوف والتحذير التي أطلقها موظف من الموظفين !

*

وحش أعمى انطلق من إساره .

وحش أعمى أفلت زمامه ، فاندفع إلى الأمام ، لا يرى ولا يبصر ولا يسمع .

اندفع إلى الأمام وهو يزعق في جنون يفوق الجنون !









حين نشر زولا روايته الأولى «تريز راكان» أثارت موجة من الغضب في الأوساط البرجوازية، ووصفتها الصحف بالأدب المتعفّن، ثم بعد ذلك وُضعت في القائمة السوداء وسحبت قدم كاتبها إلى المحاكمة.

والجدير بالذكر أن هذه الرواية صارت بمثابة الدجاجة التي تبيض ذهبًا للمخرجين السينمائيين. وهي رواية لا تنتمي بالطبع إلى الروايات الشعبية ولكنّ أحداثها أقرب ما يدور في هذه الروايات على أنّ أيًا من هذه الأفلام لا يرقى إلى مستوى الرواية التي سطرها الروائي إميل زولا.

وفي «الوحش في الإنسان» يمكن إرجاع زولا إلى الفكرة التي هيمنت على روايته هذه، فجميع أشخاصها تتسلط عليهم فكرة ثابتة تجعلهم لا يلاحظون ما يدور حولهم، فينتهي بهم الأمر إلى التصادم ووقوع الكوارث لأنهم يسيرون بدافع أهوائهم في خطوط مستقيمة كقضبان السكة الحديد.

علي مولا



